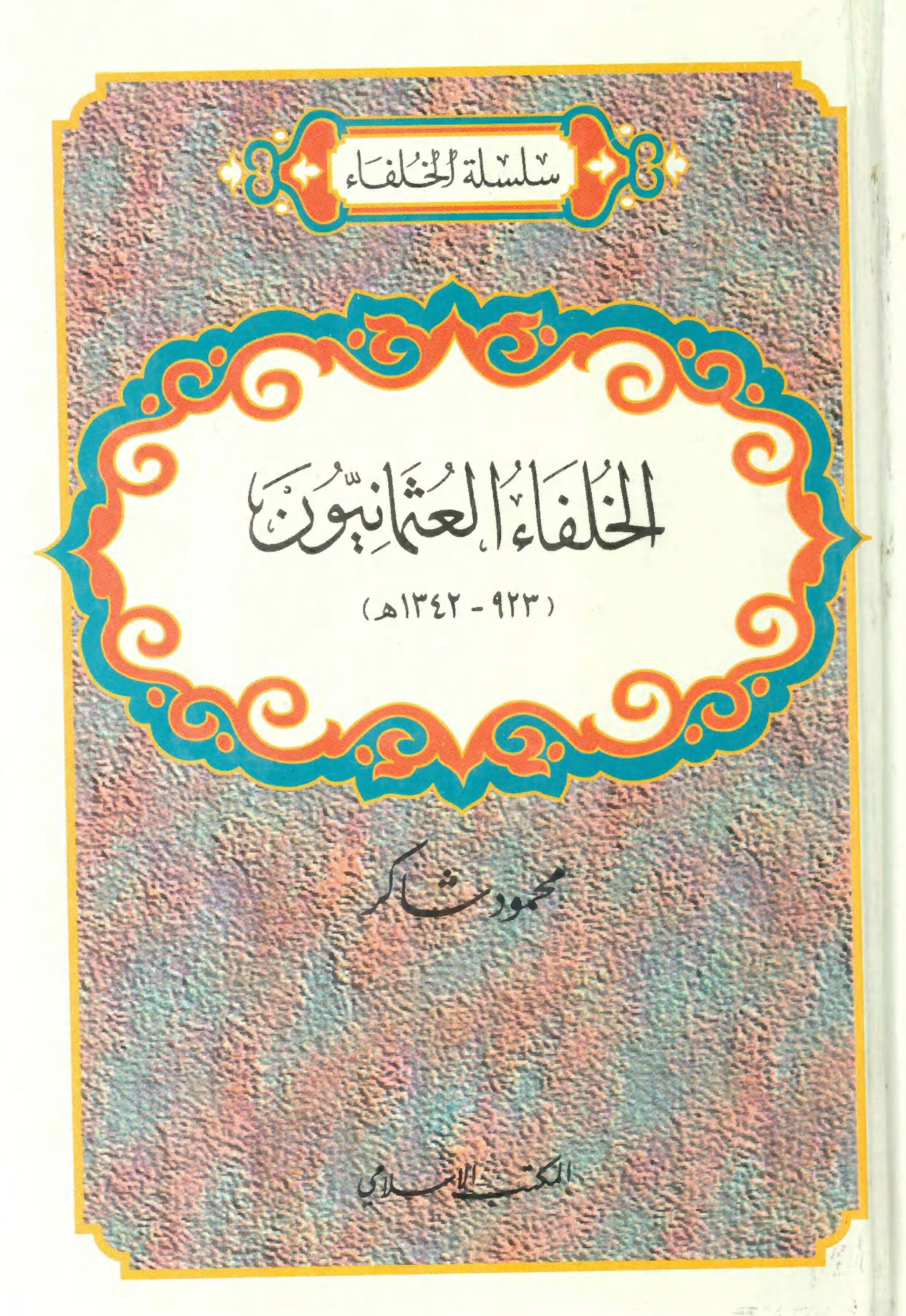
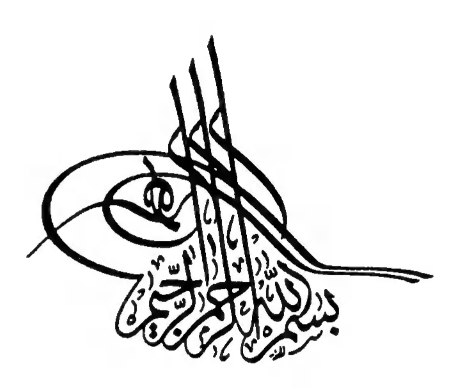

سلسلة الخلفاء
الخلفاء العثمانيون
(٩٢٣ - ١٣٤٢هـ)
محمود شاكر
المكتب الإسلامي

الخُلفاءُ العُثمانيُّون

(٩٢٣ - ١٣٤٢هـ)


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة الخلفاء

الخلفاء العثمانيون

(٩٢٣ - ١٣٤٢هـ)

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

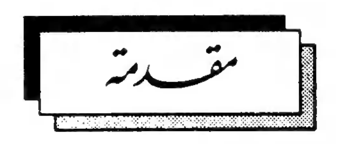
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥



الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام علىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله وعلىٰ آله وصحبه ومن سار علىٰ دربه إلىٰ يوم الدين، *أما بعد* :

فإن أعداء الأمة الإسلامية لما نجحوا في تفرقة صفها وتمزيق شملها بالدعوة إلىٰ العصبية الجاهلية إذ ظهرت العصبية إلىٰ الشعوب باسم القوميات، والعصبية إلىٰ الأمصار، والعصبيات المحلية الأخرىٰ، وتُركت الدعوة إلىٰ الأُخوة في الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] والدعوة إلىٰ وحدة أمة الإسلام: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء].

أخذ هذا يفخر بشعبه عصبيةً وتعالياً فيكون ردّ الفعل من ذاك متباهياً بشعبه وحاطّاً من مكانة غيره، وخاصةً من سبقه بالفخر وبدأ بالتعصّب، فظهر الاختلاف وبدأ الانقسام، وتجزّأت الأمة الإسلامية الواحدة نتيجة هذه العصبيات.

وكذا ظهر الخلاف علىٰ المصالح المشتركة بين

الجوار؛ فكان الصراع علىٰ المياه، والنزاع علىٰ الطرق، والمنافسة علىٰ التجارة، فكان الخلاف بين الأمصار المتجاورة، وتعصّب كل لقُطره نتيجة المصالح، وتجزّأت الأمة الإسلامية الواحدة نتيجة هذه العصبيات أيضاً.

لقد خطّط لهذه العصبيات الجاهلية، وبذر بذورها أعداء الإسلام، وحملها وتعهّدها رعاياهم من أبناء عقيدتهم الذين يعيشون بين المسلمين وفي ذمتهم حسب التوجيه الخارجي، لقد كان هؤلاء؛ الحملة والمتعهّدون يُقدّمون لأصحاب المصالح والأهواء ممن ينتمي إلىٰ الإسلام المغريات بأنواعها كلها لجذبهم إليهم، فكثُر الارتماء من مرضىٰ القلوب، وزادت المفاتن والمغريات وانتشرت المفاسد، واقترن معظمها بأصحاب الدعوة للعصبيات الجاهلية، إذ عندهم الميل والرغبة لهذا من قبل، وهذا بالأصل ما يهدفون إليه ويعملون له.

وهكذا تجزأت الأمة الإسلامية وتمزّق شملها بالدعوات العصبية الجاهلية التي نشر أصحابها وحملتها المفاسد والأفكار المعادية، إذ قلّما تجد بينهم ملتزماً بعقيدته أو صاحب فكرٍ إسلامي إذ هو صاحب شهوةٍ وهوىً ورغبةٍ للتحرّر والتحلّل، وإن وُجد فهو مغرور بفكرة العصبية وما تهدف إليه، أو لا يعرف مبادئ

إسلامه وما فيها من أُخوة الإسلام، ووحدة الأمة الإسلامية.

وإذا ما طغت فكرة العصبية القومية عند شعبٍ، أُهملت في مجتمعه دراسة ما سواه من الشعوب وما عندهم من حضارةٍ ومعارف عامة، وحِكمٍ وأخلاقٍ ومكارم، لذا لم يُعطَ العثمانيون عندنا حقهم من الدراسة الصحيحة رغم أُخوة الإسلام، ووحدة الأمة.

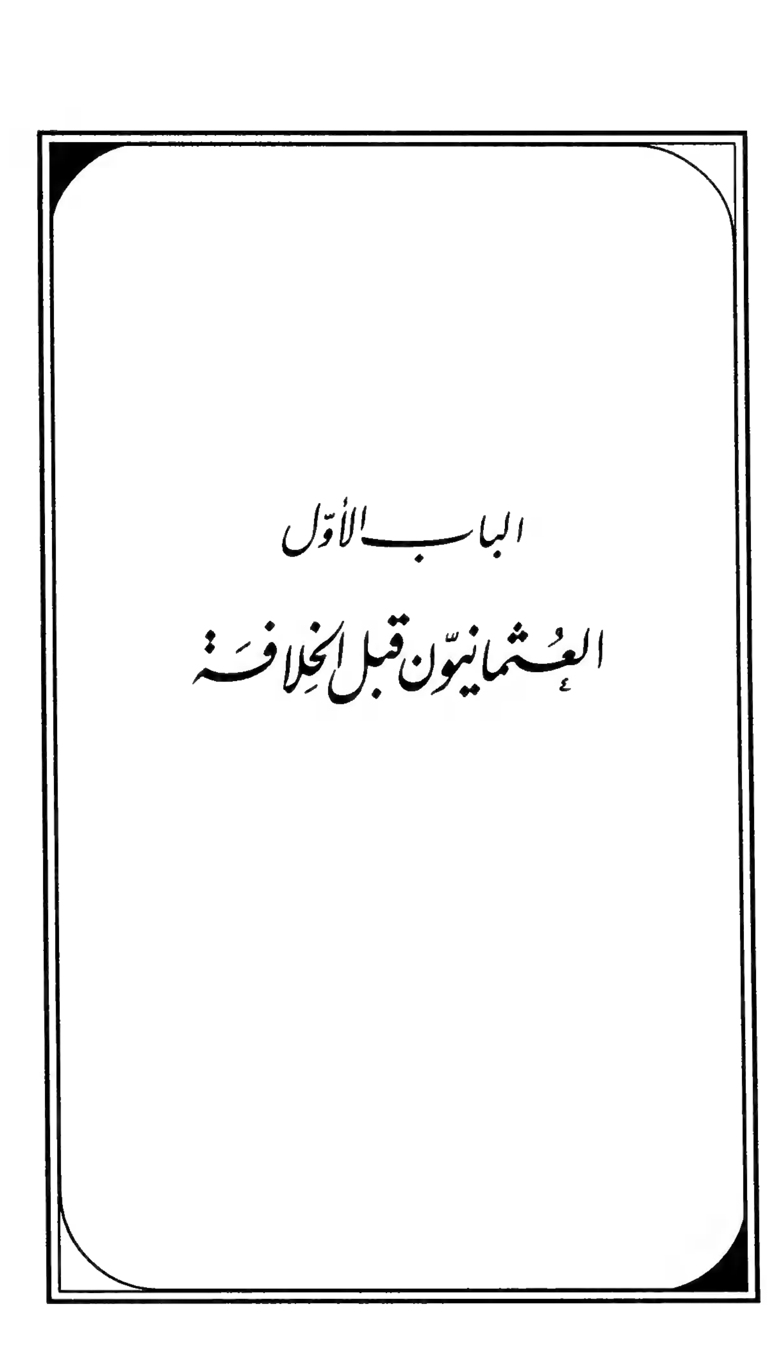
بل وتُهمل الدراسات والمعارف والعلوم الإسلامية والتاريخ الإسلامي ومآثره وما فيه من دروسٍ وعبرٍ وفوائد وقيمٍ عند الشعب نفسه إن كان الرأي في ذلك لدعاة العصبية الجاهلية، ما دام شغلهم هو العصبية وهوىٰ النفس. ولا مكان للعقيدة بل إنها في موضع الإهمال ومكان الإغفال.

وقد أُهمل التاريخ العثماني عندنا بسبب ذلك، رغم أن أصحابه من أمتنا بل ومن إخوتنا، كما أن الخلفاء العثمانيين قد أُهملوا مع أنهم خلفاء أُمة الإسلام وليسوا خلفاء شعبٍ معينٍ، ومن المعلوم أنه ليس للشعب خلفاء، بل إن ذكر كلمة خليفةٍ يعني مباشرةً ذكر خليفة المسلمين جميعاً أي الأمّة الإسلامية.

لذا كان من الواجب تقديم دراسةٍ عنهم، وهذا ما

أحرص عليه، فأرجو من الله العليّ القدير أن يُوفّقني إلىٰ ذلك، وإلىٰ الإخلاص بالعمل والصدق بالقول إنه علىٰ ما يشاء قدير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة شهر شعبان ١٤٢٣هـ.
٧ تشرين الأول ٢٠٠٢م.



الباب الأوّل

العثمانيّون قبل الخلافة

العثمانيّون قبلَ الخلافة

العثمانيون قبيلة من أصلٍ تركي تُعرف باسم قبيلة (قاتي) يرأسها سليمان شاه بن قياألب، وموطنها بالقرب من مدينة (مرو) قاعدة بلاد التركمان، وكانت قاعدة خراسان فيما سبق. وهذه القبيلة مسلمة إذ أنها من قبائل التركمان، وكان يومذاك يُطلق اسم (التركمان) علىٰ القبائل التركية التي تدين بالإسلام، كما أن اسم أميرها (سليمان شاه) يُشير إلىٰ ذلك(١).

في هذا الوقت كان هجوم المغول الوثنيين قد بدأ يتجه نحو الغرب، وقصد سنة ٦١٧هـ دولة خُوارزم وقاعدتها مدينة خُوارزم (خيوة) التي تقع شمال موطن قبيلة (قاتي) وعلىٰ بُعد أربعمائة كيلومترٍ منها، فخافت القبائل التي كانت مواطنها في تلك الجهات، ومنها قبيلة (قاتي)، وكان الخوف من هجوم المغول الوحشي

---

(١) يقول بعض الكتّاب أن أول من أسلم من هؤلاء الأتراك: إنما هو عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه الذي ينتسب إليه العثمانيون، يقولون هذا دون بيّنة، وينقل عنهم من يُدوّن دون تحقيق.

الذي كان يُبيد كل ما يمرّ عليه، وعساكره من الوثنيين فلا يعرفون رحمةً، ولا يخشون حساباً، ولا يخافون عقاباً، ولا يؤمنون بيوم النشر، يوم تُجزىٰ كل نفسٍ ما كسبت. وكان المغول يعيشون في صحراءٍ جافةٍ وفيافي قاحلةٍ تقتتل قبائلهم بعضها مع بعضٍ، ويعتدي بعضهم علىٰ بعضٍ بوحشيةٍ؛ فيذبح الإنسان من يستطع ذبحه من أهله وأقربائه بشموخٍ وكبرياء كما يفترس الذئب الشاة، وينقضّ القطّ علىٰ الطير، والكلب علىٰ الديكة لذا نشأ المغول في هذه البيئة وهذه العادات، أصحاب قلوبٍ قاسيةٍ كأنما قُدّت من صخرٍ، لذا أخذت القبائل تفرّ من أمامهم، تهجر مواطنها وتتجه نحو الغرب أمام ذلك الهجوم الوحشي الخطير، ومن بين هذه القبائل قبيلة (قاتي) التركمانية.

سارت قبيلة (قاتي) برئاسة أميرها سليمان شاه من موطنها بالقرب من مدينة (مرو) باتجاه الغرب، فمرت علىٰ مدينة (طوس) إلىٰ شمال مدينة (نيسابور)، ثم إلىٰ مدينة (جرجان)، ومنها اتجهت إلىٰ شمال مدينة (الريّ) إلىٰ مدينة (قزوين) إلىٰ مدينة (تبريز)، وتابعت السير حتىٰ وصلت إلىٰ مدينة (خلاط) شمال بحيرة (وان) في شرقي تركيا اليوم، فنزلت هناك واستقرت.

هدأت موجة المدّ المغولي، إذ عاد المغول إلىٰ

فيافهم في صحراء منغولية، فرغب سليمان شاه أمير قبيلة (قاتي) التركمانية بالرجوع إلىٰ موطنه الأول في بلاد التركمان بالقرب من مدينة (مرو) لكنه سلك طريقاً ثانية غير الطريق التي قدم فيها، إذ تابع إلىٰ (ديار بكر) واتجه نحو مدينة (الرقة) ولما أراد عبور نهر الفرات هوىٰ فيه وغرق وذلك سنة ٦٢٨هـ، ودُفن هناك قرب قلعة (جعبر)، واختلف أبناؤه الأربعة من بعده علىٰ الطريق التي يجب أن يسلكوها، أما ابنه الكبير الذي تولّىٰ إمرة القبيلة وزعامتها بعد موت أبيه، ويُدعىٰ (سنقورتكن) فقد حقّق رغبة أبيه، ورجع مع أخيه (كون طوغري) مع من معهم من أبناء القبيلة إلىٰ موطنهم الأول في بلاد التركمان قرب مدينة (مرو)، وعاشوا هناك بين قبائلهم ولم يُعرف لهم أثر. وأما الأخوان الآخران، وهما: (أرطغرل) و(دندان) فقد عادا أدراجهما، واتجها نحو الشمال حيث وجدا طيباً في العيش، وجودةً في المرعىٰ، وكانت معهما أربعمائة أسرةٍ تركمانيةٍ، وذلك مما بقي معهما من أفراد قبيلتهم (قاتي).

تولّىٰ (أرطغرل) إمرة أفراد القبيلة الذين بقوا معه في بلاد الأناضول، وأخذ يتجوّل في تلك الربوع، ولا يريد أن يصطدم مع حكام تلك الجهات فهم من

السلاجقة، ويلتقون معه بالأصل، والظروف لم تكن مناسبةً له بعد ليدخل في اشتباكاتٍ، وأفراد قبيلته الذين معه يُعدّون قلّةً بالنسبة إلىٰ سكان إمارات الأناضول، لذا أرسل ابنه (ساوجي) ليطلب من الأمير علاء الدين السلجوقي أمير إمارة (قرمان) التي قاعدتها مدينة (قونية) والتي بقيت مع من بقي في المنطقة بعد ما زالت دولة سلاجقة الروم، ليطلب أرضاً تعيش فيها القبيلة كي لا تقع نزاعات، غير أن ساوجي لم يعد إلىٰ أبيه إذ توفي في الطريق أثناء ذهابه إلىٰ الأمير علاء الدين السلجوقي.

سكان الأناضول:

كان القسم الشرقي من الأناضول يتبع الخلافة العباسية ويدين أهله بالإسلام، علىٰ حين كانت باقي الأجزاء تتبع إمبراطورية الروم الشرقية (بيزنطة) التي قاعدتها القسطنطينية وغالبية السكان نصارىٰ أرثوذكس.

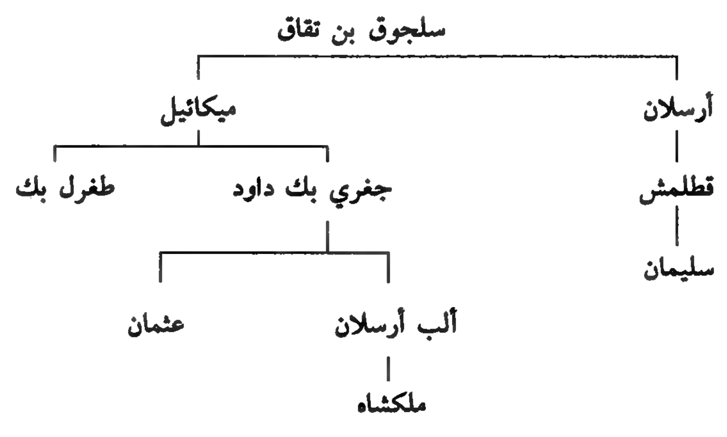
ضعفت الخلافة العباسية وخاصةً أيام السيطرة البويهية، حتىٰ فكّر إمبراطور بيزنطة بالقضاء علىٰ الخلافة العباسية، وكان أمله كبيراً في تحقيق حلمه حتىٰ أنه قسّم أمصار الخلافة بين قساوسته وأمراء عسكره. ولكن كان السلاجقة في هذا الوقت قد تمكّنوا من

الوصول إلىٰ غربي الخلافة، ودخل زعيمهم طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق بن تقاق قاعدة الخلافة بغداد وقضىٰ علىٰ نفوذ البويهيين، وسيطر علىٰ الخلافة العباسية سنة ٤٤٧هـ. وبدأ صراعه مع الروم البيزنطيين إذ اتجه إلىٰ ديار بكر وقاتلهم، وانتصر عليهم، وعقد معهم هدنةً، واشترط فيها بناء مسجدٍ في القسطنطينية، فأُقيم المسجد، وأُقيمت فيه الصلاة والجمعة، وخُطب لطغرل بك فيه.

توفي طغرل بك سنة ٤٥٥هـ، ولم يكن له ولد، فخلفه ابن أخيه عثمان بن جغري بك داود، غير أن أخاه ألب أرسلان بن جغري بك داود قد ثار عليه، وتسلّم الأمر، ودخل في الحرب مع الروم، وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً في معركة ملاذكرد سنة ٤٦٣هـ، وكانت جيوشهم تربو علىٰ مائتي ألفٍ علىٰ حين لم يكن عدد عسكر جيش ألب أرسلان ليزيد علىٰ عشرين ألفاً، وأسر إمبراطور الروم (ديو جينيس أرمانوس) مع كل أمرائه وقساوسته الذين أُعطوا أقساماً من ديار الخلافة فيما لو دخلوها، ولكن أطلق سراحه مع جماعةٍ من أمرائه مقابل أن يُطلق الإمبراطور سراح كل أسيرٍ مسلمٍ عنده، وأن يُرسل إليه عساكر الروم لتُقاتل معه في أيّ وقتٍ يطلبها.

انساح السلاجقة بعد تلك المعركة في الأناضول حتىٰ الجهات الغربية فملؤوها، وأسسوا إمارات ٍ فيها، ومن بين هذه الإمارات إمارة أسسها (قطلُمش بن أرسلان بن سلجوق)، وقد خرج عن طاعة ألب أرسلان فقاتله ألب أرسلان وقتله، فقام مقام قطلُمش ابنه سليمان بن قطلُمش.

قُتل ألب أرسلان سنة ٤٦٥هـ على يد كمينٍ نُصب له وهو في طريقه إلىٰ المشرق، وخلفه ابنه ملكشاه.



وتمكّن هؤلاء السلاجقة الذين انتشروا في الأناضول أن يُقدّموا في أول أمرهم خدماتٍ للمسلمين، إذ استردّوا من الروم بعض الأجزاء التي سبق لهم أن أخذوها من المسلمين، ومنها: أنطاكية، حيث كان الروم قد أخذوها من المسلمين سنة ٣٥٨هـ،

فاستردّها السلاجقة سنة ٤٧٧هـ. كما استردّت الإمارة المرداسية مدينة منبج سنة ٤٦٨هـ.

تأسست إمارات سلجوقية في الأناضول وأرمينية، ومن أبرزها الإمارة التي أسسها سليمان بن قطلُمش بن أرسلان بن سلجوق والتي كانت قاعدتها مدينة قونية، وقد أُطلق عليها اسم سلاجقة الروم، ثم أعقبها قيام إماراتٍ أخرىٰ. وفي الوقت نفسه قامت إمارات أرمنية في أرمينية، وأسس الأرمن الذين فرّوا من وجّه السلاجقة واتجهوا نحو الغرب إمارةً في كيليكيا قاعدتها مدينة أضنة، وبقيت قائمةً حتىٰ انهارت علىٰ يد المغول. وزاد توسّع السلاجقة في الأناضول في أيام السلطان السلجوقي ملكشاه بن أرسلان الذي كان سلطانه في بغداد (٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ).

وجاءت الحملة الصليبية الأولىٰ سنة ٤٨٩هـ بدافعٍ صليبيٍ وحقدٍ، وقد احتجّ الصليبيون بأن السلاجقة يسيئون معاملة النصارىٰ الذين يرحلون لزيارة مدينة القدس مروراً بالأناضول، واستطاع هؤلاء الصليبيون أن يجتازوا الأناضول التي يعمرها السلاجقة، وأن يفصلوا بين المناطق الغربية عن المناطق الداخلية بالطريق التي سلكوها وسيطروا عليها، وفي الوقت نفسه فقد أسسوا إمارةً صليبيةً في مدينة الرها علىٰ مقربة من نهر البليخ

أحد روافد نهر الفرات، والذي يرفده عند مدينة الرقة، ودعمهم الأرمن الذين كانت لهم إمارة في كيليكيا. واضطر الأمير السلجوقي قليج أرسلان صاحب نيقية أن ينقل قاعدة إمارته من (نيقية) إلىٰ (قونية).

اختلف الإمبراطور البيزنطي مع الصليبيين فتركهم وشأنهم، واتجه إلىٰ احتلال بعض أملاك السلاجقة، فدخل (أزمير) و(أفسوس) لانقطاع هذه المناطق عن بقية بلاد السلاجقة في الداخل بالصليبيين.

قامت الحروب الصليبية ووقف آل زنكي في وجههم، وتوفي نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي سنة ٥٦٩هـ، وظهر علىٰ الساحة أحد قادته وهو صلاح الدين الأيوبي، فاستولىٰ علىٰ أكثر مصر والشام وأجزاء الأناضول، بل ودخل القدس يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ واستخلصها من أيدي الصليبيين، وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ انفرط عقد الأيوبيين، فتفرّقت كلمتهم، ووقع الخلاف بينهم، فتعدّدت إماراتهم، ولم تُجدِ محاولات الصلح بينهم، وكان منها محاولات الخليفة العباسي. وقد سبّبت هذه الخلافات ضعف الأمة.

بدأ الهجوم المغولي، وبدت وحشيته، وظهرت

قوته؛ فدبّ الخوف في أصحاب النفوس المريضة، ورجال المصالح فانضمّ بعضهم إلىٰ المغول، وتحالف مع هؤلاء الغزاة الوثنيين أمراء من الأرمن، والكرج، وإمارة أنطاكية الصليبية، كما قَدِم إليهم رجال ونساء من الصليبيين بقصد التحريض والإغراء، وأدّىٰ كل جانبٍ دوره وحقّق بعض أهدافه.

تقدّم المغول نحو الغرب، ووقعت بلاد سلاجقة الروم سنة ٦٤١هـ تحت سيطرة المغول، وتعاون بعض أمراء تلك الديار مع المغول، وهادن أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ طاغية المغول هولاكو أيضاً، ودخل في طاعته، ويُعدّ الأراتقة في مدينة ماردين عمالاً للمغول، وساهم ملك الأرمن (حيثوم) مع المغول في احتلال بغداد، ومشىٰ معهم نحو القدس ليملكها، ولم يتعرّض المغول في البلدان التي دخلوها لمن فيها من النصارىٰ بل كانت بيوتهم آمنةً، كما أعطىٰ الطاغية هولاكو لبطريرك النساطرة في بغداد أحد قصور الخليفة ليتخذه كنيسةً، وأغدق عليه العطايا. ولقي النصارىٰ في دمشق دعماً كبيراً من المغول، وارتكب الأرمن يومها أبشع الجرائم، وانتهكوا الأعراض في دمشق.

ومع ضعف المغول زالت دولة سلاجقة الروم، وقامت عدة إماراتٍ في الأناضول منها:

١" ـ أبناء آيدين:

وكانت هذه الإمارة في غربي الأناضول في أزمير وما حولها، وكان محمد بك قائداً في دولة السلاجقة، ويحمل رتبة أمير السواحل، وقد خلفه ابنه آيدين، وكان يكره المغول فعندما ضعف أمرهم أعلن استقلاله سنة ٦٩٩هـ. وتولّىٰ أمر هذه الإمارة.

١ ـ آيدين بن محمد	٦٨٧ ـ ٧٣٤هـ.	
٢ ـ محمد بن آيدين	٧٣٤ ـ ٧٤١هـ.	
٣ ـ عمر بن محمد	٧٤١ ـ ٧٤٩هـ.	وقد بنىٰ أسطولاً أحرقه الصليبيون سنة ٧٤٥هـ، كما بنىٰ قلعةً حصينةً في أزمير أزعجت الصليبيين كثيراً.
٤ ـ عيس بن محمد	٧٤٩ ـ ٧٩٢هـ.	اضطر تسليم إمارته إلىٰ السلطان العثماني بايزيد الأول فأبقاه أميراً علىٰ أزمير، ثم ضمّ العثمانيون أزمير لسلطنتهم، واحتل تيمورلنك أزمير سنة ٨٠٥هـ.
٥ ـ موسىٰ بك بن عيسىٰ	٨٠٥ ـ ٨٠٥هـ.	حكم أزمير بأمرٍ من تيمورلنك.
٦ ـ عمر بن موسىٰ	٨٠٥ ـ ٨٠٦هـ.	عمل حاكماً للعثمانيين علىٰ أزمير.
٧ ـ مصطفىٰ بن عمر	٨٠٦ ـ ٨٢٥هـ.	كانت أزمير جزءاً من الدولة العثمانية.

٢" ـ أبناء تكة:

وهم قبيلة تركمانية، كانوا من أمراء الأطراف في

أيام دولة السلاجقة، وكان تكة باشا مجاهداً ضد الصليبيين، فلما دالت دولة السلاجقة أعلن استقلاله سنة ٧٠٠هـ في مدينة (انطالية) في الجنوب علىٰ خليج انطالية في البحر المتوسط.

استولىٰ السلطان بايزيد الأول (٧٩١ ـ ٨٠٥هـ) علىٰ إمارة أبناء تكة سنة ٧٩٥هـ، ثم عادت إلىٰ الظهور بعد حروب تيمورلنك سنة ٨١٦هـ، ثم ضُمّت إلىٰ الدولة العثمانية سنة ٨٣٠هـ.

٣" ـ أبناء أرتنا:

بعد انقراض دولة سلاجقة الروم، حكم بهادور خان أبو سعيد آخر حكام الدولة الإيلخانية (٧١٦ ـ ٧٣٦هـ) القسم الأعظم من شرقي الأناضول، وقد أعطىٰ هذا القسم سنة ٧١٧هـ إلىٰ تيمورتاش من أبناء شوبان من المغول، غير أن تيمورتاش سلّم أحد أركانه وهو (أرتنا) إدارة البلاد، وانتقل هو إلىٰ مصر، فاعترف أبو سعيد بهادور خان بـ(أرتنا) حاكماً رسمياً سنة ٧٢٨هـ، ولما مات أبو سعيد سنة ٧٣٦هـ استقلّ (أرتنا) بما تحت يده، ثم تبع (كوشك بن شوبان) في تبريز، وأعلن الطاعة له، ثم عاد وأعلن التبعية للمماليك في مصر أيام ناصر الدين محمد بن قلاوون (٧٠٩ ـ ٧٤١هـ) في أيام

سلطنته للمرة الثالثة، واتخذ مدينة (قيصرية)، ثم مدينة (سيواس) قاعدةً له. وكانت (أنقرة) و(توقات) و(أرزنجان) و(أماسيا) و(سينوب) و(صامسون) و(قونية) تتبع له.

٤" ـ أبناء كرميان:

وكان مقرهم قرب مدينة (ملاطية) ثم انتقلوا إلىٰ قرب مدينة (أنقرة) واتخذوا مدينة (كوتاهية) حاضرةً لهم، وقامت دولة لهم سنة ٧٠٠هـ بعد زوال دولة سلاجقة الروم، واستمرت حتىٰ سنة ٧٩٢هـ، حيث غضب السلطان العثماني بايزيد الأول (٧٩١ ـ ٨٠٥هـ) علىٰ أميرها يعقوب الثاني فقبض عليه وسجنه، غير أنه تمكّن من الفرار والتجأ إلىٰ تيمورلنك، فأعاده إلىٰ إمارته بعد سنة ٨٠٥هـ، وبعد وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٨هـ عادت الصلة الحسنة مع العثمانيين، ولم يكن ليعقوب الثاني أولاد؛ فأوصىٰ بإمارته إلىٰ السلطان العثماني مراد الثاني (٨٢٤ ـ ٨٥٥هـ) وذلك سنة ٨٣٢هـ.

٥" ـ أبناء حميد:

وأسس هذه الإمارة حميد بك التركماني في (اكردير) إلىٰ الغرب من (قونية)، واستقل بإمارته هذه

بعد انتهاء دولة سلاجقة الروم سنة ٧٠٠هـ، وقد أعطىٰ ابنه الذي خلفه وهو (دندار) الملقّب (فلك الدين) اسماً لعاصمته هو (فلك أباد).

هاجم والي المغول (تيمورتاش) إمارة أبناء حميد ففرّ أميرها (دندار) إلىٰ مدينة (انطالية)، ولكن قُبض عليه وقُتل سنة ٧٢٤هـ، واستولىٰ تيمورتاش علىٰ إمارة أبناء حميد، ولكن لم يلبث تيمورتاش أن فرّ إلىٰ مصر، وظهر خضر بن دندار واستعاد ملكه سنة ٧٢٨هـ، وخلفه ولده إسحاق، ثم إلياس بن إسحاق، ثم ولده كمال الدين حسين بن إسحاق الذي التجأ إلىٰ السلطان مراد الأول (٧٦١ ـ ٧٩١هـ) وذلك سنة ٧٧٦هـ ليتخلّص من تهديدات إمارة (قرمان) له، وبقي كمال الدين حسين حتىٰ توفي سنة ٧٩٣هـ، وضُمّت الإمارة بعد ذلك إلىٰ العثمانيين، وانتهت إمارة أبناء حميد. وكان أمراؤهم هم:

١ ـ حميد بك.

٢ ـ دندار بن حميد بك.

٣ ـ خضر بن دندار.

٤ ـ إسحاق بن خضر.

٥ ـ إلياس بن إسحاق.

٦ ـ كمال الدين حسين بن إسحاق.

٦" ـ أبناء أشرف:

كان سيف الدين سليمان بن أشرف من أمراء غياث الدين مسعود الثاني سلطان السلاجقة، وقد توفي سيف الدين سليمان حوالي سنة ٧٠١هـ؛ فاستقل ابنه محمد في المنطقة، وكانت دولة سلاجقة الروم قد انتهت، وتلقّب باسم (مبارز الدين محمد)، ثم خلفه ابنه سليمان شاه، وقد استولىٰ والي المغول تيمورتاش علىٰ إمارة أبناء أشرف سنة ٧٢٨هـ، ولما فرّ إلىٰ مصر احتل أبناء حميد المنطقة أيام خضر بن دندار.

٧" ـ أبناء قراسي (قره عيسىٰ):

كان قره عيسىٰ من أمراء السلطان غياث الدين مسعود الثاني سلطان السلاجقة، فاستقل قره عيسىٰ عند ضياع دولة السلاجقة سنة ٧٠٠هـ، وكان استقلاله في مقاطعة (ميسيا)، واتخذ مدينة (باليكسر) عاصمةً له، ولما كانت هذه المنطقة ساحليةً فقد أسست أسطولاً لها.

وخلف (قره عيسىٰ) ابنه (عجلان بك)، وكان علىٰ صلةٍ حسنةٍ بعثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية. وخلف عجلان ولده (دمورخان). ودخل أورخان بن عثمان إمارة (قره عيسىٰ) سنة ٧٣٧هـ بعد

اختلاف ولدي (دمورخان) علىٰ الحكم. وهي أول إمارةٍ ضمّها العثمانيون إليهم، وهي إمارة صغيرة تقع جنوب بحر (مرمرة) وشرق بحر (إيجه).

٨" ـ أبناء صاروخان:

وهم من أسرةٍ تركمانيةٍ استقرت في مقاطعة (ليديا) في غربي الأناضول شمال (أزمير)، وكانوا أمراء عند السلاجقة، وقد استقلّ صاروخان بمنطقته عندما ضعفت دولة السلاجقة سنة ٧٠٠هـ، وأسس أسطولاً، واصطدم مع (الجنويين) الذين كانت لهم مراكز علىٰ سواحل آسيا الصغرىٰ، وحاول عقد حلفٍ من الأمراء المستقلين ضد العثمانيين، وتعاون مع إمبراطور بيزنطة، ثم نقض العهد معه.

توفي صاروخان سنة ٧٤٦هـ وخلفه ولده فخر الدين الياس، واستمرت إمرته حتىٰ توفي سنة ٧٧٦هـ، وتولّىٰ مكانه ولده مظفر الدين إسحاق شلبي؛ فدخل في الحلف الذي شكلته إمارة قرامان ضد العثمانيين فهُزموا، وأخذ السلطان بايزيد الأول (٧٩١ ـ ٨٠٥هـ) بعض إمارته تأديباً له، وأبقىٰ له قسماً منها، ومات إسحاق شلبي سنة ٧٩٠هـ، وخلفه ولده خضر شاه حتىٰ سنة ٧٩٢هـ، حيث ضمّ السلطان العثماني بايزيد الأول

الإمارة إليه، وأعاد تيمورلنك خضر شاه إلىٰ مملكته بعد انتصاره علىٰ السلطان العثماني بايزيد الأول في معركة أنقرة سنة ٨٠٥هـ.

خلف خضر شاه ولده محمد شلبي الذي أُعدم من قبل العثمانيين سنة ٨١٣هـ لجريمةٍ أخلاقيةٍ، وانتهت يومها إمارة أبناء صاروخان.

٩" ـ أبناء منتشا:

ويعودون إلىٰ أصلٍ كرديٍ، وكان أحد كبارهم ويُدعىٰ (حاجي) أميراً للسواحلَ في عهد السلاجقة، واستقلّ ابنه (منتشا) في منطقة (قاريا) القديمة غربي الأناضول إلىٰ الغرب من مدينة (انطالية)، واستمرّ أميراً حتىٰ سنة ٧٣٠هـ حيث خلفه ابنه أورخان شجاع الدين، ثم إبراهيم الذي زاره الرحالة (ابن بطوطة)، ثم تاج الدين أحمد غازي بن إبراهيم، ثم محمد بن إبراهيم، ثم إلياس بن محمد الذي لم يتمكّن من مقاومة السلطان العثماني بايزيد الأول (٧٩١ ـ ٨٠٥هـ)، ففرّ إلىٰ مدينة (سينوب) علىٰ ساحل البحر الأسود شمالي تركية سنة ٧٩٢هـ، وبعد هزيمة العثمانيين سنة ٨٠٥هـ أمام تيمورلنك عاد إلياس بن محمد إلىٰ منطقته حتىٰ سنة ٨٢٤هـ، حيث خلفه بعد وفاته ابنه الليث حتىٰ سنة

٨٢٩هـ، حيث دخل السلطان العثماني مراد الثاني (٨٢٤ ـ ٨٥٥هـ) الإمارة، وقبض علىٰ أبناء منتشا وسجنهم في مدينة «توقات» في المنطقة الشمالية، وانتهىٰ أمرهم.

١٠" ـ أبناء جاندار (أسفنديار):

يدّعي هؤلاء أنهم مخزوميون من نسل خالد بن الوليد. وقد فتح مدينة (قسطموني) في المنطقة الشمالية وإلىٰ الشمال الشرقي من مدينة أنقرة حسام الدين شوبان بك، وفي سنة ٦٩١هـ، نصّب المغول الإيلخانيون عليها شمس الدين تمرجاندار، ثم خلفه عليها ابنه سليمان، وألحقت بالدولة العثمانية في أيام السلطان العثماني بايزيد الأول (٧٩١ ـ ٨٠٥هـ) وذلك سنة ٧٩٥هـ، وبعد هزيمة السلطان العثماني في معركة أنقرة أمام تيمورلنك سنة ٨٠٥هـ، عاد أسفنديار أحد أفراد أسرة جاندار إلىٰ الحكم، واستمرّ حتىٰ توفي سنة ٨٤٧هـ. وقد تزوج السلطان العثماني مراد الثاني (٨٢٤ ـ ٨٥٥هـ) ابنة أسفنديار، ودخل السلطان العثماني محمد الفاتح (٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ) مدينة قسطموني سنة ٨٦٦هـ، وانتهىٰ وضع هذه الإمارة.

١١" ـ أبناء براونة:

استولىٰ عز الدين كيكاوس سلطان السلاجقة في

الأناضول سنة ٦١١هـ علىٰ مدينة (سينوب) الواقعة علىٰ البحر الأسود، ثم رجع ملك (طرابزون) إليها، غير أن أحد أمراء السلاجقة وهو (معين الدين براونة سليمان) تمكّن ثانيةً من استعادتها أيام السلطان (قليج أرسلان) الرابع الذي منحه حكمها، وخاف معين الدين براونة أن يعاود فينتزعها منه فعمل علىٰ قتله، وأناب معين الدين براونة سليمان ابنه معين الدين محمد عليها.

أُعدم معين الدين براونة سليمان سنة ٦٧٦هـ؛ فاستقلّ ابنه معين الدين محمد في مدينة سينوب، وبقي أميراً عليها حتىٰ توفي سنة ٦٩٦هـ، وخلفه ابنه مهذب الدين مسعود فسالم المغول مخالفاً سياسة أبيه، وقد اختطفه الفرنجة من تجار جنوه إذ جاءوا إلىٰ سينوب من مستعمرتهم (كفا) في شبه جزيرة القرم، ثم فدىٰ نفسه بمبلغٍ ضخمٍ، وعاد إلىٰ حكم إمارة سينوب حتىٰ توفي سنة ٧٠٠هـ، وانتقل حكم هذه الإمارة بعد ذلك إلىٰ غازي شلبي بن السلطان غياث الدين مسعود الثاني.

١٢" ـ أبناء صاحب أتا:

كان الصاحب فخر الدين علي بن الحسين بن أبي بكر من الوزراء البارزين عند سلاجقة الأناضول، ويعرف في (قونية) باسم صاحب (أتا)، وبسبب

الأحداث التي وقعت، وتدخل المغول في شؤون السلاجقة، انزوىٰ فخر الدين في قرية (نادر) وحفظ أمواله في مدينة (قره حصار)، وتوفي سنة ٦٨٤هـ، وكان أولاده قد قُتلوا جميعاً في معركةٍ جرت سنة ٦٧٦هـ، وحكم بعد ذلك (قره حصار) أحفاد صاحب (أتا) حتىٰ استولىٰ عليها أبناء كرميان.

١٣" ـ أبناء قرامان:

فتح علاء الدين كيقباد الأول مدينة (أرمناك)، وأسكن حولها بعض القبائل التركمانية، وعيّن عليهم أحد أمرائهم وهو كريم الدين قرامان، وفي سنة ٦٥٤هـ جعل السلطان قليج أرسلان الرابع الأمير كريم الدين قرامان أميراً علىٰ أرمناك، وعندما توفي سنة ٦٦٠هـ خلفه ابنه محمد الأول، وقد اتفق مع (جمري) الذي ادّعىٰ أنه أحد أولاد عز الدين كيكاوس السلطان السلجوقي، واحتلّ مدينة (قونية) سنة ٦٧٥هـ، وجاء غياث الدين كيخسرو الثالث بجيشٍ من السلاجقة والمغول، وهزمهما وقتلهما سنة ٦٧٦هـ.

وتولّىٰ الحكم بعد محمد الأول أخوه محمود. وصاهر أمير القرامان علاء الدين سنة ٧٨٣هـ السلطان مراد الأول (٧٦١ ـ ٧٩١هـ) وتزوج ابنته نفيسة، وأعطاه

ابنته، ولم يمنعه هذا من محاربة العثمانيين، وقد وقع بالأسر في بعض الوقائع، فتوسّطت له ابنته زوجة السلطان، فأطلق سراحه، وأبقىٰ له إمارته مقابل دفع مبلغٍ من المال سنوياً، ثم عاد للحرب فقُتل علىٰ يد أحد القادة العثمانيين أيام السلطان العثماني بايزيد الأول (٧٩١ ـ ٨٠٥هـ) وذلك سنة ٧٩٣هـ، وسُجن ابنه من نفيسة ابنة السلطان مراد الأول في مدينة (بورصة)، وأُلحقت أكثر إمارته بالدولة العثمانية. فلما هُزم السلطان العثماني بايزيد الأول أمام تيمورلنك سنة ٨٠٥هـ بعد معركة أنقرة، خرج محمد بن علاء الدين من السجن وأُعيد إلىٰ ملكه، وضرب نقوداً باسم تيمورلنك، ثم توسّع فسيطر سنة ٨١٤هـ علىٰ إمارة أبناء كرميان، غير أن السلطان محمد شلبي العثماني (٨١٦ ـ ٨٢٤هـ) أخرجه منها سنة ٨١٧هـ، وفي حربٍ أخرىٰ وقع أسيراً بيد العثمانيين غير أن السلطان العثماني قد عفا عنه فاتجه إلىٰ المماليك في مصر، ثم عاد فحاربهم، ووقع أسيراً فسيق إلىٰ مصر سنة ٨٢٢هـ، وفرّ من مصر ورجع إلىٰ ملكه سنة ٨٢٤هـ، وحارب العثمانيين ثانيةً وحاصر مدينة (انطالية)، وجاء الأجل المحتوم سنة ٨٢٧هـ؛ فأعلن أخوه علاء الدين علي استقلاله، وكان موالياً للمماليك، وقام إبراهيم بن محمد وأخوه عيسىٰ

ينافسانه، واتجها إلىٰ السلطان العثماني مراد الثاني (٨٢٤ ـ ٨٥٥هـ) فزوّجهما بأختيه وولّىٰ عيسىٰ بن محمد لواء الروملّلي، ثم أخذ إمارة قرامان من علاء الدين علي وزوّجه بأخته الثالثة وولّاه لواء صوفيا، وأعطىٰ إبراهيم بن محمد إمارة قرامان.

حاول إبراهيم بن محمد أمير قرامان أن يعطي ابنه الكبير إسحاق الحكم، فوقع الخلاف بين الإخوة، وتولّىٰ (بير أحمد) الحكم، وهو من ابنة السلطان العثماني محمد شلبي (٨١٦ ـ ٨٢٤هـ)، فلجأ إسحاق بن إبراهيم إلىٰ (أوزون حسن) ملك آق قيونلي (الخاروف الأبيض) في أذربيجان، وتمكّن بمساعدته من احتلال قونية، غير أن السلطان محمد الفاتح (٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ) أعاد بير أحمد للحكم، وفرّ إسحاق إلىٰ أوزون حسن. وأعلن بعد مدةٍ بير أحمد الحرب علىٰ الدولة العثمانية غير أنه هُزم سنة ٨٧١هـ، وغدت قونية تتبع الدولة العثمانية، واشترك بير أحمد وشقيقه قاسم في حكم بقية إمارة قرامان حتىٰ عام ٨٧٤هـ ثم اختلفا، ومات بير أحمد سنة ٨٨٠هـ.

هُزم قاسم بن إبراهيم أيضاً أمام العثمانيين سنة ٨٨٠هـ، وفرّ إليه الأمير العثماني (جم) من وجه أخيه بايزيد الثاني بن محمد الفاتح، وشاركه في الحكم، ثم

غادر الأمير (جم) إمارة قرامان إلىٰ فرسان جزيرة رودوس الصليبيين، وعقد الأمير قاسم بن إبراهيم معاهدةً مع السلطان بايزيد الثاني، وبقي الأمير قاسم حتىٰ توفي سنة ٨٨٨هـ.

اختار أمراء قرامان بعد قاسم بن إبراهيم الأمير محمود بن طورغوت أحد كبار أمراء قرامان، وفي الوقت نفسه هو ابن ابنة قاسم وذلك ليكون حاكماً علىٰ الإمارة، وذلك لأن أولاد قاسم بن إبراهيم قد ماتوا معه، وقد وافق السلطان العثماني بايزيد الثاني (٨٨٦ ـ ٩١٨هـ) علىٰ ذلك واعترف به.

لم يلبث محمود بن طورغوت أن أعلن العصيان علىٰ الدولة العثمانية، وأظهر الطاعة للمماليك حكام مصر، فأرسل له العثمانيون قوةً سنة ٨٩٢هـ قضت علىٰ إمارة قرامان، وقد استعملت هذه الإمارة اللغة التركية.

١٤" ـ أبناء رمضان:

وهم قبيلة تركمانية استقرّت حول مدينة أضنة في الجنوب قرب البحر المتوسط وعلىٰ مقربةٍ من خليج إسكندرون. وقد أسس هذه الإمارة شهاب الدين أحمد بن رمضان (مير أحمد) حوالي سنة ٧٧٩هـ، وقد حارب دولة المماليك في مصر، وانتصر عليهم، ثم

تزوّج السلطان المملوكي الناصر فرج بن الظاهر برقوق (٨٠١ ـ ٨٠٨هـ) ابنة الأمير أحمد بن رمضان فتحسّنت العلاقات بين الطرفين، ووقفا معاً ضد تيمورلنك، وأخذ طرسوس من إمارة أبناء قرامان سنة ٨١٨هـ، بعد حصارٍ دام ستة أشهرٍ، وتوفي (مير أحمد) سنة ٨١٩هـ، فاختلف أبناؤه من بعده، ثم تسلّم الأمر ابنه إبراهيم، وانتهىٰ الخلاف.

عرض إبراهيم بن أحمد علىٰ إخوته وأبناء عمه سنة ٨٢٠هـ الطاعة لسلطان مصر، غير أنه عاد فأظهر الخلاف سنة ٨٣٠هـ فقُبض عليه، وسُجن في مصر، ثم قُتل سنة ٨٣١هـ، واختار المماليك مكانه ولده عز الدين حمزة، ولم تطل أيامه، وقد كان عمّاه محمد وعليّ يملكان مدناً أخرىٰ تتبع مدينة أضنة، فحدثت خلافات انتهت باستلام أرسلان داود بن إبراهيم الإمارة، واستمرّ في سلطانه حتىٰ قُتل في جهات ديار بكر سنة ٨٨٥هـ.

خلف أرسلان داود ولده غرس الدين خليل، وبقي في سلطانه حتىٰ سنة ٩١٦هـ، وبقي أبناء رمضان هذه المدة كلها بجانب دولة المماليك في مصر، غير أن قوة العثمانيين التي ظهرت قوتها وبرزت مكانتها قد جعلت غرس الدين خليل يتقرب منهم وخلفه أخوه محمد، واتجه هو إلىٰ إستانبول، واتفق مع السلطان سليم الأول

(٩١٨ ـ ٩٢٣هـ)، وسار معه لقتال المماليك، وقُتل في معركة (الريدانية) علىٰ أبواب القاهرة سنة ٩٢٣هـ.

خلف غرس الدين خليل أخوه (بيري بك)، وبقي تحت سلطان العثمانيين (٩٢٦ ـ ٩٤٨هـ)، ثم استقال من الإمارة، وأصبحت منطقة أضنة ولايةً عثمانيةً، وأُبعد أبناء رمضان عنها. وحدثت خلافات في المنطقة فكُلّف (بيري بك) بالعودة إلىٰ الإمارة فعاد، واستمرّ في عمله حتىٰ توفي سنة ٩٧٦هـ، وعُيّن إخوته في ولاياتٍ ثانيةٍ، وخلف (بيري بك) ابنه الأصغر درويش، وكان من قبل أميراً علىٰ طرسوس، وبعد ستة أشهرٍ قام مكانه أخوه الأكبر إبراهيم الذي كان أميراً علىٰ مدينة عينتاب، واستمرّ حتىٰ سنة ٩٩٧هـ حيث خلفه ابنه محمد حتىٰ انقرضت إمارة أبناء رمضان سنة ١٠١٧هـ.

١٥" ـ أبناء ذي القادر:

وصل هؤلاء إلىٰ الأناضول مع هروب التركمان من وجه الغزو المغولي الوحشي أيام جنكيزخان، ومع أنهم يدّعون الأصل الفارسي، ويعودون إلىٰ الساسانيين إلا أن الأصل التركماني واضح عليهم، وأثناء فرارهم من وجه المغول كان أمير إحدىٰ الفرق منهم (ذو القادر)، وتمكّن ابنه زين الدين من تقوية نفسه في منطقة

(البستان) ثم أعلن استقلاله سنة ٧٤٠هـ، وطال به العمر، وتوفي سنة ٧٨٠هـ، وخلفه ابنه خليل الذي ملك مدينة (ملاطية)، ومرعش، ثم قتله أخوه إبراهيم أمير (خربوت) الذي أعلن الطاعة للمماليك سنة ٧٨٨هـ، وتسلّم الحكم بعد خليل أخوه الثاني (صولي) الذي وقع بين ناري المماليك وأبناء قرامان الأمر الذي جعله يتجه إلىٰ العثمانيين، وعاد ثانيةً إبراهيم إلىٰ قتل أخيه صولي سنة ٨٠٠هـ، وكان السلطان العثماني محمد شلبي (٨١٦ ـ ٨٢٤هـ) قد تزوج ابنة صولي، ورغم أن إبراهيم قد قتل أخويه إلا أنه لم يتمكّن من استلام السلطة إذ أن أخاه الثالث ناصر الدين محمد قد تسلّم السلطة وقاتل دولة المماليك، وإمارة أبناء قرامان، والعثمانيين، كما قاوم تيمورلنك سنة ٨٠٣هـ، غير أنه اضطر للخضوع فيما بعد، ولما رجع تيمورلنك عادت الصلة فتوطّدت بين السلطان محمد شلبي وناصر الدين محمد، والتقيا في مدينة أنقرة سنة ٨١٩هـ، غير أن ناصر الدين محمد قد رجع فاستعان بدولة المماليك ضد أبناء قرامان فقدّم له المماليك مدينة قيصرية مكافأةً له، لكن العثمانيين قد احتلّوا هذه المدينة، ثم عاد ناصر الدين محمد فاختلف مع المماليك، والتجأ إلىٰ السلطان العثماني مراد الثاني (٨٢٤ ـ ٨٥٥هـ) فأعاد إليه مدينة قيصرية، ورجع إلىٰ

المماليك، وزار القاهرة، ولما رجع إلىٰ مقرّ ملكه لم يلبث أن أدركته المنية سنة ٨٤٦هـ.

خلف سليمان أمير ملاطية أباه ناصر الدين محمد، وعاد إلىٰ حسن الصلة مع العثمانيين، وزوّج ابنته (مكرمة) للأمير العثماني محمد (الفاتح) بن مراد الثاني، وتوفي سليمان بن ناصر الدين محمد سنة ٨٥٨هـ، وتولىٰ مكانه ابنه أرسلان فهاجمه الأمير (أوزون حسن) ملك الأسرة (آق قيلونية)، وأخذ منه (خربوت) فاستنجد بدولة المماليك، وسار إلىٰ القاهرة فاغتيل في المسجد سنة ٨٧٠هـ، وتولىٰ مكانه أخوه (شاه بودان) مؤيداً من قبل دولة المماليك علىٰ حين نصّب العثمانيون أخاه الآخر (شاه سوار) واختلف الأخوان، وفرّ شاه بودان إلىٰ مصر سنة ٨٧١هـ، فعيّن المماليك مكانه عمه رستم بن ناصر الدين محمد والياً علىٰ البستان، ولكن (شاه سوار)، قد تغلّب علىٰ دولة المماليك، وعلىٰ أبناء رمضان سنة ٨٧٢هـ، ولكنه عاد فانهزم أمام المماليك في مدينة عينتاب سنة ٨٧٦هـ ووقع أسيراً بأيديهم، فحُمل إلىٰ مصر، وأُعدم هناك سنة ٨٧٧هـ، وأعادوا (شاه بودان) إلىٰ الحكم، ودعم العثمانيون أخاه الآخر (بوزقورت) المُلقّب علاء الدولة ففرّ شاه بودان إلىٰ مصر سنة ٨٨٤هـ، فخلا الجو لعلاء الدولة فاتخذ الدهاء

وسيلةً له وأظهر الميل إلىٰ المماليك، وتمكّن من القبض علىٰ أخيه شاه بودان وسلّمه إلىٰ مصر فقُتل هناك سنة ٨٩٥هـ، وعندما حقّق ما يريد رجع إلىٰ العثمانيين، وزوّج السلطان العثماني بايزيد الثاني (٨٨٦ ـ ٩٢٨هـ) ابنته عائشة، وهي والدة السلطان سليم الأول، ولكنه عاد فأعلن مخالفته للعثمانيين، فشنّوا عليه حرباً بعدما انتهوا من الصفويين، وقبضوا عليه، وقُتل سنة ٩٢١هـ، وحمل رأسه إلىٰ ابن ابنته السلطان سليم الأول.

عيّن العثمانيون مكان علاء الدولة علي بن شاه سوار، وأصبحت الخطبة للسلطان العثماني، وسار الأمير علي بن شاه سوار في حملة السلطان سليم الأول التي قضت علىٰ حكم المماليك في الشام ومصر، ولكنه أُعدم سنة ٩٢٨هـ بأمر من السلطان سليمان القانوني، وانتهت إمارة أبناء ذي القادر منذ ذلك اليوم.

لم تكن هذه الإمارات هي التي قامت وحدها في الأناضول بل هناك كثير غيرها ولكن دون اتساعها أو أقلّ منها أهميةً مثل: أمراء (دنزلي) الذين انتهت إمارتهم في أيام السلطان العثماني مراد الثاني سنة ٨٣٢هـ، وأمراء (سيواس)، والأقيونيون في ديار بكر الذين انتهت إمارتهم في (آمد) و(ماردين) حوالي سنة ٩١٢هـ علىٰ يد السلطان بايزيد الثاني و......

وكانت الإمارات المعاصرة بعضها لبعض متنافسةً، وتنتقل المدن أو المناطق من إمارةٍ إلىٰ أخرىٰ، ثم تعود للإمارة عندما تقوىٰ أو تجد لها دعماً حتىٰ قضت الدولة العثمانية عليها جميعها في أوقاتٍ متفاوتةٍ.

ينتمي أمراء هذه الإمارات وغالبية سكانها إلىٰ الإسلام غير أن ضعف الخلافة والانصراف إلىٰ الدنيا والسعي وراء المصالح والعمل للرئاسة وحبّ المكانة، وهذا كله قد جعل العمل للإسلام قليلاً، والروح المعنوية ضعيفةً، والتفكير بالانطلاق للجهاد لا يشغل الفكر، والدعوة للإسلام خفيفةً إذ كانت المنافسة هي السائدة وهي لتوسّعٍ بالأرض، وعلىٰ السلطة، والمكانة، والنفوذ والإمارة، والوصول إلىٰ الهدف و. . . . . . ولذا كان الصراع والخلاف، ولم يحدث تفاهم إلا لضرب خصمٍ أو السير لغايةٍ، وقد يكون اتفاق مع هذه الدولة أوتلك لتحقيق هدفٍ. ولكثرة هذه الإمارات كان من الصعب القضاء عليها جميعها من قبل دولةٍ ذات قوةٍ حيث كانت هذه الدول أيضاً متعددةً ومتنافسةً فيما بينها.

وكذلك كانت إمبراطورية الروم الشرقية (بيزنطة)، وكانت ذات قوةٍ غير أنها تخالف الآخرين من حيث

العقيدة إذ كانت تدين بالنصرانية علىٰ مذهب الأرثوذكس علىٰ حين كانت الإمارات التي ذُكرت مسلمةً.

وزاد ضعف الإمبراطورية البيزنطية بعد هزيمتها علىٰ يد السلطان السلجوقي الثاني ألب أرسلان في معركة ملازكرت سنة ٤٦٣هـ.

وظهرت الإمارات المسلمة بالأناضول بعد وفاة السلطان السلجوقي الثالث ملكشاه بن ألب أرسلان في ١٥ شوال سنة ٤٨٥هـ.

الأمبراطوريّة البيزنطِيّة

كانت إمبراطورية الروم (بيزنطة) إحدىٰ كبريتي دول العالم، هي وإمبراطورية فارس وذلك عند ظهور الإسلام. وقد وقفت تلك الدولتان في وجه الدعوة الإسلامية، بل وعملتا علىٰ دعم المرتدين وكل من وقف في وجه الإسلام، غير أنهما قُهرتا وهُزمتا وتراجعتا، وزالت دولة فارس ودان غالبية أهلها بالإسلام، ثم اضطر حكامها ودهاقنة المجوسية الديانة السابقة أن يُظهروا الإسلام بأفواههم ليبقوا علىٰ صلةٍ مع الشعب كي يستطيعوا التأثير عليه.

أما دولة الروم فقد ذُلّت وتراجعت وتخلّت عن كثيرٍ من البلدان التي كانت تسيطر عليها، ومنها: مصر والشام وجزء من بلاد الأناضول، ووكر حكامها في جحورهم لا يمكنهم شنّ حربٍ واسعةٍ علىٰ الخلافة الإسلامية خوفاً وتقديراً للنتائج المتوقّعة إذ لا يمكن الوقوف أمام المجاهدين المسلمين، وإنما كان الروم يقومون ببعض التعدّيات المحلية أو الهجمات الموضعية إثباتاً لوجود دولتهم وإظهاراً لإمكانية القتال والدفاع عن الأرض.

وجرىٰ تقدّم إسلامي في بلاد الأناضول في العهد العباسي الأول وفي أيام السلاجقة، وأصبحت أكثر بلاد الأناضول في ظلّ النفوذ الإسلامي، وحُصرت الإمبراطورية البيزنطية في الشمال الغربي من الأناضول مما يلي الأجزاء التي حول العاصمة القسطنطينية إضافةً إلىٰ مساحاتٍ علىٰ ساحل البحر الأسود في الشمال الشرقي من بلاد الأناضول.

وكانت إمبراطورية الروم الشرقية (بيزنطة) تحاول أن تتدخّل بين الإمارات الإسلامية بالأناضول، وتُحرّض بعضها علىٰ بعضٍ، أو تدعم بعضها علىٰ الأخرىٰ حتىٰ لا يكون لقاء بين هذه الإمارات الإسلامية، وربما تُحقّق الإمبراطورية بعض النصر فتمدّ نفوذها علىٰ بعض الأجزاء.

لم تُفكّر الإمبراطورية البيزنطية علىٰ شنّ حربٍ شاملةٍ علىٰ المسلمين كما قلنا؛ بل علىٰ هذه الإمارات خوفاً من إثارة المسلمين التي تعمل علىٰ تجمّعهم وترك الخلافات فيما بينهم، ورفع راية الجهاد، وإذا ما ارتفعت راية الجهاد ارتفعت الروح المعنوية لدىٰ المسلمين وانطلقوا للقتال كالأسود لا يبالون بشيءٍ أمامهم ويتقدّمون لا تقف أمامهم قوة مهما كانت بل يولّي أعداؤهم الأدبار لا يلوون علىٰ شيءٍ ولا يُفكّر

الأخ بأخيه ولا الأب بابنه وهذا ما يعرفه الروم تماماً من خلال قتالهم مع المسلمين عبر تاريخهم الطويل، بل هذا ما يعرفه أعداء المسلمين جميعاً.

العُثمانيّون

كان أرطغرل بن سليمان شاه قد تولّىٰ زعامة أفراد قبيلة (قاتي) التركمانية الذين بقوا في الأناضول قد أرسل ابنه (ساوجي) إلىٰ الأمير علاء الدين السلجوقي رئيس إمارة قرامان التي مركزها مدينة قونية ليطلب منه أرضاً تعيش فيها قبيلته (قاتي) حتىٰ لا تقع نزاعات في المنطقة غير أن (ساوجي) لم يعد إلىٰ أبيه إذ توفي بالطريق، وفي هذه الأثناء لاحظ (أرطغرل) جيشين يقتتلان فأسرع ودعم الجيش السلجوقي بعاطفةٍ إسلاميةٍ إضافةً إلىٰ أنه يعيش علىٰ أرض السلاجقة، وأرسل يطلب منهم منزلاً لمن معه من أفراد قبيلته كما أنه يلتقي معهم بالأصل التركماني، وقد عرف السلاجقة من رايتهم ومن هتافات الأفراد (الله أَكْبَرُ)، أما أنه وقف إلىٰ جانب الجيش الذي بدت عليه علائم الهزيمة أو الجيش الضعيف ليكون لمساعدته أثر واضح في النصر فهذا غير مقبولٍ، فالعقيدة هي الأساس إذ لا يمكنه أن يقف إلىٰ جانب البيزنطيين النصارىٰ أبداً فهم أعداؤه ولا يمكن أن يكافئوه ويعطوه أرضاً في بلادهم، ثم

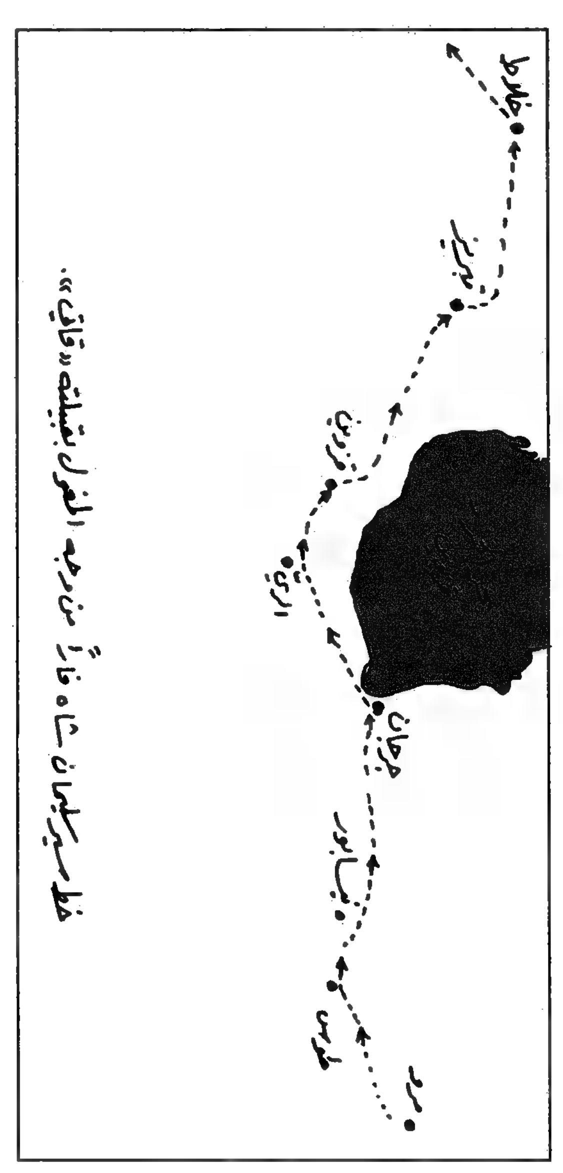
يكون لهم عدوّاً، وإن فعلوا تقع الحرب بينه وبينهم بعد حينٍ. وكان أحد الجيشين سلجوقياً مسلماً، وهو الذي بدت عليه علائم الضعف، أما الجيش الثاني فهو من عساكر الإمبراطورية البيزنطية النصارىٰ وتظهر عليه علائم القوة لكثرة أفراده ووفرة سلاحه.

دبّت العاطفة الإسلامية في نفس أرطغرل وفي نفوس جماعته، وظهرت فكرة الجهاد، فارتفعت الروح المعنوية، وعلت أصوات (الله أَكْبَرُ) ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ وتقدّم المسلمون يطلبون الشهادة في سبيل الله فاندفعوا كالأسود، وما هي إلا ساعة حتىٰ أحرزوا النصر ـ بإذن الله ـ وولّىٰ البيزنطيون الأدبار.

شعر أرطغرل بنشوة الظفر، وعرف علاء الدين قيمة الدعم فكافأ أرطغرل وأقطعه أرضاً علىٰ حدود بلاد الروم ليكون درءاً له يصدّ به عن إمارته غارات البيزنطيين، وشعر الروم البيزنطيون بالخوف إن كان هؤلاء القادمون يرفعون راية الجهاد في كل ميدانٍ، فإنهم إن كانوا يفعلون ذلك فلا أمل للروم بإحراز نصرٍ أبداً، لأن رفع راية الجهاد كان يدكّ كيان أعداء الإسلام.

صار علاء الدين السلجوقي يعتمد في حروبه مع مجاوريه علىٰ أرطغرل ورجاله، وكان عقب كل انتصارٍ يمنحه أموالاً جزيلةً، ويقطعه أراضي جديدةً، ثم لقّب قبيلته (قاتي) بمقدمة السلطان لتقدّمها جيوش السلطان في كل معركةٍ.

توفي أرطغرل بن سليمان شاه سنة ٦٨٧هـ، فعيّن السلطان علاء الدين السلجوقي أكبر أولاد أرطغرل وهو عثمان مكان أبيه أرطغرل، ولم يلبث عثمان أن حصل علىٰ امتيازاتٍ جديدةٍ إثر فتحه مدينة (أفيون قره حصار) القريبة من مدينة (قونية) سنة ٦٨٨هـ، فمنحه السلطان علاء الدين لقب (بك)، وأقطعه الأراضي والقلاع التي فتحها كافةً، وسمح له سكّ النقود، وأن يذكر اسمه مع اسمه في خطبة الجمعة، وبذا أصبح عثمان بك ملكاً بالفعل لا ينقصه إلا اللقب.



مصور رقم (١)

السَلطَنة العُثمانيَّة

ينتسب العثمانيون إلىٰ عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه، وذلك لأنه أول من تسلّم حكماً في أسرته.

- ١ -
عثمان بن أرطغرل
(٦٨٧ ـ ٧٢٦هـ)

وُلد عثمان بن أرطغرل سنة ٦٥٦هـ، وهو أكبر أولاد أرطغرل بن سليمان شاه.

تزوج عثمان ابنة رجلٍ صالحٍ كان رآها مصادفةً عند والدها وعلق بها، ولكن أبىٰ والدها أن يزوجها له فحزن عثمان لذلك وأظهر الصبر والجلد ولم يرغب الاقتران بغيرها حتىٰ قبل أبوها بعد أن قصّ عليه عثمان مناماً[١]. وقبل أن يبني بها عثمان كان قد طلبها أمير مدينة (أسكي شهر)[٢] فرفض والدها، فحنق أمير أسكي

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية. محمد فريد بك.

(٢) أسكي شهر: تعني البلد القديم، وتقع غرب مدينة أنقرة.

شهر علىٰ عثمان لما تزوجها وأراد أن يفتك به، فهاجمه في قصر أحد مجاوريه، وطلب من صاحب القصر أن يُسلّمه إليه فأبىٰ، ثم خرج عليه عثمان ومن معه وردّه علىٰ عقبه، وأسر أحد من كان معه من الأمراء ويُدعىٰ (كوسه ميخائيل) ولكثرة إعجاب هذا الأمير الأسير بشجاعة عثمان فقد تعلّق به، وصار من خاصّة رجاله، ثم أسلم، وبقيت ذريته مشهورة في تاريخ الدولة العثمانية باسم عائلة (ميخائيل أوغلي)[١].

توفي أرطغرل بن سليمان والد عثمان سنة ٦٨٧هـ، فعيّن الملك علاء الدين السلجوقي ملك إمارة قرامان مكان أرطغرل أكبر أبنائه وهو عثمان بن أرطغرل، وقد فتح عثمان سنة ٦٨٨هـ مدينة (قره حصار) فمنحه الملك علاء الدين امتيازاتٍ جديدةً ـ كما سبق ذكره ـ. كما ولدت زوجة عثمان (مال خاتون)[٢] ابنهما (أورخان) في السنة التي عُيّن فيها أبوه مكان أبيه وهي ٦٨٧هـ.

أغار المغول علىٰ الأناضول سنة ٦٩٩هـ، ووصلوا

---

(١) المرجع السابق نفسه. وتعني كلمة (أوغلي) الابن أي: أبناء ميخائيل.

(٢) خاتون: تعني المرأة، ولكن يطلق هذا الاصطلاح علىٰ المرأة السيدة في المجتمع.

إلىٰ إمارة قرامان ففرّ من وجههم أميرها علاء الدين السلجوقي والتجأ إلىٰ إمبراطور بيزنطة، وتوفي هناك في العام نفسه، وقيل: إن المغول قد تمكّنوا من قتله وتولية ابنه غياث الدين مكانه، ثم إن المغول قد أجهزوا علىٰ غياث الدين وقتلوه، وبذا لم يبق لإمارة قرامان أمير، وهذا ما فسح المجال لعثمان بن أرطغرل حيث لم تعد هناك سلطة أعلىٰ منه تُوجّهه أو يرجع إليها بالمهمّات. بدأ عثمان يتوسّع، ولكن عجز عن فتح مدن (أزميت) و(نيقية) و. . . . رغم حصارها.

اتخذ عثمان مدينة (يني شهر)[1] قاعدةً له، ولقّب نفسه (باديشاه) آل عثمان، واتخذ رايةً له (هي علم تركيا اليوم). ودعا أمراء الروم في آسيا الصغرىٰ إلىٰ الإسلام، فإن أبوا فعليهم أن يدفعوا الجزية التي يدفعها أهل الذمة في ظلّ الإسلام، فإن رفضوا فالحرب هي التي تحكم بينه وبينهم، فخشوا علىٰ أملاكهم منه فما دام يتكلم بالإسلام فإنه سيرفع راية الجهاد وإذا رفع فسيكون النصر إلىٰ جانبه، فاستعان أمراء الروم بالمغول عليه، وطلبوا منهم أن ينجدوهم ضده.

جهّز عثمان جيشاً بإمرة ابنه (أورخان) الذي قارب

---

(١) يني شهر: المدينة الجديدة.

الثلاثين من العمر، وسيّره لقتال المغول فشتّت شملهم، ثم عاد فاتحه إلىٰ مدينة بورصة (بروسة) فاستطاع أن يدخلها سنة ٧١٧هـ، بعد أن فتح ما حولها من القلاع والحصون وحاصرها مدة عشر سنواتٍ من غير قتالٍ إذ أرسل إمبراطور القسطنطينية أوامره لعامله علىٰ هذه المدينة بالانسحاب فأخلاها، ودخلها أورخان، وتعدّ من الحصون الرومية المهمة في آسيا الصغرىٰ، وأمّن أهلها، وأحسن إليهم فدفعوا له ثلاثين ألفاً من عملتهم الذهبية، وأسلم حاكمها (أفرينوس) فمنحه عثمان لقب (بك)، وأصبح من القادة العثمانيين البارزين.

وتوفي عثمان بن أرطغرل في ٢١ رمضان سنة ٧٢٦هـ عن عُمرٍ يناهز السبعين سنةً، وقد عهد لابنه أورخان بالحكم بعده.

- ٢ -

أورخان بن عثمان

(٧٢٦ ــ ٧٦١هـ)

وُلد أورخان بن عثمان سنة ٦٨٧هـ، وهي السنة التي تولّىٰ فيها أبوه الحكم وهو ثاني أبناء أبيه من حيث السنّ، بعد أخيه علاء الدين، لكن يبدو أن أورخان كان أكثر إخوته نباهة وشجاعةً فنال بذلك الملك، ولم يُخالفه أخوه الأكبر علاء الدين بل رضي بذلك فقدّره أخوه أورخان وسلّمه الوزارة فانصرف علاء الدين إلىٰ الأمور الداخلية، وتوجّه أورخان إلىٰ الأعمال الخارجية.

نقل أورخان قاعدة حكمه من (يني شهر) إلىٰ بورصة (بروسة)، وأسّس الجيش الانكشاري (يني تشري) أي الجيش الجديد، ويضمّ أبناء الأسرىٰ، والصّغار الذين يقعون بالأسر، فيُربّىٰ هؤلاء في ثكناتٍ عسكريةٍ إسلاميةٍ، ويُدرّبون تدريباً عسكرياً، ويتخرّجون لا يعرفون إلا القتال والحياة العسكرية والإسلام والجهاد في سبيل الله، فليست هناك روابط قومية أو قبلية أو عشائرية أو أسرية إذ لا يعرفون إلا السلطان

سيّداً لهم، لذا كانوا قوةً كبيرةً ساعدت العثمانيين في ضرب خصومهم وامتداد الفتوحات العثمانية، وكان يمكن أن تبقىٰ هذه القوة كذلك لو بقي السلاطين أقوياء لا يسمحون لهم بالتدخّل في غير ما اختصّوا به، ولا يسمحون للأمراء والوزراء بالاتصال بهم وأخذ الدعم منهم، ولا أن يعطوهم أكثر من قدرهم فتتغيّر طباعهم، فما تدخّل أمثالهم في شؤون الحكم إلا أفسدوه ولا تصرّفوا في أمور البلاد إلا أضاعوها إلا من عصم ربك، وهكذا كان الانكشارية في النهاية إذ أصبحوا سبب الهزيمة وطريق المفاسد حتىٰ قُضي عليهم سنة ١٢٤٢هـ أيام الخليفة العثماني محمود الثاني.

ضرب السلطان أورخان العملة الفضية والذهبية.

فتح السلطان أورخان مدينة (أزميت)[1] ثم مدينة (أزنيك) وهي نيقية، وتقع بين بورصة وأزميت علىٰ مقربةٍ من بحيرةٍ لا تزال تحمل الاسم القديم (أزنيك).

توفي حاكم إمارة (قره سي) الواقعة جنوب بحر مرمرة وإلىٰ الشرق من بحر إيجه وذلك سنة ٧٣٦هـ، واختلف ولداه علىٰ السلطة فيما بينهما؛ فأسرع أورخان

---

(١) أزميت: مدينة تقع علىٰ بحر مرمرة شمال شرقي مدينة بورصة، وإلىٰ الشرق من إستانبول، وإلىٰ الجنوب منها قليلاً.

وضمّها إلىٰ إمارته كي لا تقع فريسةً بيد الروم.

وطلب إمبراطور بيزنطة يوحنا الخامس (يوحنا باليوج) من أورخان سنة ٧٥٦هـ مساعدته ضدّ إمبراطور الصرب اصطفان دوشان الملقب بـ(القوي) والذي تحالف مع الإمارات الصربية وإمارة البندقية للهجوم علىٰ القسطنطينية، ووعده بأن يزوّجه ابنة الوصي علىٰ الحكم يوحنا كانتاكوزين التي تزوّج الإمبراطور أختها الأخرىٰ ـ أي يصبح عديلاً له ـ فأرسل له أورخان الجند، غير أن اصطفان دوشان قد أدركه الموت، وتوقّف الاستعداد للقتال، وعاد الجنود العثمانيون إلىٰ بلادهم دون قتالٍ، وتزوج السلطان العثماني أورخان ابنة الوصي يوحنا كانتاكوزين[1].

---

(١) توفي سنة ٧٤٢هـ الإمبراطور البيزنطي أندريو نيكوس الثالث والد يوحنا الخامس الذي كان صغيراً لا يزيد عمره علىٰ تسع سنواتٍ، فتسلم الوصاية عليه رئيس الوزارة يوحنا كانتا كوزين، وكان يحاول أن يزيح الإمبراطور الصغير عن العرش ويتسلّم مكانه بحجة أنه صغير رغم أنه زوّجه ابنته، واستمرّ يوحنا الخامس إمبراطوراً علىٰ القسطنطينية حتىٰ سنة ٧٩٣هـ أي حكم إحدىٰ وخمسين سنةً.

وزواج السلطان أورخان بابنة يوحنا كانتا كوزين كيد صليبي، لتدخل فتاة نصرانية بيت السلطان وتعرف أسراره وتتصل بأهلها وتخبرهم عما يريدون.

شعر السلطان أورخان بضعف الإمبراطورية البيزنطية بعد أن طلب منه الإمبراطورالمساعدة للوقوف في وجه الصرب، فارتفعت الروح المعنوية عنده وفكر بنشر الإسلام في أوربا إذ رأىٰ أن ينتقل إلىٰ الضفة الغربية من مضيق الدردنيل ليتقدمّ في أوربا ويعمل علىٰ نشر الدعوة هناك، وفي الوقت نفسه يتمكّن من الإحاطة بمدينة القسطنطينية، والهجوم عليها من الغرب إذ عجز المسلمون عن فتحها بالهجوم عليها من الشرق، وإن لم يكن هو الفاتح فمن يأتي بعده، فقرر الجهاد، وأرسل ابنه الكبير سليمان، وهو ولي عهده ووزير الدولة الأول لدراسة الغزو والتخطيط له.

اجتاز ولي العهد سليمان سنة ٧٥٨هـ مضيق الدردنيل ليلاً مع أربعين رجلاً من أبطاله، ولما وصلوا إلىٰ الضفة الغربية استولوا علىٰ الزوارق الرومية الراسية هناك، وعادوا بها إلىٰ الضفة الشرقية، إذ لم يكن للعثمانيين أسطول حيث لا تزال دولتهم في بداية تأسيسها، وفي الضفة الشرقية أمر ولي العهد سليمان جنوده أن يركبوا في الزوارق حيث نقلهم إلىٰ الشاطئ الأوربي حيث احتلّوا قلعة (تزيب) ومدينة (غاليبولي) التي فيها قلعة (جنا قلعة) المشهورة، و(أبسالا) و(رودستو)، وكلها تقع علىٰ مضيق الدردنيل من

الجنوب إلىٰ الشمال حتىٰ تصبح (رودستو) علىٰ بحر مرمرة.

توفي ولي العهد سنة ٧٦٠هـ نتيجة سقوطه عن جواده، وأصبح ولي العهد أخوه مراد بن أورخان، وفي العام التالي سنة ٧٦١هـ توفي السلطان أورخان فخلفه ابنه مراد.

عاش السلطان أورخان أربعاً وسبعين سنةً (٦٨٧ ـ ٧٦١هـ)، ودُفن في مدينة بورصة. وحكم مدة خمسٍ وثلاثين سنةً (٧٢٦ ـ ٧٦١هـ).

ـ ٣ ـ

مراد بن أورخان
مراد الأول

(٧٦١ ــ ٧٩١هـ)

ولد السلطان مراد الأول سنة ٧٢٦هـ في السنة التي تولّىٰ فيها والده السلطنة، فكان عمره يوم أصبح سلطاناً خمساً وثلاثين سنةً.

أثناء انتقال الحكم من السلطان أورخان إلىٰ ابنه السلطان مراد الأول سنة ٧٦١هـ، أخذت الحماسة أمير دولة القرامان في أنقرة وهو الأمير علاء الدين، فأخذ يستنهض همم الأمراء المستقلّين في آسيا الصغرىٰ لقتال العثمانيين قبل أن يتسع سلطانهم وتزداد قوتهم، وقد عمل الأمير علاء الدين علىٰ جمع قادة الأمراء غير أنه لم ينتبه إلا وجيش السلطان مراد الأول يحيط بمدينته أنقرة ويدخلها عنوةً فاتحاً، فاضطر إلىٰ عقد الصلح معه يتنازل له فيه عن مدينة أنقرة، ويعترف السلطان مراد الأول بالأمير علاء الدين أميراً علىٰ بقية أملاك دولة القرامان. وتزوج مراد الأول ابنة الأمير علاء الدين.

فتح العثمانيون بقيادة بكلر بك (لاله شاهين) مدينة أدرنة سنة ٧٦٢هـ، وهي قاعدة (تراقيا) اليوم وعلىٰ مقربةٍ من بلغاريا، وقد سلّمها القائد الرومي بعد أن يئس من المقاومة، فنقل السلطان مراد الأول عاصمته إليها ليكون علىٰ مقربةٍ من أوربا للجهاد في سبيل الله، وليمكن العمل للدعوة إلىٰ الإسلام في تلك الأصقاع، وليكون الهجوم علىٰ القسطنطينية من جهة الغرب أكثر قوةً. وبقيت مدينة أدرنة عاصمةً للعثمانيين حتىٰ فتحوا مدينة القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ، وسمّوها مدينة الإسلام (إسلامبول)، كما فتح العثمانيون مدينة (فيلبه)(١) عاصمة الروملي الشرقية، وعدة مدنٍ أخرىٰ.

أصبحت مدينة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية محاطةً بالعثمانيين، كما أنها انفصلت عن الإمارات النصرانية الصغيرة القائمة في شبه جزيرة البلقان، وصارت السلطنة العثمانية مجاورةً لإمارات الصرب، وبلغارية، وألبانية.

دبّ الفزع وحلّ الهلع في قلوب الأمراء الأوربيين الذين أصبح العثمانيون علىٰ حدودهم فكتبوا إلىٰ ملوك

---

(١) فيلبه: تقع في بلغارية اليوم، إلىٰ الجنوب الشرقي من صوفيا، بين صوفيا وأدرنة.

أوربا الغربية وإلىٰ البابا يستنجدون بهم ضد المسلمين، حتىٰ أن إمبراطور القسطنطينية قد ذهب إلىٰ البابا في الفاتيكان وركع أمامه وقبّل يديه ورجليه ورجاه الدعم رغم الخلاف المذهبي بينهما. فلبّىٰ البابا النداء وكتب إلىٰ ملوك أوربا عامةً يطلب منهم الاستعداد للقيام بحربٍ صليبيةٍ جديدةٍ حفاظاً علىٰ النصرانية من التقدّم الإسلامي الجديد، غير أن ملك الصرب (أوروك الخامس) الذي خلف (اصطفان دوشان) لم يتوقّع الدعم السريع من البابا وملوك أوربا، لذا فقد استنهض همّة الأمراء المجاورين له والذين أصبحوا علىٰ مقربةٍ من الخطر ـ علىٰ حدّ زعمهم ـ فلبّىٰ دعوته أمراء البوسنة (غربي يوغوسلافيا)، والأفلاق (جنوبي رومانيا)، وأعداد من فرسان المجر المرتزقة، وسار جميعهم نحو مدينة (أدرنة) حاضرة العثمانيين مستغلّين انشغال السلطان مراد الأول العثماني ببعض حروبه في آسيا الصغرىٰ، غير أن جيش العثمانيين قد أسرع للقاء أعدائه فاصطدم بهم علىٰ ضفاف نهر (مارتيزا)[١] فهزمهم هزيمةً منكرةً، وولّوا الأدبار. واضطرت بعد ذلك إمارة

---

(١) نهر مارتيزا: نهر صغير ينبع من غربي بلغارية، ويمر علىٰ مدينة أدرنة، ثم يصب في بحر إيجة.

نصرانية صغيرة علىٰ بحر الأدرياتيك علىٰ ساحل يوغوسلافية اليوم، وهي إمارة (راجوزة) أن ترسل وفداً إلىٰ السلطان العثماني فيعقد معه صلحاً تدفع الإمارة بموجبه للدولة العثمانية خمسمائة دوكاً ذهبياً كجزيةٍ سنويةٍ.

حاول ملك الصرب الجديد (لازار بلينا نوفتش) وأمير البلغار (سيسمان) الاتفاق علىٰ قتال العثمانيين غير أنهما وجدا ضعفاً عندهما رغم أنهما لم يخوضا سوىٰ بعض المعارك الجانبية فاضطرا إلىٰ دفع جزيةٍ سنويةٍ. وتزوج السلطان العثماني مراد الأول ابنة أمير البلغار سنة ٧٨٠هـ كنوعٍ من الكيد الصليبي.

نظَّم السلطان مراد الأول فرق الخيالة التي عُرفت بالسباهية (سيباه) ويقصد بها الفرسان.

كان السلطان مراد الأول دائم التفكير في تلك الإمارات الصغيرة القائمة بالأناضول ويريد التخلّص منها، ولكن لا يُفكّر أن يأخذها بالقوة فتكون نقمةً عليه، كما لا يريد أن يتركها تتصارع بعضها مع بعضٍ فيكون ذلك مجال للتدخّل في شؤونها من قبل الآخرين، ورأىٰ أن يحلّ مشكلاتها تدريجياً مع الزمن. فبدأ بإمارة أبناء كرميان أقرب الإمارات إلىٰ أملاكه

فزوّج ابنه بايزيد من ابنة أمير كرميان فقدّم الأب لابنته مدينة كوتاهية فضُمّت إلىٰ الدولة العثمانية.

ألزم السلطان مراد الأول العثماني أمير دويلة أبناء حميد الواقعة بين إمارات قرامان، وأبناء تكة، ومنتشا بالتنازل عن أملاكه للدولة العثمانية.

تأخّر الصرب والبلغار في دفع الجزية ويبدو أن هذا التأخير كان علىٰ اتفاقٍ بينهما، فتوجّهت الجيوش العثمانية إلى بلادهم، ففتحت بعض المدن الصربية التي تقع اليوم في جنوبي يوغوسلافية، كما حاصرت عاصمة البلغار (صوفيا) وفتحتها سنة ٧٨٤هـ بعد حصارٍ استمر ثلاث سنواتٍ، كما فتحت مدينة (سلانيك) المدينة اليونانية المشهورة الواقعة علىٰ بحر إيجه.

تمرّد الأمير (ساوجي) بن السلطان مراد الأول العثماني بالاتفاق مع ابن إمبراطور القسطنطينية (اندرونيكوس بن يوحنا باليوج)، وكان الإمبراطور يوحنا قد حرم ابنه هذا من ولاية العهد وأعطاها لابنه الآخر (عمانويل)، فأرسل السلطان لابنه جيشاً انتصر عليه وقتله، كما أرسل الإمبراطور البيزنطي من قتل ابنه أيضاً.

قام علاء الدين أمير دولة القرامان مع بعض

الأمراء المستقلين بمحاربة الدولة العثمانية، فأرسل لهم السلطان مراد الأول جيشاً انتصر عليهم في سهل قونية، وأخذ الأمير علاء الدين أسيراً، غير أن ابنته زوجة السلطان قد توسطت له فأطلق سراحه، وأبقىٰ له إمارته، ولكنه فرض عليه دفع مبلغٍ من المال سنوياً وذلك سنة ٧٨٧هـ.

استغل الصرب انشغال الجيوش العثمانية بالأناضول لقتال أمير القرامان علاء الدين، فهاجموا القوات العثمانية في جنوبي الصرب، وحقّقوا بعض النصر وذلك سنة ٧٨٨هـ، وتأهّب أمير البلغار (سيسمان) للقيام بدوره أيضاً غير أن الجيوش العثمانية قد داهمته وأخذت بعض أجزاء من بلاده ففرّ إلىٰ الشمال، واعتصم في مدينة (نيكوبلي) القريبة من حدود رومانيا، وجمع فلول جيشه وهاجم بها العثمانيين غير أنه هُزم، ووقع أسيراً، لكن السلطان مراد الأول أحسن إليه، فأبقاه أميراً علىٰ نصف بلاده، وضمّ الباقي إلىٰ الدولة العثمانية كي لا يُعاود الهجوم.

علم ملك الصرب (لازار) ما تمّ بملك البلغار، فانسحب بجيوشه نحو الغرب للانضمام إلىٰ ملك الألبانيين ومحاربة العثمانيين معه، غير أن الجيوش العثمانية كانت علىٰ انتباهٍ فأدركته قبل وصوله إلىٰ

مبتغاه، والتقت معه سنة ٧٩١هـ في معركةٍ وسط سهل إقليم كوسوفو جنوبي يوغوسلافيا، وكان القتال سجالاً بين الطرفين إلا أن صهر الملك (لازار) قد انحاز إلىٰ جانب المسلمين بفرقته المؤلفة من عشرة آلاف مقاتلٍ فانهزم الصربيون، ووقع ملكهم (لازار) أسيراً بيد العثمانيين، وهو جريح، فقتلوه لما فعل سابقاً من أفعالٍ دنيئةٍ بأسراه من المسلمين.

فقدت دولة الصرب استقلالها بعد هذه المعركة سنة ٧٩١هـ، وفي الوقت نفسه قُتل السلطان العثماني مراد الأول الذي كان قائد جيشه، إذ بينما كان يتفقّد نتائج المعركة ويتفحّص الجثث، قام إليه جندي صربي من بين الجثث وطعنه بخنجرٍ فأرداه قتيلاً، وقتل الجند العثمانيون القاتل الصربي مباشرةً.

كان مقتل السلطان مراد الأول في ١٥ شعبان سنة ٧٩١هـ عن عمرٍ يناهز خمساً وستين سنةً، وبلغت مدة حكمه ثلاثين سنةً، ونُقلت جثته إلىٰ مدينة بورصة حيث دُفنت هناك.

ـ ٤ ـ

بايزيد بن مراد الأول
بايزيد الأول

(٧٩١ ـ ٨٠٥هـ)

بايزيد هو أكبر أبناء السلطان مراد الأول وُلد سنة ٧٦١هـ أي في السنة التي تولّىٰ فيها أبوه السلطنة، فكان عمره ثلاثين سنةً يوم تسلّم الحكم، وكان له ولد آخر أصغر منه بقليلٍ يُدعىٰ (يعقوب) وكان يتصف بالشجاعة والإقدام، فخاف أركان الدولة من أن يدّعي الملك لذا فقد اتفقوا علىٰ تولية بايزيد، وقُتل يعقوب إذ انتبه بعضهم إلىٰ أن هناك من يدفعه وخاصةً أمه فهي غير مسلمة أولاً، ويبدو أن هناك مهمةً وراءها. وهذا ما يجب أن ينتبه إليه المسلم ويعرف كيد الأعداء ومخططاتهم.

كان السلطان بايزيد الأول دائم الجهاد ينتقل من أوربا إلىٰ الأناضول بسرعةٍ، ثم لا يلبث أن يُشاهد راجعاً إلىٰ أوربا بسرعةٍ ليُحقّق نصراً جديداً لذا لُقّب بـ(يلدرم) أيّ الصاعقة لتلك الحركة السريعة والانقضاض المفاجئ.

عيّن السلطان بايزيد الأول ملكاً علىٰ الصرب سنة ٧٩٢هـ (اصطفان بن لازار) وسمح له بالحكم علىٰ مقتضىٰ نُظمهم وشرائعهم مقابل دفع جزيةٍ سنويةٍ، وتقديم عددٍ من المقاتلين ينضمّون إلىٰ الجيوش العثمانية وقت الحرب وحين يطلبُ السلطان ذلك، كما تزوّج السلطان أختّ ملك الصرب وهي (أوليفيرا)[1].

انتقل السلطان بايزيد إلىٰ الأناضول، فضمّ سنة ٧٩٣هـ إمارة (منتشا) وإمارة (آيدين) وإمارة (صاروخان) إلىٰ العثمانيين دون قتال، ولكن فرّ أبناء حكامها إلىٰ مدينة (قسطموني) مركز إمارة (اسفنديار)، كما تنازل أمير دولة القرامان عن جزءٍ من أملاكه للسلطان ليُبقي له الجزء الثاني، كما فتح مدينة (الأشهر) قرب أزمير، وهي آخر مدينة كانت قد بقيت للروم في غربي الأناضول. وبذا يكون السلطان قد ضمن ما خلفه حيث كان حكام هذه الإمارات يمكنهم أن يتعاونوا مع أية قوةٍ في سبيل المحافظة علىٰ إماراتهم.

(١) هذا الزواج خطأ، وقد وافق ملك الصرب أخو الزوجة علىٰ ما تمّ للوصول إلىٰ هدفٍ، وعلىٰ المسلم وخاصة المسؤول أن ينتبه إلىٰ هذا، ويعرف المخططات السياسية والأهداف وكيد الأعداء، إذ يريد الأعداء إدخال نساءٍ من أتباع عقيدتهم إلىٰ بيوت المسؤولين المسلمين ليعرفوا أخبارها وأسرارها.

عاد السلطان بايزيد فاتجه إلىٰ مدينة القسطنطينية سنة ٧٩٤هـ فحاصرها، وضيّق الحصار، ثم تركها مُحاصرةً وسار بجيشٍ إلىٰ منطقة الأفلاق وهي الجزء الجنوبي من دولة رومانيا اليوم، وأجبر حاكمها علىٰ توقيع معاهدةٍ يعترف فيها بسيادة العثمانيين علىٰ بلاده، ويدفع جزيةً سنويةً، ثم أبقاه حاكماً علىٰ بلاده يحكم فيها بقوانينهم الخاصة ونُظمهم.

اضطر السلطان بايزيد إلىٰ العودة مسرعاً إلىٰ الأناضول لأن أمير دولة القرامان علاء الدين قد ندم علىٰ تنازله عن جزءٍ من أملاكه للعثمانيين، ووجد السلطان مشغولاً بأوربا وحروبه لحاكم (الأفلاق)، فاستغلّ هذا الظرف وعبّأ جنده، وأثار بعض الأمراء من خصوم السلطان، وهاجم العثمانيين، وقد تمكّن من إحراز بعض النصر، وأسر أكبر القادة العثمانيين في الأناضول، فأسرع السلطان إليه وهزمه، ولاحقه حتىٰ أخذه وولديه أسرىٰ، وأنهىٰ إمارة القرامان، كما أنهىٰ إمارة سيواس، وتوقات، ثم التفت إلىٰ إمارة اسفنديار التي كانت ملجأً لأبناء الأمراء الفارين من وجه العثمانيين، فطالب السلطان أمير أبناء الأمراء الذين يجتمعون عنده فلما أبىٰ هاجمه وضمّ بلاده إليه، أما الأمير فقد فرّ والتجأ إلىٰ تيمورلنك طاغية التتار.

استمر حصار العثمانيين لمدينة القسطنطينية، وسار السلطان إلىٰ بلاد البلغار، وقد قُتل أميرها (سيسمان) فجعل تلك البلاد ولايةً عثمانيةً، وأسلم ابن الأمير المقتول، فأخذه السلطان وجعله والياً علىٰ منطقة (صامسون) المشرفة علىٰ البحر الأسود.

لما وصلت أخبار هذه الانتصارات العثمانية إلىٰ ملك المجر بعث يستنجد بالبابا وبملوك أوربا، فأعلنها البابا حرباً صليبيةً ودعا إليها الملوك والأمراء، فاستجاب دوق (بورغونيا) لذلك، وإن كانت إمارته صغيرةً نسبياً، وتقع شرقي فرنسا، وليس لأحدٍ سلطان عليها، وكذا استجاب أمراء النمسا، و(بافاريا) التي تقع جنوبي ألمانيا، ورؤساء فرسان القديس يوحنا الذين خرجوا من عكا في الحروب الصليبية بعد أن أُجبروا علىٰ ذلك فانتقلوا إلىٰ قبرص، ثم إلىٰ رودوس، ثم إلىٰ مالطة، وساروا جميعاً فاجتازوا نهر الدانوب، وحاصروا مدينة (نيكوبلي) الواقعة في شمالي بلغاريا ووصل جيش السلطان بايزيد، وكان بقيادة أمير الصرب (اصطفان بن لازار) ومعه كثير من الشعوب النصرانية الخاضعة للحماية العثمانية، وكان عدد ذلك الجيش حوالي مائتي ألف مقاتلٍ، وكان اللقاء يوم ٢٣ ذي القعدة سنة ٧٩٨هـ، فانتصر العثمانيون، وأسروا دوق

بورغونيا وعدداً من الأمراء، وفدىٰ الدوق نفسه بمبلغٍ ضخمٍ من المال.

وبعد هذا الانتصار عقد السلطان بايزيد صلحاً مع إمبراطور بيزنطة، فكّ بموجبه الحصار عن القسطنطينية مقابل دفع ما يعادل عشرة آلاف دينارٍ ذهبيٍ، والسماح للمسلمين ببناء مسجدٍ لهم في القسطنطينية.

الغزو التتاري:

وصل طاغية التتار تيمورلنك في انسياحه الوحشي نحو الغرب إلىٰ بغداد، ففرّ من وجهه أحمد بن أويس الجلائري أمير بغداد الذي التجأ إلىٰ السلطان بايزيد الأول، فأرسل تيمورلنك إلىٰ السلطان أن يسلّمه أحمد بن أويس، فرفض ذلك فاتجه تيمورلنك إلىٰ آسيا الصغرىٰ، ودخل مدينة سيواس، وقبض علىٰ الأمير أرطغرل بن السلطان بايزيد وقتله، وتابع سيره نحو الغرب، فأسرع السلطان بايزيد إليه وقد حشد له مايزيد علىٰ مائةٍ وخمسةٍ وعشرين ألف مقاتلٍ، علىٰ حين ضمّ جيش تيمورلنك ما ينوف علىٰ ثمانمائة ألف مقاتلٍ، ومعه أمير قسطموني وعدد من أبناء أمراء الدويلات التي ضمّها العثمانيون إليهم، وقد كانت مستقلةً وقامت علىٰ أنقاض دولة السلاجقة في الأناضول، والتقىٰ الجيشان

في سهل أنقرة يوم ١٩ ذي الحجة سنة ٨٠٤هـ، واستمرت المعركة طيلة ذلك اليوم من قبل شروق الشمس إلىٰ ما بعد غروبها، ورغم ما أبداه السلطان بايزيد من شجاعةٍ إلا أنه هُزم بعد أن فرّت فرق إمارات آيدين، ومنتشا، وكرميان، وصاروخان وانضمت إلىٰ جيش تيمورلنك حيث أبناء أمرائها فيه، وكانت النتيجة أن وقع السلطان بايزيد نفسه وابنه موسىٰ في الأسر، حيث وقفا في وجه الخصم وصمدا وسط ميدان المعركة، واختفىٰ ابنه الآخر مصطفىٰ، وفرّ من المعركة أبناؤه: سليمان، وعيسىٰ، ومحمد.

رغم أن تيمورلنك لم يُسئ إلىٰ السلطان بايزيد؛ إلا أنه شدّد عليه المراقبة حيث حاول الفرار من الأسر ثلاث مراتٍ وفشل فيها كلها، وتعدّ الإهانة النفسية عظيمةً إذ كُلّف بحراسة الأمير موسىٰ بن السلطان بايزيد أمير كرميان أيّ عدوّه. وقد أصاب السلطان ضيق شديد فتوفي في ١٥ شعبان سنة ٨٠٥هـ وعمره لا يزيد علىٰ أربعٍ وأربعين سنةً، وسمح تيمورلنك بنقل جثة السلطان لتُدفن في مدينة بورصة.

تابع تيمورلنك تقدّمه نحو الغرب بعد معركة أنقرة، فاستولىٰ علىٰ بورصة ونيقية، ودكّ حصون أزمير، ولما وصل إلىٰ أقصىٰ الغرب في الأناضول وأراد

الرجوع، أعاد الإمارات التي كانت قائمةً قبل أن يضمّها العثمانيون إليهم، وهي: قسطموني، وصاروخان، ومنتشا، وآيدين، وكرميان، وقرامان، فعادت التجزئة إلىٰ الأناضول كما كانت قبل العثمانيين.

ورأت الإمارات الأوربية التي كانت خاضعةً للعثمانيين ما حلّ بالدولة وسلطانها، فأعلنت استقلالها، وهي: البلغار، والصرب، والأفلاق فصغرت رقعة الدولة من جديد.

واختلف أبناء السلطان بايزيد علىٰ السلطة بعد عودة تيمورلنك عن الأناضول فزادت الدولة ضعفاً وتمزّقاً، وشجّع تيمورلنك أبناء السلطان علىٰ هذا الاختلاف ليبقوا في ضعفٍ وتبقىٰ له الهيمنة، واستعان بعضهم به ضد بعضٍ، كما طلب بعضهم دعم إمبراطور القسطنطينية ضد بعضٍ، وهذا شأن الدول عندما تكون ضعيفةً.

استقل سليمان بن بايزيد في أدرنة (منطقة تراقيا في أوربا) وجعله جنده سلطاناً عليهم، وعلىٰ المناطق العثمانية في أوربا، وعقد حلفاً مع إمبراطور بيزنطة (عمانويل الثاني)، وتنازل له عن مدينة (سلانيك) وعلىٰ سواحل البحر الأسود ليساعده علىٰ إخوته، وتزوج من إحدىٰ قريباته.

وأما عيسىٰ بن بايزيد فقد كان مختبئاً بجهات (بورصة)، فلما علم بوفاة والده أعلن نفسه سلطاناً، وساعده كبير قادة بني عثمان (ديمور طاش).

وأما محمد فقد كان مختبئاً في أواسط الأناضول، فلما وجد الفرصة مناسبةً له إذ خفّ ضغط التتار، خرج وجمع حوله الجند وانطلق يقاتل التتار، وتمكّن من أخذ مدينة توقات، ومدينة أماسيا منهم وذلك في شمال شرقي الأناضول فقوي أمره، واستطاع أن ينقذ أخاه موسىٰ من يد أمير كرميان المكلف بحراسته من قبل تيمورلنك، وسار محمد لمحاربة إخوته.

اتجه محمد بن بايزيد لقتال أخيه عيسىٰ، وجرت بينهما عدة معارك خرج محمد إثرها منتصراً، وقتل عيسىٰ، ورجعت الأناضول تحت إمرته.

أرسل محمد بن بايزيد أخاه موسىٰ علىٰ رأس جيشٍ لقتال أخيهما سليمان غير أن موسىٰ قد هُزم، وعاد خائباً من أوربا، فأعاد الكرة إذ قاد موسىٰ جيشاً آخر للغرض نفسه، وقد تمكّن من قتل أخيه سليمان علىٰ أبواب مدينة (أدرنة) سنة ٨١٣هـ، ثم اتجه لمعاقبة الصرب الذين أعلنوا انفصالهم عن الدولة العثمانية أثناء الأزمة التي وقعت فيها بعد مقتل السلطان بايزيد الأول،

فأسرع ملك المجر لقتال موسىٰ دفاعاً عن الصرب فحاربه وانتصر عليه.

عاد الخلاف فوقع بين الأخوين الباقيين من أبناء السلطان بايزيد وهما: محمد وموسىٰ، إذ اغترّ موسىٰ بقوته وانتصاراته في أوربا، فأراد الانفصال عن أخيه، وتأسيس دولةٍ خاصةٍ به في أوربا، وسار لفتح القسطنطينية، وألقىٰ عليها الحصار فاستنجد إمبراطور بيزنطة بالأمير العثماني محمد، فأسرع لنجدته، ووقع القتال بين الأخوين، واضطر موسىٰ لرفع الحصار عن القسطنطينية، وتشكل حلف من الأمير العثماني محمد، وإمبراطور القسطنطينية، وملك الصرب ضد الأمير موسىٰ.

بدأ الاتصال بقادة الأمير موسىٰ حتىٰ تركوه، ووقع بين يدي أخيه فأمر بقتله سنة ٨١٦هـ، وبقي الأمير محمد وحده من أبناء السلطان بايزيد بعد أن قتل إخوته الثلاثة: عيسىٰ، وسليمان، وموسىٰ، وتفرّد بالأمر من أجل الحكم، والحكم عقيم.

ـ ٥ ـ

محمد جلبي
محمد الأول
(٨١٦ ــ ٨٢٤هـ)

ولد السلطان محمد سنة ٧٨١هـ، وتفرّد بالسلطة سنة ٨١٦هـ، وعمره خمس وثلاثون سنةً غير أن الفتن الداخلية قد تتابعت رغم الخوف من السلطان بسبب قتله إخوته، فإذا فعل هذا بإخوته فكيف يكون مع الآخرين!!! ولكن يبدو أنه كان مع الآخرين أرحم بكثيرٍ مما كان مع إخوته، فقد انتصر علىٰ أمير القرامان، وأخذه أسيراً، وعفا عنه، وأقسم الأمير له بالطاعة غير أنه قد حنث بقَسَمه، وعاد إلىٰ قتال السلطان، ولكن السلطان انتصر عليه، وأخذه أسيراً مرةً أخرىٰ، وعفا عنه أيضاً.

وانتصر السلطان علىٰ أمير أزمير (قره جنيد) وعفا عنه، وعيّنه حاكماً علىٰ مدينة (نيكوبلي).

ظهر الأمير مصطفىٰ بن بايزيد (أخو السلطان محمد)، وكان قد اختفىٰ بعد معركة أنقرة مع تيمورلنك

سنة ٨٠٤هـ، وطالب أخاه السلطان بالحكم، وانضمّ إليه (قره جنيد)، ودخل بلاد اليونان غير أنه هُزم أمام جند أخيه السلطان، ففرّ إلىٰ مدينة (سلانيك) وكانت تتبع الإمبراطورية البيزنطية منذ هزيمة العثمانيين في أنقرة سنة ٨٠٤هـ، فطلب السلطان تسليمه فأبىٰ الإمبراطور مع الوعد بإبقائه تحت الإقامة الجبرية ما دام السلطان علىٰ قيد الحياة، فوافق السلطان وخصّص لأخيه مصطفىٰ راتباً شهرياً. إذ يبدو أن السلطان بعد أن قتل إخوته الثلاثة: عيسىٰ، وسليمان، وموسىٰ قد أحسّ بجريمة القتل وأثرها في المجتمع، ومحاسبة القاتل يوم الحساب. ومن هنا فقد عدل بالعفو، لذا عفا عن (قره جنيد) وعن أخيه مصطفىٰ بعد أن اتخذ في البداية أسلوب القتل كوسيلةٍ لتحقيق الغرض.

مات السلطان محمد جلبي سنة ٨٢٤هـ بعد أن أوصىٰ لابنه مراد بالسلطنة من بعده. وكان مراد يوم وفاة أبيه في مدينة أماسيا، وكُتمت وفاة السلطان حتىٰ وصل ابنه مراد إلىٰ أدرنة بعد واحدٍ وأربعين يوماً من وفاة والده، ودُفن السلطان محمد جلبي في مدينة بورصة.

ـ ٦ ـ

مراد الثاني

(٨٢٤ ــ ٨٥٥هـ)

ولد مراد بن محمد جلبي سنة ٨٠٦هـ، وتولّىٰ أمر السلطنة بعد وفاة أبيه وبعهدٍ منه سنة ٨٢٤هـ، فكان عمره يوم أصبح سلطاناً ثماني عشرة سنةً، وعُرف باسم مراد الثاني حيث كان مراد الأول سلطاناً (٧٦١ ـ ٧٩١هـ).

رأىٰ السلطان مراد الثاني أن يعمل قبل كل شيءٍ علىٰ إعادة الإمارات في الأناضول إلىٰ حظيرة الدولة العثمانية بعد أن انتزعها تيمورلنك وفرّقها عند سيطرته علىٰ المنطقة. وفي سبيل هذه الغاية عقد هدنةً لمدة خمس سنواتٍ مع ملك المجر، وصالح أمير القرامان، وأما إمبراطور القسطنطينية فقد طلب من السلطان أن يتعهد له بعدم قتاله وليكون هذا العهد مضموناً فيجب علىٰ السلطان أن يُسلّمه اثنين من إخوته رهينةً، وإذا ما فكّر السلطان بالحرب فإن الإمبراطور علىٰ استعدادٍ لأن يطلق سراح عمّ السلطان وهو مصطفىٰ بن بايزيد

المحجوز في مدينة (سلانيك). ولكن السلطان رفض هذا التعهد فما كان من الإمبراطور إلا أن أطلق سراح عم السلطان ودعمه بعشرة مراكب كمساعدةٍ له علىٰ حصار مدينة (غاليبولي) علىٰ شاطئ مضيق الدردنيل، فاستطاع دخول المدينة ولكنه لم يتمكّن من دخول القلعة، فترك في المدينة حاميةً لحصار القلعة وحتىٰ لا يصل إليها المدد، وتابع سيره نحو ابن أخيه الذي هو السلطان مراد، غير أن أمراء جند مصطفىٰ لم يطيعوه، وتخلّوا عنه مع جنودهم وقت الشدّة ففرّ مسرعاً نحو مدينة غاليبولي فقُبض عليه وأُعدم.

سار السلطان مراد الثاني نحو القسطنطينية انتقاماً من الإمبراطور فألقىٰ الحصار عليه، وهاجم القسطنطينية في مطلع شهر رمضان سنة ٨٢٥هـ غير أنه عجز عن فتحها، واضطر إلىٰ رفع الحصار عنها لأن أخاه مصطفىٰ شقّ عصا الطاعة عليه ـ كما ذكرنا ـ وساعده أمراء الدويلات في الأناضول، وقد تمكّن من هزيمة أخيه وقتله.

وجد السلطان مراد الثاني أن هدفه هو إعادة الإمارات إلىٰ الدولة العثمانية فيجب أن يعود إليه، وأن يُقدّمه علىٰ غيره، وأن قتال هذه الإمارات فيه كلام لأن كلا الطرفين مسلم، وأن تركها لا يمكنه معها من

الجهاد، فهي مطمع للأعداء أولاً، ودخول إلىٰ المعركة من غير قوةٍ ثانياً.

خاف أمير قسطموني علىٰ نفسه لأنه كان يدعم الأمير مصطفىٰ وقد انتهىٰ أمره، لذا فقد أسرع وتنازل عن نصف إمارته إلىٰ السلطان مراد، وزوّجه ابنته سنة ٨٢٦هـ.

قام قره جنيد أمير أزمير واستولىٰ علىٰ إمارة آيدين وأعلن انفصاله عن السلطنة العثمانية غير أنه هُزم وقتل، ثم دخل السلطان مراد الثاني إمارات آيدين، ومنتشا، وصاروخان، وقتل أمير القرامان، وعيّن مكانه ابنه إبراهيم الذي تنازل للعثمانيين عن إقليم الحميد.

توفي أمير دويلة الكرميان سنة ٨٣١هـ، ولم يكن له عقب، فأوصىٰ قبل موته أن تلتحق الإمارة بالدولة العثمانية. وانتهىٰ السلطان بذلك من كل مشكلةٍ في الأناضول وأصبح بإمكانه التوجّه إلىٰ أوربا لتصفية حسابه مع الحكام الذين أساءوا للعثمانيين أثناء المحنة التي حلّت بهم أيام غزو التتار بقيادة تيمورلنك. وبعد ذلك يصفو له الجو لفتح القسطنطينية ومعاقبة إمبراطورها الذي حرّض عليه.

كان السلطان مراد الثاني يرىٰ أن القتال في أوربا

أسهل، فهو جهاد في سبيل الله قبل كل شيءٍ، وتكون الروح المعنوية عالية لدىٰ المسلمين ما داموا يقاتلون نصارىٰ ويعملون مجاهدين للدعوة إلىٰ دينهم، علىٰ حين كانوا يُساقون لقتال أمراء الدويلات في الأناضول دفعاً.

بدأ السلطان مراد الثاني بقتال ملك المجر، وعقد معه معاهدةً تنازل فيها السلطان عن أملاكه التي تقع علىٰ الضفة اليمنىٰ لنهر الدانوب الذي سيكون الحدّ الفاصل بين الطرفين.

رأىٰ أمير الصرب (جورج برنكوفتش) عجزه، فعقد معاهدةً مع السلطان تقضي بدفع جزيةٍ سنويةٍ قدرها خمسون ألف دوك ذهبي، وأن يُقدّم فرقةً من جنوده لمساعدة السلطان في حروبه، وأن يقطع علاقاته مع ملك المجر، وأن يتنازل عن بعض المواقع للعثمانيين، كما تزوج السلطان ابنة (جورج برنكوفتش) مارا.

استعاد السلطان مراد الثاني سنة ٨٣٣هـ مدينة (سلانيك) من البندقية، وكان إمبراطور القسطنطينية قد تنازل عنها لهم، وقد حاصرها السلطان خمسة عشر يوماً.

اعترف أمير الأفلاق سنة ٨٣٦هـ بسيادة العثمانيين علىٰ بلاده.

وخضعت ألبانيا للسلطان بعد حروبٍ بسيطةٍ، واشترط أميرها عدم التعرّض لعقائد السكان، وسلّم أولاده الأربعة رهينةً للسلطان، وعندما توفي هذا الأمير سنة ٨٣٤هـ، ضمّ السلطان أملاكه إليه.

ظنّ السلطان مراد أن وضعه في أوربا قد استقرّ، وأن إمبراطور القسطنطينية لم يبق له سند لا في الأناضول ولا في أوربا، وبإمكانه الآن التوجّه إليه وإلزامه علىٰ الاستسلام ودخول القسطنطينية عسىٰ أن يكون مغفوراً له، كما بَشَّر بذلك رسول الله ﷺ، وما أن بدأ يستعدّ لمهمته حتىٰ عاد حكام منطقة أوربا المتعاقدين معه علىٰ نقض العهد وإعلان العصيان.

لقد حرّض ملك المجر أمير الأفلاق وأمير الصرب فثارا فأدّبهما السلطان، وسار إلىٰ ملك المجر فخرّب عدداً من المدن، ورجع بعدها بعددٍ عظيم من الأسرىٰ.

عاد أمير الصرب (جورج برنكوفتش) فثار فهاجمه السلطان وفتح جزءاً من بلاد الصرب، وحاصر العاصمة (بلغراد) ستة أشهر، وغادرها أميرها متوجهاً إلىٰ ملك المجر، ثم فكّ السلطان الحصار وأرسل جيشه للهجوم

علىٰ (ترانسلفانيا)[1] من أملاك المجر، غير أن جيش السطان قد هُزم، وقُتل قائده مع عشرين ألفاً من الجند، وانسحب العثمانيون إلىٰ ما بعد نهر الدانوب. فأرسل السلطان جيشاً آخر قوامه ثمانون ألفاً غير أنه هُزم أيضاً، وأُسر قائده وذلك سنة ٨٤٥هـ. وسار الجيش المجري بعد ذلك إلىٰ بلاد الصرب، فالتقىٰ سنة ٨٤٦هـ بالسلطان مراد الثاني نفسه فنشبت بين الفريقين ثلاث معارك هُزم السلطان فيها كلها، واضطر إلىٰ توقيع معاهدةٍ تنازل فيها السلطان عن الأفلاق للمجر، كما ردّ للصرب بعض المواقع، وقامت بين الطرفين هدنة مدتها عشر سنواتٍ.

شعر السلطان بالتعب، فرأىٰ أن يخلد إلىٰ الراحة فترك الحكم لابنه الثاني محمد الذي لم يبلغ من العمر الرابعة عشرة، وسافر السلطان إلىٰ غربي الأناضول في ولاية آيدين حيث الهدوء. (كان الابن الأكبر للسلطان مراد الثاني يسمىٰ علاء الدين، وقد توفي سنة ٨٤٨هـ قبيل اعتزال أبيه السلطة، وربما كانت هذه الوفاة سبباً في اعتزال الوالد).

---

(١) تقع ترانسلفانيا شمال الأفلاق وإلىٰ الغرب من البغدان، وتشكل اليوم الجزء الغربي من دولة رومانيا.

كان البابا يراقب الأحداث، وقد سرّ كثيراً بهزيمة السلطان وخاصةً أنه كان قد اشترك في القتال مع المجريين عدد من الصليبيين من بولنده، وفرنسا، وألمانيا، وجنوه، والبندقية إضافةً إلىٰ الصرب والأفلاق وغيرهم، وأثارت البابا تلك الهدنة التي وقّعها السلطان مع المجريين لمدة عشر سنواتٍ لذا فقد أرسل البابا مندوباً من قبله وهو (سيزاريني) إلىٰ ملك المجر يطلب منه نقض العهد، ويقول له: ليس في هذا النقض شيء من الناحية الدينية، إذ ليس مع الكفار المسلمين نقض لعهدٍ أو حنث بقَسَم.

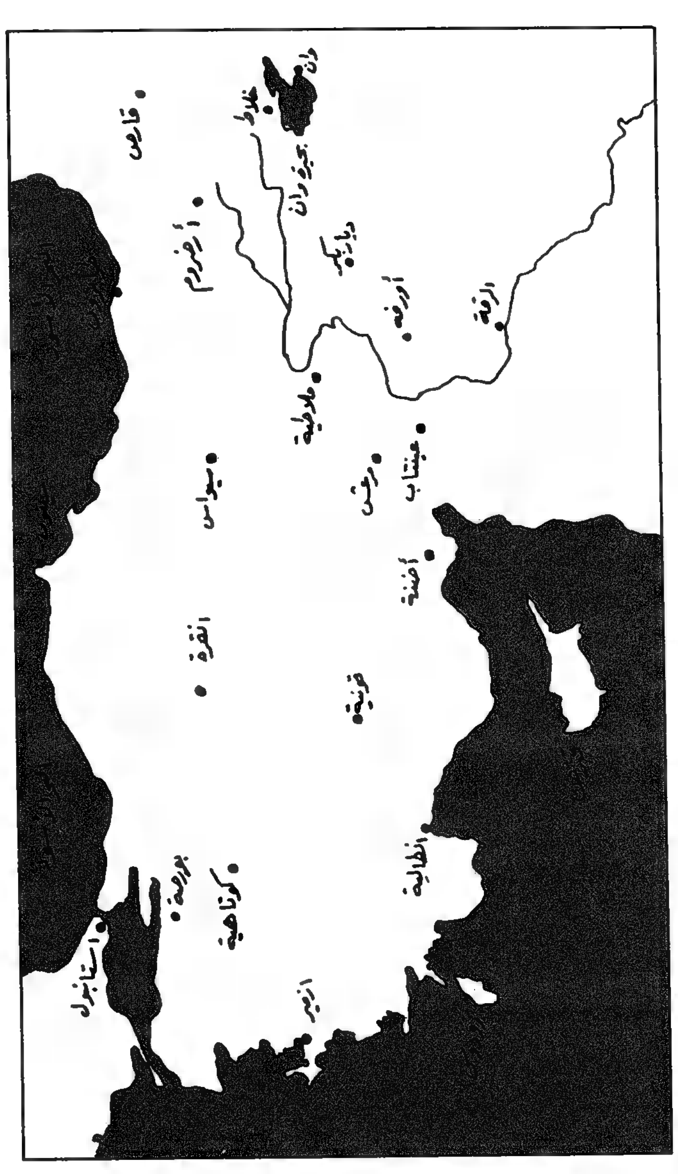
وتنادىٰ ملوك النصارىٰ لشنّ حملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ، فجمعوا جموعهم وهاجموا بلاد البلغار التي تتبع العثمانيين، وشدّ من عزيمتهم أن السلطان كان في ولاية آيدين معتزلاً في مدينة (مغنيسيا)، وأن طفله لم يتمرّس بعد علىٰ القتال، فوصل الخبر إلىٰ السلطان فغادر مكانه، واتجه إلىٰ أوربا، فقاد الجيش وسار نحو الأعداء فوجدهم يحاصرون مدينة «فارنا» البلغارية الواقعة علىٰ ساحل البحر الأسود فنازلهم، وقُتل ملك المجر في ساحة المعركة فاختل ترابط الجند، فهاجم السلطان معسكر الأعداء، واحتلّه، وقتل الكاردينال (سيزاريني) مندوب البابا، وتمّ النصر للمسلمين في ٢٨

رجب سنة ٨٤٨هـ. وعاد السلطان فترك الأمر إلىٰ ابنه محمد، ورجع هو إلىٰ (مغنيسيا).

لم تطل إقامة السلطان أكثر من ثلاثة أشهرٍ في (مغنيسيا) إذ اضطر للعودة إلىٰ أدرنة قاعدة الدولة العثمانية، لأن قادة الجيش العثماني من الانكشارية قد استصغروا السلطان محمداً فعصوا أمره واعتدوا علىٰ المدينة ونهبوها، ووصل السلطان الأب فأدّب القادة وأشغلهم بالقتال في بلاد اليونان، وذلك أن إمبراطور القسطنطينية قد قسّم أملاكه بين أولاده فأعطىٰ ابنه (حنّا) مدينة القسطنطينية، وابنه قسطنطين بلاد الموره أي جنوبي اليونان، فسار السلطان لحرب اليونان، واستعمل المدافع لأول مرةٍ، ولم يتمكّن من فتحها بسبب تمرّد اسكندر بك.

كان اسكندر أحد أبناء أمير ألبانيا الذين عاشوا رهينةً عند السلطان مراد عندما تسلّم البلاد، فأظهر اسكندر الإسلام، ولما وجد أن السلطان مشغول بالحروب فرّ اسكندر إلىٰ ألبانيا، وطرد العثمانيين منها فسار السلطان إليه بقوةٍ كبيرةٍ، وهزمه وأخذ منه بعض المواقع سنة ٨٥١هـ، ثم تركه عندما اضطر للتوجّه لقتال الجيش المجري الذي أراد أن يثأر لمعركة فارنا، والتقىٰ به في وادي كوسوفو، وانتصر عليه انتصاراً

مؤزراً سنة ٨٥٢هـ، ثم عاد فاتجه إلىٰ اسكندر بك، وحاصر مدينة (آق حصار)، ولكن لم يتمكّن من فتحها لتعب عسكره، فأراد أن يتفق مع اسكندر بك إذ يُسلّمه حكم ألبانيا مقابل جزيةٍ سنويةٍ يدفعها غير أن اسكندر بك لم يقبل، واضطر السلطان أن يعود إلىٰ قاعدة ملكه (أدرنة) ليستعدّ للقتال بصورةٍ أفضل، وبينما هو كذلك إذ وافته المنية في مطلع سنة ٨٥٥هـ (٥ المحرم) عن عمرٍ يناهز التاسعة والأربعين سنةً، ونُقلت جثته إلىٰ مدينة بورصة حيث دُفن هناك، وتسلّم السلطنة ابنه محمد باسم محمد الثاني، وهو الفاتح.



قارص
خلاط
وان
بحيرة وان
أرضروم
ديار بكر
أورفه
الرقة
ملطية
سيواس
مرعش
عينتاب
أضنة
أنقرة
قونية
أنطالية
بروصة
كوتاهية
أزمير
استانبول

مصور رقم (٢)

- ٧ -
محمد بن مراد الثاني
محمد الثاني «الفاتح»
(٨٥٥ ــ ٨٨٦هـ)

ولد محمد الفاتح سنة ٨٣٣هـ، وتولّىٰ السلطنة سنة ٨٥٥هـ، فكان عمره يومذاك اثنتين وعشرين سنةً، وأراد أن يُتمّ ما أراده أبوه. وكان أول عملٍ قام به أن أرجع زوجة أبيه الأميرة الصربية (مارا) إلىٰ أبيها، ذلك أنه شعر بأثر النساء غير المسلمات في بيوت المسؤولين المسلمين والحرب دائرة بين المسلمين وبين أهل ملّة تلك النساء، إذ كان كيد الأعداء أن تكون تلك النساء عيوناً لأهل ملّتها.

بنىٰ السلطان محمد الفاتح قلعةً علىٰ مضيق البوسفور علىٰ الشاطئ الأوربي، مقابل القلعة التي بناها السلطان بايزيد الأول علىٰ الشاطئ الآسيوي كي يتحكّم بالمضيق، ويمنع وصول الإمدادات إلىٰ القسطنطينية من مملكة طرابزون علىٰ ساحل البحر الأسود شمال شرقي الأناضول.

رأىٰ إمبراطور بيزنطة قسطنطين أن محمد الثاني عازم علىٰ دخول القسطنطينية؛ فعرض عليه دفع الجزية التي يريد فرفض السلطان، ورأىٰ قسطنطين أن يتزوج بأرملة السلطان مراد الثاني أم السلطان محمد وكانت لا تزال علىٰ نصرانيتها؛ فرفضت واعتكفت في بعض الأديرة. وبدأ الإمبراطور يستنجد بالدول النصرانية، فأرسل البابا ثلاثين سفينةً حربيةً لكنها هربت من القرن الذهبي. وطلب الإمبراطور النجدة من الروس لكنهم لم يكونوا أصحاب قوةٍ آنذاك، وتظاهر الجَنَويّون في موقع غلطة[1] أنهم علىٰ الحياد، ثم جاءه دعم من جنوه، وكان الدعم عبارة عن قوةٍ بحريةٍ كبيرةٍ بقيادة (جوستنيان)، وقد اصطدمت هذه القوة البحرية بالسفن العثمانية التي حاولت منعها، وانتصر الجنويون، وتمكّنوا من دخول القرن الذهبي حيث رُفعت لهم السلاسل التي تسدّ المدخل، وأُغلقت في وجه السفن العثمانية.

---

(١) غلطة: موقع عند التقاء مضيق البوسفور مع القرن الذهبي، وقد قُدّم مكافأة من الروم لأهل جنوه، كما قدم لهم غيره مثل (أزمير) في الأناضول، و(كافا) في شبه جزيرة القرم، حيث كان للجنويين مواقع متفرقة.

عرض السلطان علىٰ الإمبراطور تسليم المدينة كي لا تُصاب بأذىً ولا تحلّ بأهلها النكبات، ويتعهد السلطان بحماية العقائد وإقامة الشعائر فرفض الإمبراطور.

حاصر السلطان المدينة من البر الأوربي (الجهة الغربية) بجنودٍ يزيد عددهم علىٰ مائتين وخمسين ألف مقاتلٍ، ومن جهة البحر بمائةٍ وثمانين سفينةٍ بحريةٍ، وأقام المدافع حول المواقع، ثم استطاع نقل سبعين سفينةٍ بحريةٍ إلىٰ القرن الذهبي علىٰ ألواحٍ خشبيةٍ مسافةً تقرب عن عشرة كيلومترات بعد أن مهّد الطريق، ثم وضع علىٰ الألواح الخشبية الزيوت والشحوم كي تنزلق المراكب عليها، وبهذا أحكم الحصار علىٰ مدينة القسطنطينية، وبدأ الهجوم يوم ١٠ جماديٰ الأولىٰ سنة ٨٥٧هـ، بعد أن شجّع السلطان المهاجمين ومنّاهم بالأعطيات، وانطلق المهاجمون مع الفجر، وتسلّقوا الأسوار، وقتلوا من عارضهم، ودخلوا كنيسة (أياصوفيا)، ودخل السلطان المدينة ظهراً فمنع أعمال السلب التي كانت قائمةً، ووصل إلىٰ كنيسة أياصوفيا فأمر أن يُؤذّن للصلاة، وقد تحوّلت بعدها إلىٰ مسجدٍ، وسمح للنصارىٰ بإقامة شعائرهم دون معارضةٍ، وأعطاهم نصف كنائسهم، وحتىٰ حق اختيار بطريرك

لهم، وحوّل نصف الكنائس الأخرىٰ إلىٰ مساجد. وبعد أن أقام العدل عاد النصارىٰ الخائفين الذين كانوا يريدون الفرار إلىٰ بلادٍ نصرانيةٍ، وأطلق علىٰ القسطنطينية اسم إسلامبول (إستانبول) أي مدينة الإسلام.

أراد السلطان الفاتح بعدئذٍ أن يتوجّه إلىٰ بلاد الموره (جنوبي اليونان) لفتحها، فأرسل ملكها وفداً إليه يعرض عليه دفع جزيةٍ سنويةٍ مقدارها اثنا عشر ألف دوكٍ ذهبيٍ.

وصالح أمير الصرب مقابل جزيةٍ سنويةٍ مقدارها ثمانون ألف دوكٍ ذهبيٍ سنة ٨٥٧هـ، ودخل في السنة الثانية (٨٥٨هـ) إلىٰ بلاد الصرب، وحاصر بلغراد، ودافع عنها المجر، ولم يتمكّن العثمانيون من فتحها، ثم سار الصدر الأعظم محمود باشا ففتحها بين ٨٦١ ـ ٨٦٣هـ.

وتمكّن من فتح بلاد الموره سنة ٨٦٣هـ، وفرّ ملكها إلىٰ إيطاليا، كما فتح الجزر التي في بحر إيجه قرب مضيق الدردنيل، وعقد صلحاً مع اسكندر بك أمير ألبانيا.

توجّه السلطان محمد الفاتح سرّاً إلىٰ الأناضول

ففتح ميناء (أماستريس) الذي يتبع جنوه، وأكثر سكانه من التجار، كما دخل ميناء سينوب علىٰ البحر الأسود، واحتلّ مملكة طرابزون دون مقاومةٍ وكانت تتبع القسطنطينية.

سار السلطان محمد الفاتح إلىٰ أوربا لمحاربة أمير الأفلاق لظلمه وتعدّيه علىٰ العثمانيين، فطلب الأمير صلحاً مقابل جزيةٍ سنويةٍ قدرها عشرة آلاف دوك، فوافق السلطان، غير أن هذا الأمير لم يطلب الصلح إلا لتُتاح له الفرصة ليتفق مع ملك المجر لمحاربة العثمانيين. فلما اتفقا وعلم السلطان أرسل إليه رجلين يستوضح الخبر؛ فقتلهما أمير الأفلاق، وسار مغيراً علىٰ أملاك الدولة العثمانية في بلغاريا، فأفسد فيها، واستاق الأسرىٰ، فأرسل إليه السلطان وفداً يطلب منه أن يعيد الأسرىٰ، ويبقىٰ علىٰ صلحه فمثّل بهم شرّ تمثيلٍ، فسار إليه السلطان ففرّ أمير الأفلاق إلىٰ ملك المجر فضمّ السلطان الأفلاق إلىٰ الدولة العثمانية، وعيّن أخا أمير الأفلاق والياً عليها من قبله.

وامتنع أمير البوسنة عن دفع الخراج فسار إليه السلطان وانتصر عليه، وضمّ البوسنة للدولة العثمانية، وحاول ملك المجر مساعدة أهل البوسنة (البوشناق) لكنه هُزم، وأسلم الكثير من البوشناق بعد ذلك.

واصطدم السلطان مع البنادقة الذين يملكون بعض المواقع في بلاد الموره وجزراً كثيرةً في بحر إيجه، وقد هاجم البنادقة بعض المراكز العثمانية ودخلوها، فسار إليهم السلطان ففرّوا من مواقعهم ودخلها العثمانيون. وبعد هدنة سنةٍ عاد البنادقة لغيّهم إذ أرادوا استعادة ما فقدوه، وبدؤوا يُغيرون علىٰ مراكز الدولة؛ فكانت النتيجة أن فقدوا بعض مواقعهم المهمة.

بدأ البابا يدعو إلىٰ حربٍ صليبيةٍ فشجّع ذلك اسكندر بك أمير ألبانيا علىٰ نقض عهده مع السلطان ودعا ملوك أوربا وأمراءها لمساندته، غير أن البابا قد توفي ولم تقم الحرب الصليبية، لكن اسكندر بك نقض العهد وحارب العثمانيين، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين، وتوفي اسكندر بك سنة ٨٧٠هـ.

اتجه السلطان محمد الفاتح إلىٰ الأناضول فضمّ إليه إمارة القرامان نهائياً، إذ اختلف أبناء أميرهم إبراهيم الذي أوصىٰ عند وفاته بالحكم لابنه إسحاق فنازعه إخوته فأيّد السلطان إخوة إسحاق عليه وهزمه، وعيّن مكانه أحد إخوته، فلما رجع السلطان إلىٰ أوربا احتلّ إسحاق مدينة قونية وفرض نفسه، فرجع إليه السلطان وهزمه، وضمّ الإمارة إلىٰ الدولة العثمانية.

وهاجم أوزون حسن أحد خلفاء تيمورلنك شرقي الأناضول، واحتلّ مدينة توقات فأرسل إليه السلطان جيشاً هزمه سنة ٨٧٤هـ، ثم سار إليه السلطان بنفسه علىٰ رأس جيشٍ وأجهز علىٰ ما بقي معه من جنودٍ.

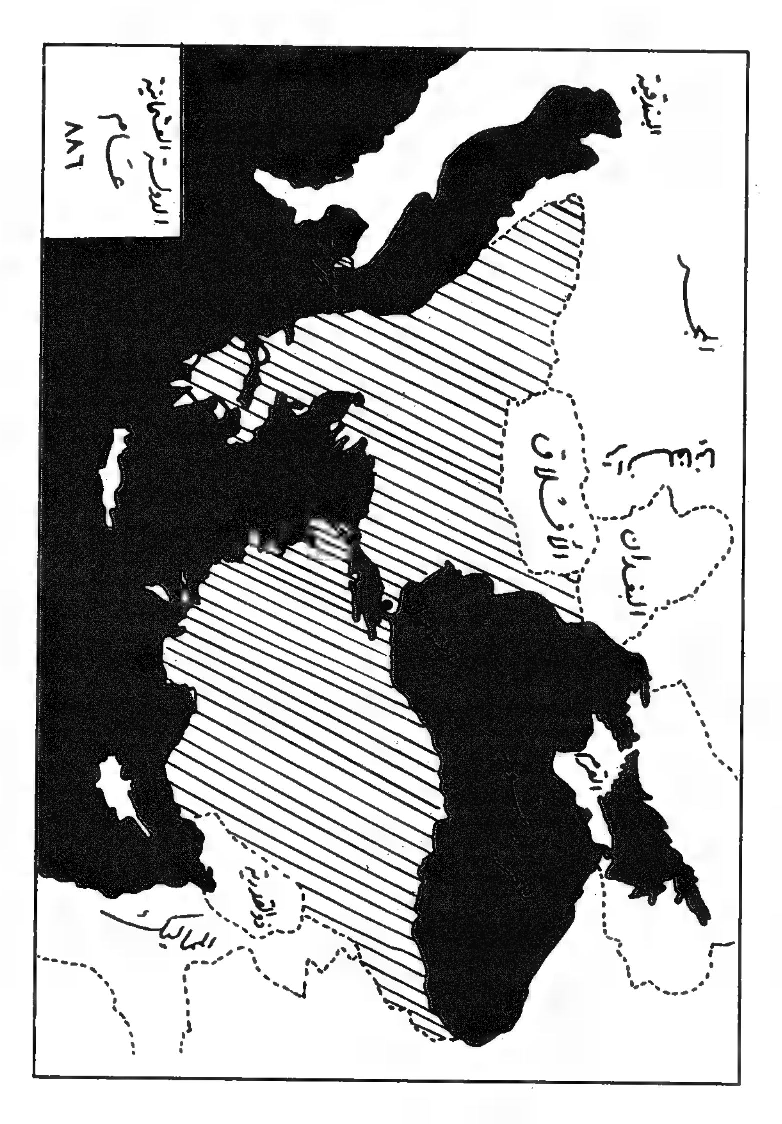
عرض السلطان محمد الفاتح سنة ٨٧٨هـ علىٰ أمير البغدان (اصطفان الرابع) الجزية حتىٰ لا يحاربه، فلم يقبل الأمير فأرسل إليه جيشاً فانتصر عليه بعد حروبٍ عنيفةٍ، ولكن لم يستطع دخول هذا الإقليم فعزم السلطان علىٰ دخول القرم للإفادة من فرسانها في قتال البغدان، وتمكّن السلطان من احتلال أملاك الجنويين الممتدة علىٰ شواطئ شبه جزيرة القرم، ولم يقاوم التتار سكان القرم العثمانيين بل دفعوا لهم مبلغاً من المال سنوياً. وأقلعت السفن الحربية العثمانية من القرم إلىٰ مصب نهر الدانوب فدخلت النهر، وكان السلطان سابقاً يدخل بلاد البغدان براً، فانهزم اصطفان الرابع فتبعه السلطان في طريقٍ مجهولةٍ فانقضّ عليه اصطفان وانهزم السلطان سنة ٨٨١هـ، وارتفع اسم اصطفان الرابع.

وصالح السلطان محمد الفاتح البنادقة، وانهزم أمام المجر عندما سار لفتح ترانسلفانيا، ولكنه فتح الجزر في البحر التي بين إيطاليا واليونان، كما فتح مدينة أوترانت في جنوبي شبه جزيرة إيطاليا سنة

٨٨٥هـ، وحاصر في السنة نفسها جزيرة رودوس، ولكن لم يتمكن من فتحها.

وأثناء حصار مدينة القسطنطينية عُرف ضريح الصحابي أبي أيوب الأنصاري، رضي الله عنه، فبنىٰ عنده مسجداً، وأصبح تنصيب السلاطين يتمّ بهذا المسجد.

توفي السلطان محمد الفاتح يوم ٤ ربيع الأول سنة ٨٨٦هـ عن عمرٍ يناهز ثلاثاً وخمسين سنةً بعد أن حكم إحدىٰ وثلاثين سنةً.



مصور رقم (٣)

- ٨ -

بايزيد بن محمد الفاتح
بايزيد الثاني

(٨٨٦ ــ ٩١٨هـ)

وُلد بايزيد بن محمد الفاتح سنة ٨٥١هـ فكان عمره يوم وفاة أبيه خمساً وثلاثين سنةً، وهو أكبر أبناء أبيه، وكان حاكماً في عهد أبيه لمقاطعة أماسيا. وكان الولد الثاني للسلطان محمد الفاتح يُدعىٰ (جم)، ويحكم مقاطعة القرامان، والأمير بايزيد هو الذي سيتولّىٰ السلطنة بعد أبيه، وكلا الولدين كانا بعيدين عن إستانبول يوم وفاة أبيهما.

كانت رغبة الصدر الأعظم (قرماني محمد باشا) في تولية الأمير جم؛ لذا فقد أرسل إليه من يخبره بوفاة والده كي يأتي وربما استطاع تسلُّم الأمر، غير أن حاكم الأناضول سنان باشا أدرك اللعبة فقتل رسول الصدر الأعظم إلىٰ الأمير جم قبل أن ينقل له الخبر. وكانت رغبة الانكشارية وعاطفتهم مع الأمير بايزيد، فلما علموا بما فعل الصدر الأعظم قاموا عليه وقتلوه ونهبوا المدينة، وأقاموا (كركود بن بايزيد) نائباً عن أبيه إلىٰ أن

يصل أبوه بايزيد إلىٰ عاصمته إستانبول، وذلك في يوم الخامس من شهر ربيه الأول سنة ٨٨٦هـ.

وصل الخبر إلىٰ الأمير بايزيد بوفاة والده يوم ١٣ ربيع الأول سنة ٨٨٦هـ فسافر في اليوم التالي بأربعة آلاف فارسٍ، فوصل إلىٰ إستانبول بعد تسعة أيامٍ إذ كان جادّاً ومسرعاً فاستقبل عند مضيق البوسفور وخاصةً من الانكشارية وقد طلبوا منه العفو عما وقع منهم، كما طلبوا منه عدة طلباتٍ نفّذها لهم كلها، وبويع بايزيد سلطاناً وتسلّم الأمر.

وعندما وصل الخبر إلىٰ الأمير جم بوفاة والده سار إلىٰ مدينة بورصة واحتلّها عنوةً، ودعا أخاه السلطان بايزيد لتقسيم البلاد بينهما فيكون نصيب جم الجزء الآسيوي، ونصيب بايزيد الجزء الأوربي فلم يقبل السلطان بل سار إلىٰ أخيه وقهره بالقرب من مدينة (يني شهر) يوم ٢٣ جمادىٰ الأولىٰ سنة ٨٨٦هـ، وسار السلطان إلىٰ مدينة بورصة ودخلها، وتابع أخاه إلىٰ حدود البلاد التابعة للمماليك، والتجأ الأمير (جم) إلىٰ المماليك فبقي سنةً كاملةً عند السلطان قايتباي في القاهرة، ثم انتقل إلىٰ حلب، وأخذ يراسل الأمير قاسم حفيد أمراء القرامان، ووعده بإعادة إمارة القرامان إن تمكّن الأمير جم أن يحكم الدولة العثمانية، وسارا معاً

للهجوم علىٰ مدينة قونية لكنهما فشلا فشلاً ذريعاً.

حاول الأمير جم المصالحة مع أخيه السلطان بايزيد الثاني علىٰ أن يعطيه مقاطعةً، فرفض ذلك السلطان حيث فهم تقسيم الدولة. وانطلق الأمير جم إلىٰ رهبان جزيرة رودوس فاستقبلوه غير أن السلطان اتصل بهم، وطلب منهم إبقاء الأمير جم عندهم تحت الإقامة الجبرية، مقابل دفع مبلغٍ من المال من السلطان للرهبان وعدم التعرّض للجزيرة ما دام حياً؛ فوافق الرهبان على ذلك، ورفضوا تسليمه إلىٰ ملك المجر، ثم رفضوا تسليمه إلىٰ ملك ألمانيا ليتخذوه سيفاً يقاتلون به الدولة العثمانية، ولكنه سُلّم بعدئذٍ إلىٰ فرنسا ومنها إلىٰ البابا، ثم جاءه الأجل المحتوم سنة ٩٠٠هـ، فاستراح منه السلطان.

حصلت خلافات مع دولة المماليك في مصر التي كان لها نفوذ علىٰ بعض الإمارات في جنوبي الأناضول، ووقع قتال بين الطرفين، غير أن حاكم تونس قد أصلح بينهما خوفاً من زيادة القتال بين المسلمين، علىٰ حين أن النصارىٰ يتربّصون الدوائر بالمسلمين ويُسَّرون للخلافات التي تقع بينهم.

وفشل العثمانيون في فتح بلغراد، وتوطّدت الصلات مع بولونيا سنة ٨٩٥هـ، ثم حدث الخلاف

بينهما إذ كان كل من الجانبين يدّعي الحماية علىٰ البغدان، وقد اعترف أمير البغدان بالحماية العثمانية وقاتل مع العثمانيين البولونيين.

بدأت الدول تتقرّب من الدولة العثمانية وتطلب عقد الحلف معها للإفادة منها في قتال خصومها وخاصةً الإمارات الإيطالية. وقد حارب العثمانيون دولة البندقية، وانتصروا عليها فاستنجدت بالبابا وملك فرنسا وكانت حرباً صليبيةً بين الطرفين. وظهرت دولة روسيا سنة ٨٨٦هـ إذ استطاع دوق موسكو إيفان الثالث أخذ موسكو من أيدي التتار، وبدأ بالتوسّع، وفي سنة ٨٩٧هـ وصل أول سفيرٍ روسي لاستانبول ويحمل معه الهدايا، وكان وصول السفير الثاني سنة ٩٠١هـ، وقد حصل على بعض الامتيازات للتجار الروس.

كان السلطان بايزيد قد عيّن أولاده الثلاثة الذين بقوا علىٰ قيد الحياة علىٰ الولايات، فكان (كركود) والياً علىٰ شرقي الأناضول، و(أحمد) علىٰ أماسيا، و(سليم) علىٰ طرابزون، كما عيّن حفيده سليمان بن سليم علىٰ مدينة (كافا) في شبه جزيرة القرم. كان سليم محارباً طموحاً فأراد أن يكون والياً علىٰ بعض المقاطعات في أوربا ليُمارس الجهاد، ويُؤيّده بذلك الانكشارية والعسكريون عامةً، ولكن السلطان رفض من ابنه ذلك،

كما رفض الولد ولاية طرابزون، وانتقل إلىٰ ابنه سليمان في (كافا)، ثم جمع جيشاً وسار إلىٰ أوربا، وحاول السلطان تهديد ولده الذي أصرّ علىٰ القتال، ثم تراجع السلطان عن قراره وعيّن ابنه سليماً علىٰ بعض المقاطعات الأوربية سنة ٩١٦هـ، فطمع سليم وسار إلىٰ أدرنة وأعلن نفسه سلطاناً عليها، فحاربه أبوه وهزمه ففرّ إلىٰ القرم، ثم تدخلت الانكشارية فعفا السلطان عن ولده وأعاده إلىٰ أوربا.

سار الانكشارية بالأمير سليم إلىٰ إستانبول، وطلبوا من السلطان التنازل للأمير سليم عن الحكم فوافق واستقال سنة ٩١٨هـ، وانتقل السلطان ليعيش بعيداً عن الحكم فتوفي في الطريق. أما الأمير كركود، وهو الولد الكبير للسلطان فقد رأىٰ أخاه سليماً يفرض رأيه، لذا اتجه كركود إلىٰ مقاطعة صاروخان، واستلمها دون أمر أبيه فحاربه أبوه وهزمه قبيل وفاته بقليل.

استقال السلطان بايزيد الثاني يوم ٨ صفر سنة ٩١٨هـ، وبعد عشرين يوماً سافر ليقيم بعيداً عن الحكم في بلدة (ديموتيقا) جنوب أدرنة، فتوفي بالطريق يوم ١٠ ربيع الأول سنة ٩١٨هـ عن عمرٍ يناهز ٦٧ سنةً، وقد دامت سلطنته اثنتين وثلاثين سنةً.

- ٩ -

سليم بن بايزيد الثاني
سليم الأول

(٩١٨ ــ ٩٢٣هـ)

ولد سليم الأول سنة ٨٧٥هـ فكان عمره يوم تولّىٰ السلطنة ثلاثاً وأربعين سنةً.

عيّن السلطان سليم ولده سليمان حاكماً لاستانبول وعمره ثماني عشرة سنةً، وسار هو بجيوشه إلىٰ آسيا الصغرىٰ لمحاربة إخوته وأبنائهم حتىٰ لا يبقىٰ له منازع علىٰ الملك، فتعقّب أخاه أحمد إلىٰ أنقرة ولكن لم يستطع القبض عليه لأن الوزير مصطفىٰ باشا كان علىٰ صلةٍ بالأمير، وينقل له أخبار السلطان، فعلم السلطان بهذا فقبض علىٰ الوزير وقتله. أما الأمير أحمد فقد جمع أعوانه وقاتل عساكر السلطان فانهزم وقُتل بالقرب من مدينة يني شهر يوم ١٧ صفر سنة ٩١٩هـ. ثم سار السلطان إلىٰ ولاية صاروخان وتتبع أخاه الآخر كركود وبعد البحث عنه تمكّن منه وقتله، وذهب إلىٰ مدينة بورصة حيث قبض علىٰ خمسةٍ من أبناء إخوته وأمر

بقتلهم، واطمأن بعد ذلك ـ حسب قناعته ـ من المنافسة العائلية.

انتقل السلطان سليم بعد ذلك إلىٰ مدينة أدرنة فوجد سفراء المجر، والبندقية، وموسكو، وسلطنة مصر ينتظرونه فعقد مع جميعهم هدنةً لمدةٍ طويلةٍ.

رأىٰ السلطان سليم الأول أن دولته أصبحت أقوىٰ الدول الإسلامية فمن الواجب عليه العمل لوحدة أبناء الأمة الإسلامية، ورأىٰ أن الأندلس قد سقطت بأيدي النصرانية ولم تعد هناك فائدة للضغط علىٰ أوربا من جهة الشرق للتخفيف عن المسلمين في الأندلس.

ورأىٰ السلطان أن أوربا لا يمكن مواجهتها إلا بأبناء الأمة الإسلامية جميعهم، لذا فلا بد من جمع المسلمين في دولةٍ واحدةٍ ورفع راية الجهاد.

ورأىٰ السلطان أن البرتغاليين أصبحوا يهدّدون الأمة الإسلامية من ناحية الجنوب، وأن المماليك قد عجزوا عن الوقوف في وجه البرتغاليين.

ورأىٰ السلطان أن هناك من يعمل لتجزئة المسلمين وتفرقة الأمة. فالصفويون قد أظهروا إمكانية التعاون مع البرتغاليين النصارىٰ ضد المسلمين، بل وطلبوا منهم تشكيل حلفٍ ضدّ المسلمين الآخرين من

غير أهل مذهبهم، بل وأخذ هؤلاء الصفويون التحرّش بالعثمانيين من جهة الشرق ويحاولون التوسّع، ودخل الشاه إسماعيل الصفوي منطقة ديار بكر، ونقل عاصمته إلىٰ مدينة تبريز لتكون قريبةً من الدولة العثمانية، وطلب من سلطنة المماليك في مصر التحالف معهم ضد العثمانيين للوقوف في وجه توسّعهم. كما أن الشاه إسماعيل الصفوي قد ساعد الأمير العثماني أحمد ضدّ والده السلطان بايزيد الثاني. وأمام هذه المرئيات وحسب طبيعة السلطان سليم العسكرية رأىٰ أن يحسم الأمور بالعمل العسكري، وقرّر أن يسير نحو الصفويين ليُؤدّبهم ويُبعدهم عن البرتغاليين، ثم يتحالف مع المماليك ليقفوا معاً في وجه البرتغاليين فإن أبىٰ المماليك التفاهم احتلّ بلادهم، ووقف أمام البرتغاليين يعلن الجهاد ضدهم، فالحرب صليبية واضحة يتابع البرتغاليون من خلالها المسلمين بعد أن أخرجوهم من الأندلس، وفي الوقت نفسه يكون العمل لوحدة المسلمين.

خرج السلطان سليم الأول من مدينة أدرنة علىٰ رأس جيشٍ عظيمٍ يوم ٢٢ المحرم سنة ٩٢٠هـ، وكان قد ركّز علىٰ الشيعة الذين يقيمون في شرقي الأناضول وأمر بقتلهم لأنهم سيكونون عيوناً وأعواناً للصفويين،

وتابع تقدّمه نحو مدينة تبريز عاصمة الصفويين، وقد أرادوا خديعته بالتراجع المخطط حتىٰ إذ أُنهك الجيش العثماني انقضّوا عليه، وبقي السلطان في تقدّمة حتىٰ التقىٰ بالجيش الصفوي في (جالديران) جنوب مدينة قارص في شرقي الأناضول، وكانت معركةً عنيفةً بين الطرفين في ٢ رجب سنة ٩٢٠هـ انتصر فيها العثمانيون، وفرّ الشاه إسماعيل الصفوي من الميدان، وبعد عشرة أيامٍ دخل السلطان سليم مدينة تبريز في ١٤ رجب سنة ٩٢٠هـ، واستولىٰ علىٰ الخزائن فيها، ونقلها إلىٰ مدينة إستانبول، وتتبّع الشاه ولكن لم يتمكّن من القبض عليه، وأقبل فصل الشتاء ببرده في تلك المرتفعات واشتدّ الأمر علىٰ الجنود العثمانيين، وبدأ تذمّرهم فترك السلطان المنطقة، وسار نحو مدينة أماسيا حتىٰ انتهىٰ فصل الشتاء فرجع السلطان إلىٰ منطق أذربيجان ففتح بعض القلاع، ثم سار إلىٰ إمارة ذي القادر فدخلها، وترك الجيوش العثمانية تُنفّذ المهمة التي أعطاها لها ورجع هو إلىٰ إستانبول.

فتحت الجيوش العثمانية مدن (أورفه) و(الرقة) و(ماردين) ومنطقة ديار بكر، و(الموصل).

أخذ السلطان سليم يستعدّ لقتال المماليك في مصر الذين تحالفوا مع الصفويين علىٰ العثمانيين،

والذين يختلف معهم بشأن إمارة ذي القادر التي تقع علىٰ الحدود بين الطرفين، والتي قاعدتها مدينة (مرعش).

وشجّع السلطان سليم الأول علىٰ هذه الحرب وجهاء الشام الذين خافوا البرتغاليين، ولم يجدوا في المماليك إمكانيةً علىٰ المقاومة، وظهور العثمانيين كقوةٍ كبيرةٍ اكتسحت أجزاء من أوربا.

لما علم سلطان المماليك قانصوه الغوري الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين استعداد السلطان العثماني لغزو دولة المماليك أخذ يستعدّ للمواجهة.

سار السلطان سليم بجيشه نحو بلاد الشام، واتجه السلطان قانصوه الغوري نحو الأناضول، والتقىٰ الطرفان في مرج دابق شمال غربي مدينة حلب، وكان السلطان العثماني قد اتصل بولاة الشام ومنّاهم، أو التقوا به، وتقرّبوا إليه، وعندما التحم الجيشان يوم ٢٥ رجب سنة ٩٢٢هـ انفصل ولاة الشام بمن معهم عن المماليك وانضمّوا إلىٰ العثمانيين فأحرزوا النصر، وهُزم المماليك رغم ما أبداه السلطان المملوكي قانصوه الغوري من شجاعةٍ، وقد قُتل في المعركة، وعمره ثمانون عاماً، وقد بذل جهداً كبيراً وثبت ثبات الأبطال الشجعان.

دخل السلطان سليم الأول حلب، وحماه، وحمص، ودمشق دون مقاومةٍ بل بالترحيب في أغلب الأحيان لتقدّمهم في أوربا، وضربهم الدولة الصفوية، ورغبتهم الوقوف في وجه البرتغاليين.

تقدّم السلطان سليم الأول بجيشه نحو مصر، وكان نائب السلطان قانصوه الغوري ثم خليفته وهو طومان باي قد استعدّ واتجه للقاء العثمانيين، والتقىٰ الطرفان عند حدود بلاد الشام فهُزم المماليك، ودخل العثمانيون مدينة غزة وتابعوا سيرهم فوقف لهم السلطان طومان باي مع قواته علىٰ أبواب القاهرة، والتقىٰ الطرفان في معركة الريدانية في اليوم الأخير من سنة ٩٢٢هـ، وانطلق طومان باي مع كوكبةٍ من فرسانه إلىٰ مقر السلطان سليم، وقتلوا من حوله، وأسروا الوزير سنان باشا، وقتله السلطان طومان باي بيده ظنّاً منه أنه السلطان سليم، ورغم الشجاعة التي أبداها المماليك، والمقاومة التي أبداها المقاتلون فإن العثمانيين قد انتصروا عليهم لتفوّقهم بالمدفعية، ودخل العثمانيون القاهرة في ٨ محرم سنة ٩٢٣هـ.

وانطلق السلطان طومان باي مع بعض أعوانه وعساكره إلىٰ جهات الجيزة يقاتلون العثمانيين غير أنه سقط بأيديهم، وقُتل في يوم ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ.

بقي السلطان سليم في القاهرة ما يقرب من شهرٍ، حضر الاحتفالات ووزّع خلالها الأُعطيات، وقد تنازل له الخليفة العباسي في القاهرة المتوكل علىٰ الله محمد عن الخلافة، وسلّمه مفاتيح الحرمين الشريفين، كما جاء إليه شريف مكة محمد أبو نمي بن الشريف بركات، وأعلن له الطاعة فأصبح السلطان العثماني منذ ذلك الوقت خليفةً للمسلمين.

السلاطين العثمانيون

١ ـ عثمان بن أرطغرل.	(٦٨٧ ـ ٧٢٦هـ).
٢ ـ أورخان بن عثمان.	(٧٢٦ ـ ٧٦١هـ).
٣ ـ مراد «الأول» بن أورخان.	(٧٦١ ـ ٧٩١هـ).
٤ ـ بايزيد «الأول» بن مراد.	(٧٩١ ـ ٨٠٥هـ).
٥ ـ محمد «الأول» بن بايزيد.	(٨١٦ ـ ٨٢٤هـ).
٦ ـ مراد «الثاني» بن محمد.	(٨٢٤ ـ ٨٥٥هـ).
٧ ـ محمد «الثاني» بن مراد.	(٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ).
٨ ـ بايزيد «الثاني» بن محمد.	(٨٨٦ ـ ٩١٨هـ).
٩ ـ سليم «الأول» بن بايزيد.	(٩١٨ ـ ٩٢٣هـ).

الباب الثاني

الخلفاء العُثمانيّون

- ١ -

سليم بن بايزيد «الثاني»
سليم الأول

(٩٢٣ ـ ٩٢٦هـ)

وُلد سليم بن بايزيد سنة ٨٧٥هـ، وتسلّم السلطنة سنة ٩١٨هـ، وتولّىٰ الخلافة سنة ٩٢٣هـ في مصر، وبعد أن أصبح خليفةً للمسلمين رجع إلىٰ إستانبول قاعدة حكمه عن طريق الشام، واصطحب معه الخليفة العباسي المتنازل له المتوكل علىٰ الله محمد بن يعقوب فوصل إلىٰ دمشق في ٢٠ رمضان سنة ٩٢٣هـ، ومكث فيها إلىٰ ٢٢ صفر سنة ٩٢٤هـ، وقد بنىٰ جامعاً فيها في حيّ الصالحية هو جامع الشيخ محيي الدين بن العربي وأُقيمت أول صلاةٍ فيه في ٢٤ محرم سنة ٩٢٤هـ، ثم مرّ علىٰ حلب فأقام فيها مدة شهرين، ثم ارتحل إلىٰ إستانبول قاعدة ملكه فوصل إليها في ١٧ رجب سنة ٩٢٤هـ، وبعد قضاء عشرة أيامٍ فيها أمضاها بالاستراحة من أتعاب السفر ارتحل بعدها إلى مدينة أدرنة.

وكان ولده الأمير سليمان معيّناً حاكماً لاستانبول

مدة غياب والده، وبعد وصول أبيه بتسعة أيامٍ استأذن الأمير سليمان والده بالسفر إلى ولاية صاروخان المعيّن والياً عليها.

وأثناء إقامة الخليفة بمدينة أدرنة وصل إليه سفير من قبل ملكة إسبانية بشأن زيارة النصارىٰ للقدس التي كانت قبلاً تابعةً لسلطنة مصر، ولما أصبحت تابعةً للدولة العثمانية لا بدّ من أخذ الأمر منكم وما يقابل المبلغ الذي كان يدفع سنوياً للمماليك، فأحسن الخليفة استقبال هذا السفير، وصرّح بقبول الزيارة.

وجاء كذلك للخليفة في أدرنة سفير من قبل جمهورية البندقية ليدفع له خراج سنتين، متأخر الخراج المقرر عليها مقابل بقائها في جزيرة قبرص.

كان الخليفة سليم الأول في هذه المرحلة مشغولاً بتجهيز مراكب بحرية؛ لمعاودة الهجوم علىٰ جزيرة رودوس. وكذلك كان يستعدّ لمحاربة الدولة الصفوية ثانيةً فجمع خمسة عشر ألف فارسٍ في مدينة قيصرية وسط بلاد الأناضول بين أنقرة وملاطية، وضمّ إليه ثلاثين ألف جنديٍ من المشاة تحت قيادة فرحات باشا، وأمدّهم بعددٍ عظيمٍ من المدافع وكمياتٍ كبيرةٍ من الذخائر، لكن عاجله الموت في رحلةٍ له من إستانبول

إلىٰ أدرنة في ٩ شوال ٩٢٦هـ، وعمره الحادية والخمسون. وقد حكم خمس سنواتٍ سلطاناً، وما يقرب من أربع سنواتٍ خليفةً.

وأخفي خبر موته حتىٰ يحضره ولده الأمير سليمان من ولاية صاروخان خوفاً من أن يثور الانكشارية كما هي عادتهم.

ـ ٢ ـ
سليمان بن سليم «الأول»
سليمان القانوني
(٩٢٦ ــ ٩٧٤هـ)

ولد سليمان بن سليم الأول في غرّة شهر شعبان سنة ٩٠٠هـ.

وما أن وصل إليه خبر وفاة أبيه حتىٰ قام قاصداً إستانبول فوصل إليها ودخلها يوم ١٦ شوال سنة ٩٢٦هـ، وكان بانتظاره جنود الانكشارية فقابلوه بالتهليل وطلب الهدايا التي اعتادوا أخذها عند تولية كل ملكٍ.

بعد ظهر اليوم الذي وصل فيه إلىٰ إستانبول حضر (بير محمد باشا) من أدرنة يخبره عن وصول جثة والده الخليفة سليم الأول في اليوم التالي.

وفي صبيحة يوم ١٧ شوال وفد الأعيان للتعزية بوفاة الوالد والتهنئة بالخلافة، ووصلت جثة الخليفة المتوفّىٰ بعد الظهر، وأُبلغت الولاة وأشراف مكة والمدينة بتولية سليمان بن سليم الخلافة ومعها خطابات كلها نصائح للقيام بالعدل والبُعد عن الظلم.

تمرّد دمشق:

لما وصل خبر تولية الأمير سليمان الخلافة إلىٰ دمشق وكان حاكمها جانبرد الغزالي، وهو أحد الذين كانوا من رجال السلطان المملوكي قانصوه الغوري وقد تخلّوا عنه عند لقائه مع السلطان سليم العثماني في مرج دابق، وقد ولّاه السلطان سليم بعد انتصاره وأخذه الخلافة ولاية دمشق، فلما بلغه تولّي سليمان الخلافة أعلن العصيان، واستولىٰ علىٰ قلعة دمشق، وأرسل أحد أتباعه للاستيلاء علىٰ بيروت، وبذل جهده لاستمالة (خاير بك) العامل علىٰ مصر، وقد كان هو أيضاً من رجال السلطان قانصوه الغوري تخلّىٰ عنه في مرج دابق، وقد ولّاه السلطان سليم العثماني مصر بعد أن فتحها وقضىٰ علىٰ سلطانها وتولّىٰ الخلافة ورجع إلىٰ قاعدة حكمه إستانبول. وقد كتب جانبرد الغزالي إلىٰ خاير بك يحثّه علىٰ العصيان، ويُبيّن له سهولة النجاح نتيجة بعدهم من مقر الخلافة إستانبول وحداثة سنّ الخليفة سليمان إذ لا تزيد علىٰ ستٍ وعشرين سنةً. وقد أجابه خاير بك: إنه لا يشترك إلا إذا استولىٰ علىٰ مدينة حلب التي كان عاملاً عليها من قبل. ولم يكن جوابه إلا مداهنةً وخداعاً إذ أرسل خطابات الغزالي إلىٰ الخليفة ليعرف ما يجري.

أرسل الخليفة أحد وزرائه وهو فرحات باشا علىٰ رأس جيشٍ كافٍ إلىٰ دمشق لقمع التمرّد قبل امتداده، فسار فرحات باشا في أواخر شهر ذي الحجة سنة ٩٢٦هـ فوصل إلىٰ حلب فوجد الغزالي محاصراً لها، فترك الحصار مباشرةً ورجع إلىٰ دمشق وتحصّن فيها، فلحق به فرحات باشا وألقىٰ الحصار علىٰ دمشق يوم ١٧ صفر سنة ٩٢٧هـ، وخرج الغزالي للقاء القادم وقتاله غير أن الغزالي قد هُزم، وقُتل أغلب من كان معه، وفرّ هو متنكّراً، ولكن أحد أتباعه سلّمه إلىٰ فرحات باشا فقتله يوم ٢٨ صفر، وأرسل رأسه إلىٰ إستانبول. وانتهىٰ التمرّد.

فتح بلغراد:

أرسل الخليفة سليمان مبعوثاً إلىٰ ملك المجر يطلب منه دفع الجزية أو يُنذره بالحرب، فقتل ملك المجر مبعوث الخليفة، فلما وصل الخبر إلىٰ الخليفة ثار غضبه، وأمر بتجهيز الجيوش وجمع كل ما يلزم من أسلحةٍ وذخائر لحرب المجر، وسار هو علىٰ رأس الجيش، وبعث أحد قادته وهو أحمد باشا لمحاصرة مدينة شمال بلغراد، خوفاً من أن يخرج منها دعم لبلغراد وقت الحاجة. فتمكّن أحمد باشا من فتح تلك

المدينة في ٢ شعبان سنة ٩٢٧هـ، ووصل إليها الخليفة باليوم التالي، فقاد الجيش الذي دخل المدينة وسار به إلىٰ دعم محمد باشا الذي يحاصر مدينة بلغراد، وتمكّنوا من دخول بلغراد بعد دفاعٍ شديدٍ، وانسحبت الجنود من قلعتها في ٢٥ رمضان سنة ٩٢٧هـ، ودخلها الخليفة وصلّىٰ الجمعة في إحدىٰ كنائسها التي حُوّلت إلىٰ جامعٍ، ثم عاد إلىٰ إستانبول.

فتح جزيرة رودوس:

استغلّ الخليفة اشتغال أوربا ببعض قضايا دولها فلا تستطيع دعم رهبان جزيرة رودوس الذين يسيطرون عليها، فأرسل القوات التي تمكّنت من دخول الجزيرة في ٢ صفر سنة ٩٢٩هـ، وخرجت قوات الرهبان من هذه الجزيرة إلىٰ جزيرة مالطة.

وكان الخليفة قبل غزو الجزيرة قد أرسل كتاباً إلىٰ رئيس الرهبان يطلب منه إخلاء الجزيرة، والانسحاب منها بمن معه من النصارىٰ جميعاً الذين يؤثرون الخروج، ويتعهد الخليفة بعدم التعرّض لأحدٍ من السكان ولا لأموالهم، فلم يقبل رئيس الرهبان. فأمر الخليفة عندئذٍ العمارة البحرية بالحركة نحو رودوس، وانتقل هو بمن معه، وأمر بنقل المدافع والمؤن

والذخائر، وما أن وصل حتىٰ بدأ الحصار بشدةٍ، ودافع الذين بها دفاع الأبطال، حتىٰ كانت النساء تساعد الرجال بإلقاء الأحجار علىٰ المحاصرين وصبّ الزيوت الحارة علىٰ رؤوسهم، ولكن لم يُجدِ ذلك شيئاً أمام المدافع العثمانية.

نفذت مؤن المدافعين وذخائرهم، فأرسل رئيس الرهبان (فيليب ليسل آدم) وهو من أصلٍ فرنسي إلىٰ الخليفة يطلب منه السماح لهم بإخلاء الجزيرة، في مدة اثني عشر يوماً بشرط أن تبتعد الجيوش العثمانية عن المدينة المحصورة مسافة ميلٍ من الجهات كلها، حتىٰ لا يحصل ضرر للمحاصرين في المدينة عند خروجهم، وكان ذلك في ٢ من شهر صفر سنة ٩٢٩هـ فوافق الخليفة علىٰ ذلك، غير أن فريقاً من الانكشارية قد دخل المدينة في يوم ٥ صفر مخالفين أوامر الخليفة واحتلّوا المدينة، وقاموا ببعض المفاسد فغضب الخليفة وأصدر أوامره بمراعاة شروط التسليم، وعاقب المفسدين فعاد الأمن، وفي ١٣ صفر سنة ٩٢٩هـ ارتحل الرهبان وفرسانهم عن هذه الجزيرة إلىٰ جزيرة مالطة، وبقوا فيها حتىٰ احتلّها نابليون بونابرت عند قدومه إلىٰ مصر سنة ١٢١٣هـ مستعمراً، وعاد الخليفة بعد ذلك إلىٰ إستانبول.

ضمّ شبه جزيرة القرم إلىٰ دولة الخلافة:

كان يحكم شبه جزيرة القرم فرع من قبيلة المغول الذهبية، وقد دخلت هذه القبيلة بالإسلام منذ سنة ٦٥٠هـ، وعُرفوا في شبه جزيرة القرم باسم تتار القرم، ويقع شبه هذه الجزيرة في شمال البحر الأسود فهو من أرض أوكرانيا الروسية، ويفصل البحر الأسود بينها وبين الأرض التركية.

حدثت فتن في بلاد القرم سنة ٩٢٩هـ وذلك أن (غازي) و(بابا) ولدي خان القرم (محمد كراي) قد ثارا علىٰ والدهما وعمّهما فقتلاهما، وتقلّد أكبرهما وهو غازي الإمارة، وجعل أخاه وزيراً له، ولكن الخليفة لم يقبل ذلك بل عيّن عمّهما الآخر (سعادة كراي) خاناً للقرم مكان أخيه (محمد كراي) المقتول، وأمدّه بجيشٍ من الانكشارية فأظهر غازي الموافقة، وصار هو وزيراً لعمّه. وبعد ذلك بستة أشهرٍ قُتل غازي وأخوه بابا بأمرٍ من عمهم (سعادة كراي).

قام (إسلام كراي) أخو (غازي) و(بابا) بالاستيلاء علىٰ الإمارة سنة ٩٣٨هـ، ففر (سعادة كراي) إلىٰ إستانبول وبقي فيها حتىٰ توفي سنة ٩٤٤هـ، وما كان من الخلافة العثمانية إلا أن ضمّت شبه جزيرة القرم إليها سنة ٩٣٩هـ.

ولاية الأفلاق:

كانت للدولة العثمانية السيادة علىٰ ولاية الأفلاق وأخذ الجزية منها. فأراد الخليفة سليمان أن يجعلها ولايةً عثمانيةً، فسيّر إليها جيشاً استولىٰ علىٰ عاصمتها، وألقىٰ القبض علىٰ أميرها وأرسله إلىٰ مدينة إستانبول، فثار الأعيان في العاصمة واختاروا أحدهم وعيّنوه أميراً مكان الأمير السابق، وساعدهم علىٰ ذلك أمير إقليم ترانسلفانيا، فقبل الخليفة الأمير الذي عيّنوه مقابلة زيادةٍ في الجزية عما كانت عليه.

التحالف بين العثمانيين وفرنسا:

رغب ملك فرنسا بالتحالف مع الدولة العثمانية؛ لتُحارب المجر التابعة لملك النمسا (شارلكان) الذي تُحيط أملاكه بفرنسا من كل جهةٍ. إذ كانت تتبعه إسبانيا وهولندا وكان إمبراطوراً لألمانيا وحاكماً لجزءٍ كبيرٍ من إيطاليا الجنوبية، وكانت إمارتا (جنوه) و(فلورنسا) الإيطاليتين تابعتين له، وإمارة (البندقية) الإيطالية طوع أمره، ومدينة (وهران) الجزائرية تابعةً له، وجزيرة (صقلية) وجزيرة (مينورقة) إحدىٰ جزر البالئار تتبعه أيضاً، لذلك سعىٰ (فرنسيس الأول) ملك فرنسا بالتحالف مع الدولة العثمانية والاتفاق معها علىٰ محاربة

شارلكان. إذ تتقدم الدولة العثمانية من جهة المجر والنمسا فتُشغله عن جيوش فرنسا من جهة الغرب، فيتمكّن ملك فرنسا بذلك بثأر موقعة (بافيا) في الشمال الغربي من إيطاليا وتقع جنوب مدينة (ميلانو) التي أُخذ فيها فرانسيس الأول أسيراً.

لم يصل أول سفيرٍ من فرنسا إلىٰ إستانبول، وكانت قد أرسلته الملكة (لويز) زوجة ملك فرنسا (فرنسيس الأول) إذ قبض عليه حاكم البوسنة أثناء مروره قاصداً إستانبول، وقتله هو وأتباعه، فأُرسل سفير آخر وهو (جان فرنجياني) ووصل إلىٰ إستانبول ومعه رسالة من ملك فرنسا إلىٰ الخليفة يطلب منه بكل تواضعٍ أن يُهاجم ملك المجر، أحد حلفاء شارلكان ملك النمسا حتىٰ يمنعه من مساعدته، ويمكن لفرنسا بذلك أن تنتصر علىٰ شارلكان وتستردّ ما سلبه منها.

قابل الخليفة سليمان مبعوث ملك فرنسا باحتفالٍ زائدٍ، وأجزل له العطايا، وبعد أن عرض المبعوث مطالب ملكه وعده الخليفة بمحاربة المجر، ولكن لم تُوقّع بينهما معاهدة بل اكتفىٰ الخليفة بأن كتب لملك فرنسا جواباً يُظهر له فيه استعداده لمساعدته، وذلك بتاريخ أول ربيع الثاني سنة ٩٣٢هـ.

سار الخليفة علىٰ رأس مائة ألف مقاتلٍ إضافةً إلىٰ ثمانمائة سفينةٍ انطلقت في نهر الدانوب، وقد جعل قاعدته مدينة (بلغراد) عاصمة الصرب وفتح عدة قلاع علىٰ نهر الدانوب، وفي يوم ٢١ ذي القعدة سنة ٩٣٢هـ اقتربوا من العدو فاصطفت الجنود العثمانية علىٰ ثلاثة صفوفٍ، وكان الخليفة ومعه عساكر الانكشارية والمدفعية في الصف الثالث، وقد هجم فرسان المجر تحت قيادة ملكهم (لويس) علىٰ صف العساكر العثمانية الأول، فتقهقر أمامهم العثمانيون إلىٰ خلف المدافع، فلما وصلت فرسان المجر إلىٰ قرب المدافع أمر الخليفة بإطلاق المدفعية عليهم، فأطلقت تباعاً وتوالىٰ إطلاقها بسرعةٍ أوقعت الرعب في قلوب المجريين، فأخذوا بالتقهقر وتبعتهم العساكر العثمانية حتىٰ قُتل أغلب فرسان المجر، وقُتل ملكهم (لويس)، ولم يُعثر علىٰ جُثّته، وانتصر العثمانيون، وقد أضاعت هذه الوقعة استقلال المجر جميعها لعدم وجود جيش آخر يقاوم مسير العثمانيين، ولحصول الفوضىٰ في البلاد بسبب موت الملك، ولذلك أرسل أهالي مدينة (بودا) العاصمة مفاتيح مدينتهم إلىٰ الخليفة فاستلمها وسار إلىٰ (بودا) فدخلها في الثالث من شهر ذي الحجة سنة ٩٣٢هـ، وجمع أعيان البلد، وعيّن عليهم أمير تراسلفانيا (جان

زابولي) ملكاً عليهم، وبعد أن انتظم أمر البلاد رجع الخليفة إلىٰ قاعدة حكمه إستانبول فوصل إليها في ١٧ صفر سنة ٩٣٣هـ، وكان قد مرّ في طريقه علىٰ مدينة (أدرنة) وأقام فيها أسبوعاً كاملاً.

ادّعىٰ ملك النمسا (فرديناند) وهو أخو الملك السابق (شارلكان) أحقيته بملك المجر، بسبب قرابته مع الملك (لويس) الذي قُتل فسار إليها، ودخل عاصمتها (بودا) وهزم ملكها (جان زابولي) الذي أرسل إلىٰ الخليفة سليمان القانوني يستنجده علىٰ مُنازعه الملك، ووصل مبعوثه إلىٰ الخليفة فوعده بمساعدته وأُمضيت معاهدة بذلك، وبناءً علىٰ ذلك أصدر الخليفة الأوامر إلىٰ الجهات كلها بالاستعداد للحرب وجمع الجيوش والذخائر، وعيّن وزيره الأول إبراهيم باشا قائداً عاماً للقوات. وسار الخليفة سنة ٩٣٥هـ لمحاربة المجر بجيشٍ قوامه مائتان وخمسون ألف مقاتلٍ مع ثلاثمائة مدفعٍ، ووصل إلىٰ مدينة (فيليبه) ومنها إلىٰ مدينة (موهاكس) حيث أتىٰ (جان زابولي) لمقابلة الخليفة فقابله في ١٦ ذي الحجة سنة ٩٣٦هـ، وبعد أن مكث (جان زابولي) وقتاً قليلاً أذن له الخليفة بالانصراف بعد أن أعطاه ثلاثةً من الخيول وبعض الأُعطيات ذات القيمة.

سار الخليفة بعد ذلك إلىٰ مدينة (بودا) عاصمة المجر، وكان فيها ملك النمسا (فرديناند) مُحتلّاً لها ففرّ منها واتجه نحو (فيينا) عاصمة النمسا، وتبعه الخليفة وألقىٰ الحصار علىٰ مدينة فيينا وأمر بالهجوم عليها في ٢٠ صفر سنة ٩٣٧هـ، وقد أحدث عدة ثغراتٍ بالأسوار، ولكن لم يقوَ علىٰ اقتحامها حيث نفذت ذخيرة المدفعية، وداهمه فصل الشتاء الشديد البرد فقرر فكّ الحصار والعودة في هذه السنة، وإعداد الجيوش لمعاودة الكرّة عليها في أقرب وقتٍ ممكنٍ.

وسار الخليفة إلىٰ مدينة (بودا) عاصمة المجر، وألقىٰ الحصار عليها، واشتدّ الأمر علىٰ حاميتها، فطلب قائد الحامية النمساوية بمدينة (بودا) تسليم المدينة وقلاعها؛ إذا وعدهم الخليفة بالسماح لهم بالخروج دون التعرّض لحياتهم، ولما أجابهم الخليفة إلىٰ ذلك أخلوا المدينة وعند خروجهم منها انقضّ عليهم الانكشارية وقتلوا أغلبهم غير ملتزمين بأوامر قادتهم.

أعاد الخليفة إلىٰ مُلك المجر (جان زابولي) وأرسل أحد قادة الانكشارية ليرافق (جان زابولي) إلى القصر الملكي ويُقلّده تاج الملك.

وبعد أن أعاد الخليفة إلى ملك المجر (جان زابولي) قام الخليفة قاصداً غزو مدينة (فيينا) بجيوشه ومستصحباً معه (جان زابولي)، تاركاً في مدينة (بودا) حاميةً عثمانية بقيادة أحد ضباط الانكشارية لحفظ الأمن فيها وتوطيده في جميع أنحائها إلىٰ أن يعود الملك (جان زابولي) إليها.

سار الخليفة إلىٰ مدينة (فيينا)، وألقىٰ الحصار عليها، ووجّه مدافعه علىٰ أسوارها فهدّم جزءاً منها، وجعل ثلمةً فيها وصارت تتوسّع حتىٰ صار يمكن دخول العساكر منها والهجوم بكل سهولةٍ، ثم أمر الجنود بالهجوم فاندفعوا كالأسود، واستمرّ القتال طوال اليوم ولم يستطع العثمانيون دخول المدينة، وقرّر الخليفة العودة ومرّ في طريق عودته علىٰ مدينة (بودا) عاصمة المجر، وبعد أن ودّع ملكها (جان زابولي) رجع إلىٰ إستانبول عن طريق بلغراد.

أرسل ملك النمسا جيشاً لمحاصرة (بودا) عاصمة المجر، واستخلاصها من يد (جان زابولي) ملك المجر من قبل العثمانيين وحليفهم، ولكن وقفت الحامية الإسلامية المعسكرة فيها بقوةٍ وصدّت النمساويين فرجعوا إلىٰ بلادهم خائبين.

سار الخليفة سليمان القانوني في ١٩ رمضان سنة ٩٣٨هـ من إستانبول قاصداً مدينة (فيينا) عاصمة النمسا في سبيل دخولها ومحو ما لحقه من الفشل في المرة الأولىٰ. ورفض الخليفة ما عرضه ملك النمسا من الصلح. ووصل الخليفة إلىٰ مدينة (نيش) في بلاد الصرب قرب الحدود البلغارية فوجد سفراء لملك النمسا فقابلهم دون مبالاةٍ، وتابع سيره فوجد في مدينة (بلغراد) سفيراً لملك فرنسا فقابله في مطلع شهر ذي الحجة سنة ٩٣٨هـ مقابلةً فيها تقدير واحترام، ورجع السفير لملكه يحمل خطاباً يُؤكّد فيه الخليفة اتحادهما علىٰ محاربة ملك النمسا (شارلكان)، ووعده بإمداده بالعمارة العثمانية (الباخرة الحربية) إذا مسّت الحاجة. وتابع الخليفة سيره بجيوشه التي يبلغ عدد جنودها مائتي ألف مقاتلٍ، وانضمّ إليهم بعد مغادرة مدينة (بلغراد) خمسة عشر ألف فارسٍ من تتار القرم بقيادة (صاحب كراي) أخي خان القرم، وأثناء المسير نحو (فيينا) فتح الجيش العثماني عدة قلاعٍ وحصونٍ دون مقاومةٍ تُذكر إلا ما كان من دفاع مدينة (جانز) رغم قلة حاميتها، وقد سلّم قائدها القلعة في ٢٦ محرم سنة ٩٣٩هـ بشرط عدم دخول الجنود العثمانيين المدينة، فقبل الخليفة هذا الشرط تقديراً للدفاع المستميت الذي أبدته حامية المدينة.

تابع الجيش العثماني سيره بقيادة الخليفة ببطءٍ نحو مدينة (فيينا)، ولما اقترب منها مال إلىٰ الشِّمال قاصداً إقليم (إيستريا)، ومنه رجع إلىٰ مدينة (بلغراد) ثانيةً دون أن يُحاصر فيينا؛ لِما بلغه من استعداد الملك (شارلكان) للدفاع عنها وجاءته قوات داعمة من ألمانيا وإسبانيا وغيرهما، إضافةً إلىٰ عدم وجود مدافع حصارٍ معه، كما أن فصل الشتاء قد أقبل ببرده الشديد، وهذا ما جعل الخليفة يعود من الطريق قبل وصوله إلىٰ مدينة (فيينا).

ولما وصل الخليفة في طريق عودته إلىٰ مدينة (فيليبه) عيّن (صاحب كراي) التتري خاناً[1] لبلاد القرم مكان أخيه (سعادة كراي)، وذلك مكافأةً له علىٰ خدماته في تلك الحملة، ورتّب لأخيه (سعادة كراي) مبلغاً من المال سنوياً يليق بمكانته.

وصل الخليفة عائداً إلىٰ إستانبول في ١٩ ربيع الثاني سنة ٩٣٩هـ، فاحتفلت المدينة وزُيّنت عدة أيامٍ احتفالاً بمقدمه.

القتال في البحر:

أثناء تلك الوقائع التي جرت في البرّ كانت هناك

---

(١) خان: مختصر كلمة خاقان وتعني كبير الترك.

بعض الأحداث وقعت عن طريق البحر، ومنها أن تحرّكت سفن بحرية تتبع ملك النمسا (شارلكان) بإمرة (أندريه دوربا)[1] مع عدة سفنٍ تتبع للبابا، فاحتلّوا ميناء (كورون) وميناء (باتراس) في شبه جزيرة الموره اليونانية، وقتلوا من في الميناءين من الجنود الانكشارية، ودمّروا القلعتين اللتين كان قد أقامهما السلطان العثماني بايزيد الثاني.

الصلح بين الدولة العثمانية والنمسا:

أرسل ملك النمسا فرديناند سنة ٩٣٩هـ سفيراً من قبله يدعىٰ (جيروم دي زار) إلىٰ إستانبول يعرض طلب الصلح علىٰ الخليفة فقابل السفير الصدر الأعظم إبراهيم باشا وتباحث في شروط الصلح. ثم التقىٰ السفير مع الخليفة فرفض الخليفة الصلح، ولكنه قبل المهادنة موقتاً حتىٰ تُسلّم إليه مفاتيح مدينة (غران) التي تقع علىٰ نهر الدانوب إلىٰ الشرق من فيينا، وبعدها تُحوّل الهدنة إلىٰ صلح.

أرسل السفير النمساوي ابنه (فسبازيان دي زار)

---

(١) أندريه دوربا: قائد بحري من أسرةٍ معروفةٍ ظهر منها عدد من القادة البحريين، وهي من مدينة (جنوه) قاعدة الإمارة (جنوه) الإيطالية.

إلىٰ فيينا، ويصحبه مبعوث من قبل الخليفة لعرض هذه الشروط علىٰ الملك (فرديناند)، فعرضها (فرديناند) علىٰ رجاله وأعيان الدولة فقبلوها، فأرسل خطاباً إلىٰ إستانبول بيد مبعوث الخليفة فُدوّنت بعد ذلك معاهدة الصلح في ٢٨ ذي القعدة سنة ٩٤٩هـ، وكان أهم ما جاء فيها:

١ ـ تردّ النمسا مدينة (غران) للدولة العثمانية.

٢ ـ لا تردّ النمسا شيئاً مما ضمّته إليها من بلاد المجر.

٢ ـ إن ما تتفق عليه النمسا مع (جان زابولي) صاحب بلاد المجر لا يُنفّذ ما لم يعتمده الخليفة.

وهذه أول معاهدة صلحٍ بين النمسا والدولة العثمانية.

الحروب في أوربا:

هاج الرأي العام النصراني في أوربا علىٰ فرنسا وتحالفها مع الدولة العثمانية المسلمة التي تُقاتل دولة النمسا النصرانية، فما كان من الملك الفرنسي (فرانسوا الأول) إلا أن خضع للرأي العام الصليبي، وهادن ملك النمسا، وأخلف ما وعد به العثمانيين من غزوٍ مشتركٍ لإيطاليا.

عادت الحرب بين الدولة العثمانية والنمسا سنة ٩٤٣هـ، وانهزمت النمسا فحرّض ملك النمسا (فرديناند) أمير البغدان علىٰ التمرّد علىٰ العثمانيين، ولكن هذه الفتنة قد قُمعت إذ عُزل أمير البغدان عن الإمارة، وتولّىٰ مكانه أخوه اصطفان سنة ٩٤٤هـ، وعزّز العثمانيون حاميتهم في البغدان.

اتفق ملك المجر (جان زابولي) مع ملك النمسا (فرديناند) علىٰ اقتسام المجر وإنهاء التدخّل العثماني وللإيقاع بـ(جان زابولي) فقد أرسل (فرديناند) نسخةً من الاتفاق إلىٰ الخليفة العثماني ليعرف عدم ولاء (جان زابولي)، ويُقصيه عن الملك، وعندها يزداد النفوذ النمساوي بالمجر، ويزول من طريقه حليف العثمانيين.

مات ملك المجر (جان زابولي) سنة ٩٤٦هـ قبل أن يلقىٰ الجزاء من الخليفة العثماني، وهاجمت الجيوش النمساوية المجر بسرعةٍ لإنهاء الحماية العثمانية، وحاصرت مدينة (بودا) وفيها أرملة (جان زابولي) وطفلها، واحتلّت مدينة (بست) المقابلة لمدينة (بودا)، ومع وصول الخبر إلىٰ الخليفة اتجه فوراً وذلك سنة ٩٤٧هـ علىٰ رأس جيش نحو المجر، ففرّ النمساويون، وغدت المجر ولايةً عثمانيةً، وأما أرملة (جان زابولي)، وأم الطفل والوصية عليه فقد قبلت تلك

الحماية الموقتة حتىٰ يبلغ طفلها سنّ الرشد، وأخيراً عُقدت معاهدة بين الخليفة العثماني والنمسا وذلك سنة ٩٥٤هـ لمدة خمس سنواتٍ تدفع بموجبها النمسا جزيةً سنويةً لقاء ما بقي تحت يدها من المجر.

تنازلت أرملة (جان زابولي) عن إقليم ترانسلفانيا إلىٰ (فرديناند) الملك النمساوي، مخالفةً بذلك شروط الهدنة الموقّعة بين العثمانيين والنمساويين، فأرسل الخليفة سليمان جيوشاً احتلّت إقليم ترانسلفانيا بعد مقاومةٍ وذلك سنة ٩٥٧هـ، كما انتصر علىٰ النمساويين في عدة مواقع سنة ٩٥٨هـ.

ومات ملك فرنسا (فرنسوا الأول) وخلفه ابنه (هنري الثاني) فجدّد المعاهدة مع العثمانيين سنة ٩٥٩هـ، وأغارت بعدها الدولتان علىٰ صقلية وجنوبي إيطاليا، ودخلت أساطيلهما جزيرة كورسيكا، ثم اختلف القائدان، فتركا الجزيرة، وعاد كل منهما إلىٰ بلده.

وحاصر العثمانيون جزيرة مالطة سنة ٩٧١هـ مدة أربعة أشهرٍ، ولم يتمكّنوا من فتحها.

وعاد الخليفة سليمان للقتال في بلاد المجر نتيجة الخلاف بين (اصطفان زابولي) ملك المجر، و(مكسمليان) ملك النمسا الذي خلف أبوه (فرديناند)، وتوفي الخليفة

أثناء حصاره لإحدىٰ القلاع هناك سنة ٩٧٤هـ.

دخول مدينة تبريز:

أثناء اشتغال الخليفة سليمان القانوني بالحرب مع النمسا وقعت بعض الاضطرابات في شرقي الدولة العثمانية قرب حدودها مع الدولة الصفوية، وساعد علىٰ ذلك خيانة (شريف بك) أمير مدينة (بدليس) شرقي بلاد الأناضول جنوب بحيرة (وان)، وميله إلىٰ الدولة الصفوية، لذلك أرسل الخليفة سليمان وزيره الأول (إبراهيم باشا) لمحاربة هذا الأمير الخائن، والسير بعد ذلك إلىٰ مدينة (تبريز) عاصمة الدولة الصفوية وفتحها، فسار إبراهيم باشا إلىٰ هدفه وقبل وصوله إلىٰ مدينة قونية جاءه في اليوم الثاني من شهر ربيع الثاني سنة ٩٤٠هـ (شمس الدين) ابن حاكم ولاية أذربيجان الذي كان تابعاً للدولة الصفوية، وانضمّ إلىٰ السلطنة العثمانية ومعه رأس (شريف بك) الذي حاربه أبوه حاكم أذربيجان وقتله، ولذلك سار (إبراهيم باشا) إلىٰ مدينة حلب لقضاء فصل الشتاء بها، فلما انتهىٰ البرد سار بجيوشه من مدينة حلب قاصداً مدينة تبريز ففتح في طريقه جميع الحصون والقلاع المجاورة لبحيرة (وان)، ووصل دون كبير معارضةٍ إلىٰ مدينة تبريز ودخلها بسلامٍ

في غرة شهر المحرم سنة ٩٤١هـ، وبنىٰ بها قلعةً وجعل داخلها حاميةً عثمانيةً لمنع السكان من إحداث كل ما يمكن أن يُكدّر صفو الراحة العامة للسكان. وهذه هي المرة الثانية التي يدخل بها الخليفة مدينة تبريز.

وفي سنة ٩٥٥هـ سار الخليفة سليمان بجيوشه قاصداً مدينة تبريز فدخلها، وهي المرة الثالثة التي يدخل بها هذه المدينة، وفتح في طريقه الجزء الذي يتبع الدولة الصفوية من بلاد الأكراد، وقلعة (وان) الشهيرة، وعاد إلىٰ إستانبول سنة ٩٥٦هـ.

دخول مدينة بغداد:

بعد أن دخل إبراهيم باشا مدينة تبريز في غرّة شهر المحرم سنة ٩٤١هـ، وكان هذا الفتح هو دخول هذه المدينة للمرة الثانية، ثم وصل إليها الخليفة سليمان في ١٦ صفر من السنة نفسها، وقد استقبله الأهالي فيها بكل احترامٍ. وبعد أن عيّن الخليفة سليمان قائداً لحامية مدينة تبريز الأمير (شيروان)، وقبل خضوع أمير (جيلان)[1] الملك مظفر خان، وغيره من أمراء الصفويين الذين تركوا لواء الشاه (طهماسب) أمير

---

(١) جيلان: مدينة في إيران، تقع في جنوب بحر الخزر.

الصفويين وانحازوا إلىٰ ظلّ الخليفة كان الخليفة سليمان قد سار إلىٰ مدينة (سلطانية)[1] بجنوده التي تقهقر إليها الشاه (طهماسب). ولكن وجد الخليفة صعوبة الطرق واستحالة مرور المدافع الضخمة وعربات النقل لكثرة الأمطار والأوحال لذا ترك الخليفة متابعة الشاه وغيّر خط سيره واتجه إلىٰ بغداد لفتحها، فلما اقترب منها تقدّم (إبراهيم باشا) الصدر الأعظم وأمين سر عسكر الجيوش العثمانية ودخلها يوم ٢٤ جمادىٰ الآخرة سنة ٩٤١هـ، فوجدها خاويةً إذ غادرها حاكمها مع عسكره جميعاً هرباً من وقوعهم في قبضة الجنود العثمانيين، ثم وصل الخليفة إلىٰ بغداد ودخلها، وبقي فيها مدة أربعة أشهرٍ رتّب خلالها الإدارة المحلية، وكتب إلىٰ (فيينا) و(البندقية) يعلمهم بانتصاراته ودخوله تبريز وبغداد.

سافر الخليفة سليمان من مدينة بغداد في ٢٨ رمضان سنة ٩٤١هـ وسار إلىٰ مدينة (تبريز) مروراً ببلاد الأكراد ومدينة (المراغة)، وولّىٰ أحد قادته، وهو (سليمان باشا) علىٰ مدينة بغداد ومعه ألفا جندي لحمايتها، وأثناء مسيره وصل إلىٰ معسكره سفير فرنسي اسمه (لافوري) جاء للتهنئة بالانتصارات. ووصل الخليفة

---

(١) سلطانية: بلدة تقع إلىٰ الشرق من مدينة جيلان.

سليمان إلىٰ (تبريز) في ٤ المحرم سنة ٩٤٢هـ فأقام بها خمسة عشر يوماً قضاها في تعيين الولاة علىٰ المدن التي فُتحت حديثاً، وترتيب الشؤون الداخلية، ثم رجع إلىٰ مدينة إستانبول فوصل إليها في ١٤ رجب سنة ٩٤٢هـ.

العمل العثماني في بلاد المغرب العربي:

كان البحّار المشهور خير الدين باربروس وأخوه عرّوج نصرانيان من جزيرة (مدللي)، إحدىٰ جزر بحر إيجه يعملان في القرصنة البحرية، ثم هداهما الله للإسلام فأسلما ودخلا في خدمة السلطان محمد الحفصي أمير تونس، وكانا يعترضان السفن النصرانية، ويأخذان ما فيها، ويبيعان ركابها وملاحيها رقيقاً، وفي ذات يومٍ أرسلا إلىٰ السلطان العثماني سليم الأول إحدىٰ السفن التي أخذوها رمزاً لخضوعهما لسلطانه فقبلها منهما، وأرسل لهما خلعاً سنيةً عشر سفنٍ ليستعينوا بها علىٰ غزو مراكب الإفرنج فقويت معنويتهما واتجهت أنظارهما لاحتلال بعض السواحل باسم سلطان آل عثمان. وعندما جاء السلطان العثماني سليم الأول إلىٰ مصر أرسلا له رسولاً يُدعىٰ (كرد أوغلي) يُعلن له خضوعهما للدولة العثمانية.

استولىٰ (عرّوج) علىٰ مدينة الجزائر، وهزم

الجيوش الإسبانية التي أرسلها (شارلكان) لمساعدة الجزائريين علىٰ محاربة (عرّوج)، ثم فتح مدينة تلمسان، ولكن قُتل بعدها بقليلٍ أثناء قتال الإسبان، وإن لم يستطع هؤلاء الإسبان من استرجاع الجزائر وتلمسان بل حماهما خير الدين، وقتل أمير الجزائر، وأرسل من قبله أحد رجاله ويُدعىٰ (الحاج حسين) إلىٰ السلطان سليم الأول وكان قد أنهىٰ فتح مصر، وأصبح خليفة المسلمين، ليخبره بفتح الجزائر باسم خليفة المسلمين، فقابل الخليفة مبعوث خير الدين، وأعلن تعيينه والياً علىٰ إقليم الجزائر، وبذا صار هذا الإقليم ولايةً عثمانيةً يُدعىٰ فيها في خطبة الجمعة لخليفة المسلمين وتُضرب النقود باسمه.

استمرّ خير الدين في عمله البحري يغزو مراكب الإفرنج وينزل علىٰ شواطئ إيطاليا وفرنسا وإسبانيا، وأخذ حصن (بينون) الذي أقامه الإسبان علىٰ جزيرةٍ صغيرةٍ أمام مدينة الجزائر، غير أن الخليفة سليمان القانوني قد طلب منه أن يكفّ عن مراكب شواطئ فرنسا بعد المعاهدة التي عُقدت بين الدولة العثمانية وفرنسا، ولكن يوجّه اهتمامه ضدّ الإسبان انتقاماً لما فعلوه بالمسلمين في الأندلس بعد أن سقطت (غرناطة) بأيديهم سنة ٨٩٨هـ.

استدعىٰ الخليفة سليمان القانوني إلىٰ إستانبول خير الدين، وكلّفه بالعمل لأخذ الاحتياطات اللازمة لصدّ هجمات البحّار الجنويّ (أندري دوريا) إجير (شارلكان)، فسافر ببعض المراكب ووصل إلىٰ إستانبول بعد سفر الصدر الأعظم (إبراهيم باشا) إلىٰ تبريز لقتال الصفويين، فقابله الخليفة سليمان القانوني وأحسن وفادته، وأمره بالاستعداد وإنشاء المراكب الكافية لفتح تونس، فاشتغل خير الدين مدة فصل الشتاء كله بإنشاء المراكب وقام بالأمر خير قيام.

وعندما سافر الخليفة سليمان إلىٰ تبريز سنة ٩٤٠هـ انطلق خير الدين بمراكبه عبر مضيق الدردنيل إلىٰ جزيرة مالطة ليخفي قصده الحقيقي تونس، كما غزا بعض موانئ جنوبي إيطاليا للغرض نفسه، ثم قصد تونس سنة ٩٤١هـ، واحتلّها بسهولةٍ باسم الخليفة العثماني، وقد عزل عن تونس (مولاي حسن) آخر الحفصيين، وعيّن مكانه أخاه (الرشيد)، وكان أهالي تونس ناقمين علىٰ (مولاي حسن).

ولما وصل الخبر إلىٰ الإمبراطور (شارلكان) بسقوط تونس بيد خير الدين اتفق مع رهبان القديس يوحنا، الذين نزلوا بجزيرة مالطة بعد أن فتح العثمانيون جزيرة (رودوس) ومع أشراف الإسبان في برشلونة علىٰ

استرجاع تونس وإعادة (مولاي حسن) إلىٰ سدّة الملك، وجهّز حملةً بحريةً قويةً ونزل من ميناء (برشلونة) الإسباني قائداً للحملة وتوجّه إلىٰ تونس، ووصل إلىٰ حلق الوادي ميناء مدينة تونس وحاصره مع المدينة مدة شهرٍ، وتمكّن بعد ذلك من دخول المدينة واستولىٰ علىٰ ما في قلعتها ومينائها من المدافع والمراكب، وسمح لجنوده بفعل ما يشاءون فنهبوا وقتلوا وأفسدوا وارتكبوا أنواع المحرمات كلها، وهدّموا المساجد، ومزّقوا الكتب، ثم دخل شارلكان المدينة ومنع عسكره عما كانوا يفعلون، من أعمالٍ وفسادٍ فاستتب الأمن وسادت السكينة، وأعاد مولاي حسن الحفصي إلىٰ الحكم، ووقعت معاهدة بينه وبين شارلكان تقضي بإخلاء سبيل الأرقّاء النصارىٰ، والسماح للنصارىٰ جميعاً بالاستيطان في إقليم تونس وإقامة شعائرهم دون معارضةٍ، والتنازل لشارلكان عن مدينة (عنّابة) ومدينة (بنزرت) وعن (حلق الوادي)، وأن يدفع له تكاليف الحرب وقدرها اثنا عشر ألف دوكاً، وأن يُقدّم له اثني عشر حصاناً عربياً علامة امتنان، علىٰ شرط أنه لو خالف إحدىٰ هذه الشروط يدفع أول مرةٍ خمسين ألف دوكاً، وفي الثانية مائة ألف، وفي الثالثة يسقط حقه في الملك.

سافر الإمبراطور شارلكان وترك في ثغر تونس

(حلق الوادي) مائة ألف جندي إسباني مع عشرة مراكب حربيةٍ.

أما خير الدين باربروس فإنه لما رأىٰ ميل السكان إلىٰ سلطانهم المعزول وعدم وجود الجنود الكافية معه وبُعده عن مركز الخلافة لإمداده بالوقت اللازم ارتحل بجنوده علىٰ مراكبه.

التقىٰ خير الدين باربروس سنة ٩٤٤هـ بأسطول شارلكان وانتصر عليه، كما غزا جزيرة كريت، وتوفي سنة ٩٥٣هـ.

العمل العثماني في جزيرة العرب:

أمر الخليفة العثماني سليمان القانوني والي مصر (سليمان باشا) أن يجهز أسطولاً ويتجه به لمحاربة الصليبيين البرتغاليين، وأن يفتح عدن وبلاد اليمن كي لا تقع بأيدي البرتغاليين. فبنىٰ سليمان باشا أسطولاً مؤلفاً من سبعين مركباً، واتجه علىٰ رأس عشرين ألف جنديٍ، وفتح (مسقط) و(عدن) وحاصر جزيرة هرمز سنة ٩٤٤هـ.

كان قد وصل إلىٰ إستانبول قبل سنةٍ مبعوث من كوجرات بالهند يستنجد بالخليفة ضد البرتغاليين الذين وصلوا إلىٰ سواحل الهند، كما وصل إلىٰ إستانبول

مبعوث آخر من دهلي يستنجد بالخليفة ضد همايون بن ظاهر الدين محمد المشهور بـ(بابر) وهو من المغول الذين دخلوا الهند وحكموها.

انطلق والي مصر (سليمان باشا) إلىٰ كوجرات، ودخل بعض القلاع التي أقامها البرتغاليون علىٰ سواحل الهند، ولكنه هُزم أمام البرتغاليين في معركة (ديو) البحرية، ورجع إلىٰ بلاده، وكانت بلاد اليمن قد أصبحت ولايةً عثمانيةً.

وفاة الخليفة سليمان القانوني:

عاد الخليفة سليمان إلىٰ القتال في بلاد المجر، نتيجة الخلاف الذي وقع بين أمير المجر (اصطفان زابولي) وبين ملك النمسا (مكسمليان) الذي خلف أبوه فرديناند، وذلك أن مكسمليان احتلّ بلدة (توكاي) من أعمال المجر، لأن اصطفان زابولي كان قد احتلّ إحدىٰ مدن النمسا، وللدولة العثمانية السيادة علىٰ المجر، لذا تحرّك بعض المسؤولين العثمانيين وخاصةً الصدر الأعظم (الطويل محمد باشا) لتأديب النمساويين.

كان الخليفة سليمان القانوني يتألّم من مرض النقرس، ولكن أخذته الحمية وخوفاً من هزيمة جنده إن

لم يكن القائد أهلاً لذلك، فتقلّد الخليفة بنفسه القيادة وسار في ٩ شوال سنة ٩٧٣هـ لصدّ هجمات النمسا عن المجر التي له السيادة عليها، وعندما وصل إليها قابله أميرها اصطفان، قابله فأحسن إليه وأكرم مثواه ووعده أنه لن يغادر المجر حتىٰ يُعيد إليه ما أُخذ من بلاده، ثم سار بصحبته قاصداً قلعة (أرلو) التي عجز الخليفة عن فتحها قبل ذلك التاريخ بأربع عشرة سنةً، ولكن بلغه أثناء الطريق أن أمير إحدىٰ المدن في جنوبي المجر تغلّب علىٰ فرقةٍ من جيوشه، فسار إليه وألقىٰ الحصار علىٰ مدينته (زيغد) وبأقلّ من أسبوعين احتلّ معاقلها الأمامية، غير أن الجنود المحصورين فيها أخلوا المدينة سراً واعتصموا بقلعتها مصرّين علىٰ الدفاع عنها.

اشتد مرض الخليفة وتوفي وهو يحاصر القلعة في ٢٠ صفر سنة ٩٧٤هـ عن أربعٍ وسبعين سنةً أي بعد حصار المدينة بحوالي خمسة أشهرٍ، وكانت مدة ملكه ثماني وأربعين سنةً قضاها في توسعة الدولة ورفعة مكانتها، وأخفىٰ الوزير خبر موته خوفاً من وقوع الفشل في المعسكر، وأرسل إلىٰ ولده سليم بمدينة (كوتاهية) يخبره بذلك، ويطلب منه الحضور بسرعةٍ إلىٰ إستانبول منعاً لحدوث فوضىٰ.

هجم العسكر العثمانيون علىٰ القلعة يوم ٢٣ صفر

سنة ٩٧٤هـ واحتلّوها عنوةً، وبعد وقف القتال حصلت انفجارات عظيمة فانهدم بناء القلعة علىٰ من فيها من الطرفين المتحاربين، وذلك أن المحاصرين داخل القلعة رأوا أنه لا بدّ من الهزيمة أو الموت، لذا دبّروا هذه المكيدة وهي تفجير عدة ألغامٍ أشعلوها بعد احتلال العثمانيين لها، حتىٰ يموتوا ويهلك كل من دخلها من جنود العثمانيين. وأعلن الوزير هذا الانتصار للجهات كافةً باسم الخليفة حرصاً علىٰ عدم إعلان موته، الذي لم يعلنه إلا بعد أن أتت إليه أخبار أكيدة من إستانبول بوصول ولده سليم إليها واستلام مهام الأعمال فيها.

تنبيه واعتبار

بلغت الدولة العثمانية أوج اتساعها وغاية قوتها وأعلىٰ مجدها في عهد الخليفة الثاني سليمان القانوني، وأخذ الضعف يدبّ في الدولة مباشرةً لأسبابٍ عدةٍ، ومنها هذه الحادثة البشعة التي سنذكرها، والتي يجب أن نأخذ منها الدرس مما جرىٰ في تاريخنا ومما يجري في أيامنا.

جرىٰ قتال بين تتار شبه جزيرة القرم التي تتبع الخلافة العثمانية، وهؤلاء التتار مسلمون وبين الخزر في جنوبي روسيا وتنتشر بينهم الديانة اليهودية، وقد انتصر التتار المسلمون وحصلوا علىٰ كثيرٍ من الغنائم،

كما أخذوا عدداً من الأسرىٰ والسبايا، وقد ساروا بما حصلوا عليه إلىٰ الخليفة سليمان المرجع الأساسي لهم، وقدّموا له الغنائم والأسرىٰ والسبايا ليقوم بتوزيعها حسب الأصول، وقدّموا له شخصياً اعترافاً بمكانته إحدىٰ السبايا وتُدعىٰ (روكسلانة)، ويقال باللغة التركية (خُرّم) أي الناعمة، كجاريةٍ، وهي فتاة في العشرين من عمرها، فاتنة بجمالها، هادئة بطباعها، منظّمة بأعمالها، وهي يهودية العقيدة.

أقامت (روكسلانة) جاريةً عند الخليفة سليمان فأعجبه هدوؤها، وحُسن تنظيمها، وجودة ترتيبها إضافةً إلىٰ جمالها فرأىٰ أن يتزوجها، فدعا عدداً من العلماء وسألهم عن الزواج منها، فأجابوا: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة]. فأحلّوا له الزواج من جاريته اليهودية روكسلانة. والأولىٰ في حلّ المحصنات من أهل الكتاب:

١" ـ ألا يكون هناك حرب بين المسلمين وبين أهل عقيدتهن.

٢" ـ أن يكنّ من الذين يعيشون في ذمّة المسلمين وفي عهدٍ معهم.

وذلك من أن تكون هناك عيون للأعداء علىٰ المسلمين، وخوفاً من حدوث مخالفاتٍ شرعيةٍ في بيوت المسلمين، ولتربية الأبناء تربيةً إسلاميةً. لذا كره الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ الزواج من الكتابيات، وقال للذين تزوّجوا نساءً من أهل الكتاب: طلّقوهن[1].

تزوّج الخليفة سليمان القانوني جاريته (روكسلانة) وأنجبت له ولده (سليم) وأخذت تعمل ليتولّىٰ ابنها الخلافة بعد أبيه، ولكن لا يمكن أن يتمّ هذا إلا إذا تخلّصت من إخوته الآخرين، فبدأت تُخطّط لذلك وتتخذ الوسائل اللازمة لذلك.

مات الصدر الأعظم (إياس باشا) فبذلت (روكسلانة) جهدها لدىٰ زوجها الخليفة سليمان القانوني ليتولّىٰ (رستم باشا) الصدارة العظمىٰ، وقد تمّ ذلك فكسبت ثقته ومازالت تسعىٰ لضمان هذه الثقة وزيادتها حتىٰ زوّج الخليفة ابنته من زوجته (روكسلانة) إلىٰ الصدر الأعظم رستم باشا، وبعد ذلك كاشفت

---

(١) المغني: ابن قدامة.

روكسلانة صهرها الصدر الأعظم رستم باشا برغبتها بتمهيد الطريق لتولّي ابنها سليم الخلافة.

استغلّ رستم باشا فرصة قيام الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية سنة ٩٦٠هـ، ووجود مصطفىٰ بن الخليفة سليمان القانوني بين قواد الجيش، وكتب إلىٰ أبيه الخليفة بأن ولده مصطفىٰ يُحرّض الانكشارية علىٰ عزل والده وتنصيبه مكانه، كما فعل السلطان سليم الأول مع أبيه السلطان بايزيد الثاني. فلما وصل هذا الخبر إلىٰ الخليفة، وكانت روكسلانة قد تمكّنت من تغيير أفكار زوجها الخليفة تجاه أكبر أولاده وهو القائد مصطفىٰ، فقام الخليفة في الحال قاصداً بلاد الصفويين متظاهراً بأنه يريد أن يتولّىٰ قيادة الجيش، ولما وصل الخليفة إلىٰ المعسكر استدعىٰ ولده القائد مصطفىٰ إلىٰ خيمته يوم ١٢ شوال سنة ٨٦٠هـ وما أن وصل ودخل خيمة والده الخليفة حتىٰ قام بخنقه أحد المكلّفين بهذه المهمة، ونقلت جثّة مصطفىٰ إلىٰ مدينة بورصة حيث دُفنت مع جثث أجداده. كما أرسلت روكسلانة إلىٰ مدينة بورصة من قتل ابن مصطفىٰ، وهو طفل رضيع. وكان المقتول مصطفىٰ محبوباً لدىٰ الانشكارية خاصةً والعسكر عامةً لشجاعته، ولدىٰ العلماء والشعراء لاشتغاله بالأدب وميله إلىٰ الشعر.

أما الانكشارية فقد ثاروا وطالبوا الخليفة بقتل الصدر الأعظم رستم باشا، المدبّر لهذه المكيدة في سبيل المحافظة علىٰ منصبه، فعزله الخليفة تهدئةً لخاطرهم وولّىٰ مكانه أحمد باشا، لكن لم يهدأ بال زوجة الخليفة (روكسلانة) حتىٰ أغرت زوجها علىٰ قتل هذا الوزير أحمد باشا، وإعادة رستم باشا إلىٰ منصبه مكافأةً له علىٰ ما قام به من تنفيذ رغباتها ومخططاتها.

وكان للخليفة سليمان القانوني ولد آخر يُسمّىٰ (جهانكير)[1] وقد حزن حزناً شديداً علىٰ قتل أخيه حتىٰ ضعف جسمه واختلّ عمل الأعضاء فلقي حتفه، وقيل: بل قتل نفسه أمام والده بعد أن تكلّم معه بعنفٍ علىٰ قتل أخيه.

وكانت (روكسلانة) أساس ظهور يهود الدونمة.

وتوفيت (روكسلانة) بعد ذلك بقليلٍ.

وعمل الخليفة سليمان القانوني أيضاً علىٰ قتل ولده الثاني (بايزيد) وأولاده الخمسة وذلك أن مربي (بايزيد) المدعو (لاله مصطفىٰ) عيّن ناظر خاصة

---

(١) جهانكير: تعني ملك العالم، وقد تلقب كثير من الملوك بهذا اللقب، وأشهرهم أحد أباطرة الهند الذي تولّىٰ الملك سنة ١٠١٤هـ.

(سليم)، وكان الأمير سليم يخشىٰ مزاحمة أخيه (بايزيد) له بالملك بعد موت أبيهما، فكاشف (لاله مصطفىٰ) بأنه يريد إيغار صدر أبيه علىٰ بايزيد ليقتله ويكون هو (سليم) الوارث الوحيد لملك آل عثمان، فأخذ (لاله مصطفىٰ) يبحث عن الطريقة الموصلة لهذه الغاية القذرة، ثم جرّه إبليس إلىٰ أن يكتب للأمير بايزيد يقول له: إن أخاه سليماً منهمك في الشهوات ولا يليق أن يخلف والده، ومع ذلك فإن والده مصمم علىٰ استخلافه مع عدم أهليته للملك وعدم استعداده للخلافة، فتبادلا بينهما الرسائل بشأن ذلك، وأخيراً كتب بايزيد إلىٰ أخيه سليم خطاباً فيه بعض عباراتٍ تمسّ كرامة والدهما، فأرسل سليم الخطاب لأبيه، ولما قرأ الخليفة سليمان الرسالة غضب غضباً شديداً، وكتب لابنه بايزيد يوبخه علىٰ ما أتاه ويأمره بالانتقال من مدينة (قونية) التي كان والياً عليها إلىٰ مدينة (أماسيا)، فخشي بايزيد أن يكون قصد أبيه الغدر به فامتنع عن التوجّه إلىٰ (أماسيا)، وجمع جيشاً بلغ عدده عشرين ألفاً وأظهر التمرّد، فأرسل إليه أبوه الوزير محمد باشا الملقّب بـ(صقللي) لقتاله فالتقىٰ الجيشان قرب مدينة قونية، واستمرّ القتال يومي ٢١ و٢٢ رمضان سنة ٩٦٨هـ، وأخيراً هُزم الأمير بايزيد وتراجع إلىٰ أماسيا، منها سار

إلىٰ بلاد الصفويين حيث التجأ هو وأولاده إلىٰ الشاه طهماسب، فقابله وأظهر له الإخلاص والاستعداد لحمايته، غير أنه كاتب الخليفة سليمان وابنه سليماً سرّاً علىٰ تسليم بايزيد وأولاده إليهما، مع أنهم احتموا بحماه فلم يرعَ ذمتهم بل خانهم وسلّمهم إلىٰ رسل الخليفة فقتلوهم جميعاً، وهم: بايزيد وأولاده الأربعة أورخان ومحمود وعبد الله وعثمان في مدينة قزوين علىٰ ساحل بحر قزوين في ١٥ المحرم سنة ٩٦٩هـ، ونُقلت جثثهم إلىٰ مدينة (سيواس) حيث دُفنت هناك. وكان لبايزيد ابن صغير في مدينة (بورصة) فخُنق أيضاً[١].

ضعف الدولة العثمانية

قلنا إن الدولة العثمانية قد وصلت إلىٰ أوج قوتها أيام الخليفة سليمان القانوني، ثم أخذ الخط البياني بعده بالنزول تدريجياً وبدأ الضعف يظهر علىٰ الدولة وذلك لعدة أسبابٍ:

١" ـ اتساع رقعة الدولة:

اتسعت الدولة العثمانية وامتدت أراضيها كثيراً

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية: محمد فريد.

نتيجة الفتوحات، إذ كانت تمتد من أواسط أوربا حتىٰ سواحل بحر الخزر، ومن جنوب بلاد العرب حتىٰ سواحل البحر الأسود الشمالية، إضافةً إلىٰ شبه جزيرة القرم، وبلاد القفقاس، وأجزاء من إيران، وشمالي إفريقية كله، وهذه المساحة تزيد علىٰ ستة عشر مليون كيلومتر مربع أي ما يعادل أكثر من مرةٍ ونصف من مساحة قارة أوربا، وهذا الاتساع يحتاج إلىٰ خليفةٍ قوي الشخصية، ولا يمكن أن يتعاقب بالوراثة خلفاءٍ أقوياء، فلا بدّ من الشورىٰ واختيار الرجل القوي الأمين، ولا بدّ من أن يكون هذا القائد علىٰ أهبة الاستعداد دائماً يتابع الأمور بنفسه، ويقيم منهج الله بالأرض فإن فعل ذلك أمكنه ضبط الأمور ومتابعة الفتوحات ورفع راية الجهاد، وإذا لم يكن ذلك بدأ الضعف. وهذا ما حدث وخاصةً أنه انتهىٰ عهد الأقوياء الذين بذلوا وبنوا وفتحوا وشادوا، وجاء دور الذين ورثوا المجد ولم يُقدّموا شيئاً ولم يُضحّوا بشيءٍ، بل تركوا الأمر لغيرهم فصعُب لذلك عليهم القبض علىٰ زمام الأمور، وتراخت أيديهم عن أملاكهم فضعُفت الدولة، وخاصةً يجب أن نعلم أن المواصلات كانت صعبةً يومذاك كما أن العقبات الطبيعية تحول دون الوصول إلىٰ منطقةٍ ما لقمع حركةٍ فيها أو لدعم والٍ، وهذا ما يُشجّع أصحاب النفوذ

الطامعين في السلطة ورجال المصالح في أن يثيروا الفوضىٰ أو يعبثوا بالأمن وهذا كله يؤدّي إلىٰ الضعف.

٢" ـ الترف:

حصلت الدولة نتيجة الفتوحات علىٰ كثيرٍ من الغنائم فأثرت، ففُسح المجال أمام طلاب الدنيا أن ينصرفوا إلىٰ اللهو في قصورهم، وأن يُبذّروا الأموال علىٰ الرغبات وينفقوا ما يريدون علىٰ الشهوات. وكان السلاطين والخلفاء في أول الأمر يقودون الجيوش بأنفسهم فيبقون بعيدين عن الترف، وفيهم من الحزم والعزم والجد والاستعداد الدائم، فلما غيّر الخليفة سليمان القانوني هذه القاعدة وسمح لضباط الانكشارية بقيادة الجيوش، بقي الخليفة في القصر لا يهتمّ بأمر النصر كما لو كان علىٰ رأس الجيش إذ أصبح يلقي التبعة علىٰ غيره.

وكانت رئاسة مجلس قضايا الدولة المهمة للسلطان نفسه أو الخليفة ليكون علىٰ اطلاعٍ دائمٍ بما يدور، وإعطاء الرأي بما سيكون، ومتابعة القضايا بدقةٍ، فلما بدّل الخليفة سليمان القانوني هذه الطريقة وأوكل رئاسة هذا المجلس إلىٰ الصدر الأعظم، أصبح الخليفة في القصر بعيداً عن مهمات الدولة الأساسية،

وأصبح الحاكم الفعلي للبلاد هو الصدر الأعظم، وفي الوقت نفسه لم يعد للخليفة من عملٍ مهمٍ، ولم يعد علىٰ صلةٍ بالقضايا بل أصبح عنده وقت فراغٍ، وأصبحت الدولة بيد غير أولي الأمر وأصحاب السلطة ومن الحكم باسمهم، وخاصةً إذا كان الصدر الأعظم ممن يظهرون الإسلام بأفواههم أو من غير المسلمين حقيقةً.

٣" ـ عدم الانصراف إلىٰ العلم:

انصرف العثمانيون بإمكاناتهم كلها نحو التدريب العسكري والقتال وتعبئة الجيوش وبناء الأساطيل، وربما كانت المهمّة الملقاة علىٰ عاتقهم اضطرتهم إلىٰ ذلك، أو أن طبيعتهم الأقرب إلىٰ البداوة قد حرصوا عليها أو لم تسمح لهم بالتوجّه نحو العلم، بسبب انصرافهم إلىٰ ميادين القتال والتوجّه إلىٰ ما أُسند إليهم من مهماتٍ، ولما تطوّرت أوربا علمياً، ولم يحدث مثل ذلك في الدولة العثمانية ظهرت الهزيمة النفسية والفكرية لدىٰ العثمانيين.

٤" ـ سيطرة العقلية العسكرية:

التي تنزع إلىٰ حلّ الأمور كلها بالسيف وتبتعد عن الدراسة والتخطيط ومناقشة الموضوعات، وكانت هذه

العقلية سائدةً عند الخلفاء والولاة والقادة وضباط الانكشارية، فالسلاطين أو الخلفاء يربّون تربيةً عسكريةً وإسلاميةً، والتربية العسكرية إن لم يطغَ عليها الإيمان ويُشذّبها ويحدّ من طغيانها تماماً كانت ـ والعياذ بالله ـ أقرب إلىٰ حياة الجزّار. وفي بداية الأمر كان الإيمان هو الأقوىٰ، وهو المحرّك، وكانت العاطفة الإسلامية هي السائدة لذا كانت الحياة العسكرية تدريباً وفنّاً ومعرفةً بأصول القتال، فلما مرّت الأيام وغدا الحرص علىٰ السلطان نقطةً جوهريةً أصبح تطبيق التدريب أساساً علىٰ من يقف في وجهه أو يُنازعه، وربما يزيد الأمر إلىٰ أن يتصوّر المسؤول تصوراتٍ خياليةً في منازعين له من أهله وأقربائه، فيعمل فيهم السيف فيقتل إخوته وكل من يتوهّم أنه يخالفه، وتصبح الأسر المنكوبة معاديةً بعضها لبعضٍ فيفتر عندها الجهاد، ويضعف إخلاصها، وتقلّ خدمتها، وأول أسرةٍ أصابها عدم التماسك والتجزئة هي الأسرة الحاكمة، أسرة بني عثمان، بل إن الرابطة بين أفرادها أصبحت واهيةً بل بين الأب والأبناء، والأخ وإخوته، والمهم عند كل فردٍ منها أن يصل إلىٰ السلطة ويعمل علىٰ المحافظة عليها.

ولما كان السلطان أو الخليفة يخشىٰ علىٰ نفسه أو علىٰ سلطانه من إخوته وأقربائه فإنه يعمل علىٰ تولية

أبنائه علىٰ الولايات ذات الأهمية، وعلىٰ قيادة الجيوش أحياناً، وهنا يشعر كل ولدٍ من أولاد السلطان أو الخليفة أنه ذا مكانةٍ في الدولة، وأن إخوته دونه، وخاصةً أنهم أشقّاء، وتربوا تربيةً متباينةً، وغالباً ما تكون أعمارهم متقاربةً لأنهم من عدة أمهاتٍ فيعمل كل واحدٍ منهم للوصول إلىٰ السلطان فيدسّ الدسائس لإخوته، وتساعده أمه بل هي التي تُحرّضه أحياناً، وتتولّىٰ كبر ذلك وخاصةً إن كانت لها مهمة إذ كانت بعضهن علىٰ غير ديانة الإسلام، ورُتّب وصولها إلىٰ مكانها لتؤدّي دوراً معيناً، وإن كل واحدةٍ تحب أن تكون أم السلطان أو الخليفة وتكون المكرّمة المبجّلة، فإذا ما مات الخليفة، والموت غاية كل حيٍّ، بدأ النزاع بين الإخوة، ونتيجة النزاع يحدث ضعف الدولة.

والانكشارية وهم عماد الجيش العثماني. ونتيجة التربية الإسلامية والعسكرية التي رُبّوا عليها كانوا قوةً ضخمةً ولديهم روح معنوية عالية، لذا فقد حقّقوا نجاحاً كبيراً وأحرزوا انتصاراتٍ عظيمةً وأسدوا للدولة خدماتٍ جلّىٰ، وبعد هذه الانتصارات أُعطيت لهم امتيازات، وقُدّمت لهم إقطاعات فأخلدوا إلىٰ الأرض ومالوا عن القتال، وسُمح لهم بالإقامة خارج الثكنات فزاد ارتباطهم بالحياة المدنية، فبدأت علائم الضعف

تظهر علىٰ الجيش بعد أن كان مهيباً. وكان السلطان أو الخليفة يخرج علىٰ رأس الجيش للقتال فيزيد ذلك من قوة المقاتلين ويرفع من روحهم المعنوية، فلما قوي أمر الانكشارية أصبحوا لا يخرجون إلىٰ القتال إلا إذا خرج السلطان أو الخليفة معهم، وهذه بداية التذمّر وإظهار شيءٍ من عدم الرضا أو الخضوع الصحيح. وقد أبطل الخليفة سليمان القانوني قاعدة خروج الخليفة، وسمح لأكبر ضابطٍ في الانكشارية بقيادة الجيش، وهنا يصبح الضابط ذا شأنٍ، ويرىٰ نفسه في مركزٍ لا يكاد يُعادله أحد فتصبح له متطلبات واجبة التنفيذ، ويغدو في الدولة أكثر من سلطةٍ فتفسد الأمور إذ تتضارب المصالح وبالتالي تضعف الدولة.

ولما كان للانكشارية دور كبير في الحياة العسكرية لذا كانت تفضّل ولداً من أولاد الخليفة علىٰ ولدٍ، وغالباً ما تُفضّل القائد القوي، وتسعىٰ جاهدةً لدىٰ الخليفة لتقديم هذا علىٰ ذاك، وقد لاحظنا كيف رغب الانكشاريون في تولية السلطان سليم الأول علىٰ إخوته، ودعموه بإمكاناتهم كلها وطاقاتهم كافةً حتىٰ تمّ له الأمر، وساروا معه، ويكون الحسد بين الإخوة نتيجة ذلك، ويقع الخلاف، ويحدث الشقاق، وتضعف الدولة.

ولما كان للانكشارية دور كبير في الانتصارات الحربية التي كانوا يخوضونها، ولهم دور كبير في تنصيب السلطان فكان لا بدّ من أن يكون لهم متطلبات علىٰ من عيّنوه، وكان علىٰ الخليفة الجديد أن يُرضي قادة الانكشارية علىٰ الأقل يوم تنصيبه، فيعطيهم مبالغ من المال أو يُقدّم لهم امتيازاتٍ جديدةً، فيرضىٰ هذا وقد لا يرضىٰ غيره، وتقع الخلافات وتضعف الدولة.

وإن سيطرة القوة العسكرية بصفةٍ عامةٍ تُضعف الدولة، لأن العسكري بممارسته المهنة التي يقوم بها يصبح محباً للتسلط إذ يُفكّر بسيفه لا بعقله، ويتبختر بحذائه لا بقوته. وتولية الأبناء علىٰ مقاطعاتٍ ذات أهميةٍ تجعلهم يشعرون بشأنهم وإمكاناتهم ويُفكّر أحدهم بالسلطة، والملك عقيم، فيقع الخلاف وتحصد الدولة نتاجه. وإعطاء العسكريين امتيازات، ومحاولة إرضائهم باستمرارٍ يجعلهم يُفكّرون باستخدام قوتهم إن لم تُحقّق رغباتهم، وهذا من البلاء الذي تحصد الدولة نتاجه أيضاً. فالعسكريون يجب أن يبقوا في معسكراتهم، تُقدّم لهم حقوقهم، ويُقدّمون واجباتهم بالطاعة وتنفيذ المهمات الموكلة إليهم، ولا يتدخلون في شؤون البلاد أبداً، إلا إذا دعت الضرورة أو كُلّفوا بتنفيذ مهماتٍ محددةٍ.

٥" ـ الاتفاقيات مع الدول الأجنبية:

لم يكن للأجانب عامةً ولا للنصارىٰ خاصةً أيّ أثرٍ علىٰ سكان الدولة الإسلامية مسلمين ومعاهدين، فلما أراد الخليفة سليمان القانوني أن يُفكّك اتفاق الدول الصليبية عليه، ويُفكّك وحدتهم أعطىٰ من اتفق معه امتيازاتٍ خاصةً، وقدّم لهم صلاحياتٍ لم تكن موجودةً من قبل بل لم يحلموا بها أبداً، وكذلك أراد أن يُعيد للبحر المتوسط ما كان له من دورٍ في الملاحة والتجارة، بعد أن التفّ البرتغاليون حول إفريقية وعرفوا رأس الرجاء الصالح وبدؤوا يستولون علىٰ بلاد المسلمين في شرقي إفريقية وجنوب شرقي آسيا، بل أخذوا يهاجمون أطراف الجزيرة العربية ويستقرون في مراكز لهم يُخضعون موانئها لهم، ويُتاجرون مع تلك الجهات، وينقلون البضائع إلىٰ أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح بعيدين عن البحر المتوسط ففقدت بذلك موانئه قيمتها، وفقد التجار الأرباح التي كانوا يجنونها، كما ارتفعت أسعار الحاجيات، وانعكس هذا علىٰ الدولة علىٰ حين بدأت الأرباح تزداد علىٰ التجار الأوروبيين، وبدأت تصل إليهم البضائع بشكلٍ أقلّ سعراً، وانعكس ذلك علىٰ الحياة الاقتصادية إذ أخذ يظهر الرفاه، ونتج عن ذلك التطور إضافةً إلىٰ الاحتكاك

الذي يجري مع الأمم الأخرىٰ ونقل العادات وبعض الصناعات التي يعرفونها في تلك البلاد سواء أكانت مسلمةً أم لها صلة بالبلاد الإسلامية لذلك أراد الخليفة سليمان القانوني أن يعقد اتفاقاتٍ مع بعض الدول تكون من مصلحتها عودة الملاحة والتجارة إلىٰ البحر المتوسط مثل فرنسا، والإمارات الإيطالية..... جنوه..... البندقية... وغيرها. ولا بد من أن يُقدّم بعض التنازلات ليحصل علىٰ مثل هذه الاتفاقيات. وظنّ الخليفة أن هذه الاتفاقيات موقتة، وما دامت القوة بيده فإنه يستطيع أن يُلغيها في الوقت الذي يريد، بل يمكنه أن يُحطّم هذه الدول صاحبة الاتفاقيات متىٰ شاء، ويُجبرها علىٰ أن تسلك ما يرغب.

عقد الخليفة سليمان القانوني اتفاقيةً مع دولة البندقية سنة ٩٢٨هـ تنصّ علىٰ حق قنصل البندقية في الدولة العثمانية بالنظر في تركات النصارىٰ، كما يحق له أن يُرسل ترجُمان لحضور المرافعات التي تُقام ضد رعايا البندقية. كما سمحت الاتفاقية للبندقية بالبقاء في جزيرة قبرص مقابل دفع عشرة آلاف دوك في كل سنةٍ.

وعقد اتفاقيةً مع فرنسا سنة ٩٤٢هـ مؤلفةً من ستة عشر بنداً ومما جاء فيها:

يحق لرعايا فرنسا المتاجرة مع العثمانيين ونقل البضائع من وإلىٰ الدولة العثمانية براً وبحراً، ويحق لقنصل فرنسا في إستانبول أو أثينا أن يحكم ويقطع بمقتضىٰ قانونه، في جميع ما يقع في دائرته من القضايا المدنية والجنائية بين رعايا ملك فرنسا، دون أن يمنعه من ذلك حاكم أو قاضٍ شرعي أو أيّ موظفٍ آخر، ويحق لقنصل فرنسا الاستعانة بالسلطة العثمانية لتنفيذ ما قضىٰ به. (من بند الاتفاقية الثالث).

لا تسمع الدعاوىٰ المدنية التي يقيمها السكان العثمانيون أو جباة الخراج ضد التجار الفرنسيين أو رعايا ملك فرنسا. (من البند الرابع).

يُدعىٰ المتهمون الفرنسيون إلىٰ مكان الصدر الأعظم الرسمي، ولا يحق دعوتهم إلىٰ المحكمة أو أيّ مكانٍ آخر. (من البند الخامس).

لا يجوز محاكمة التجار الفرنسيين ومستخدميهم فيما يختص بالمسائل الدينية أمام القاضي، وإنما تكون محاكمتهم أمام الباب العالي. ولهم الحق باتباع شعائرهم. (من البند السادس).

إذا خرج فرنسي من الدولة العثمانية وعليه ديون فلا يُطالب بها أحد، ولا يُسأل القنصل الفرنسي عن

ذلك، وكذلك لا تُطالب المملكة الفرنسية بذلك. (من البند السابع).

لا يجوز استخدام أملاك الفرنسيين علىٰ كرهٍ منهم. (من البند الثامن).

ما يتركه الفرنسيون في الدولة العثمانية بعد وفاتهم يُنقل أو يُوزّع بمعرفة القنصل. (من البند التاسع).

واشترط ملك فرنسا أن يكون للبابا، ولملك انكلترا أخيه وحليفه الأبدي، ولملك إيقوسيا الحق بالاشتراك بمنافع هذه المعاهدة.

وهكذا أصبح لرعايا فرنسا وحلفائها دولة ضمن دولة، محاكمهم خاصة وعلىٰ أعلىٰ مستوىٰ، وفي مقر الصدر الأعظم، ولا يحقّ للعثمانيين التدخّل في شؤونهم، وإنما يكون ارتباطهم بالقنصل، وفي الوقت نفسه أصبح الفرنسيون يتصلون برعاياهم مباشرةً، وأصبحوا تبعاً لهم، ويرتبطون بهم لا بغيرهم.

ونسي الخليفة أن هذه الاتفاقيات أصبحت ملزمةً لمن يأتي بعده، وإذا كان هو يستطيع تغييرها وإلغاءها فإن غيره قد لا يكون قادراً علىٰ تغييرها، بل لا يمكنه، وهذا ما حدث فقد أصبحت طوقاً في أعناق الخلفاء فيما بعد وتقودهم إلىٰ الهاوية.

ونسي الخليفة من جهةٍ ثانيةٍ أن هذه الدول التي كانت توافقه ظاهراً علىٰ عودة الملاحة إلىٰ البحر المتوسط، كانت عواطفها مع البرتغاليين والإسبان إخوانها بالعقيدة، ونعرف أنها كانت تدعمهم بكل ثقلها وإمكاناتها لطرد المسلمين من الأندلس حتىٰ تمّ لهم ذلك.

إذن بدأت الدول الأجنبية تتدخّل في شؤون الدولة العثمانية عن طريق رعاياها من النصارىٰ، كما أصبحت معنويات هؤلاء الرعايا عاليةً حتىٰ أنهم لا يهتمون بالدولة أبداً، ويتصرّفون كما يريدون، الأمر الذي سبّب للدولة ازعاجاً وضعفاً إذ كانوا يُحرّضون السكان علىٰ التمرّد ويُؤسسون الجمعيات لذلك.

٦" ـ الزواج من الأجنبيات:

يحلّ للمسلمين الزواج من الفتيات المحصنات من أهل الكتاب، الذين يعيشون مع المسلمين وبعهدٍ معهم، فهم ضمن الرعاية الإسلامية كما عرفوا الكثير عن الإسلام لقربهم من أهله ومن المعاملات القائمة في المجتمع، وربما كانت بعضهن قد رغبت بالإسلام ولكن تخشىٰ أهلها، والزواج وسيلة للدخول بالإسلام، ولكن يكره الزواج من فتيات أهلِ الكتاب إن كانت هناك

حروب بين المسلمين وأهل الكتاب، أو كانت الرغبة بهذا الزواج من مسؤولين من أهل الكتاب لخطةٍ مرسومةٍ، كتأدية دورٍ كأن تكون الفتاة عيناً لأهل عقيدتها، أو للتأثير علىٰ زوجها أو لتنشئة ولدها علىٰ عقيدتها والتأثير عليه إذا آل إليه أمر السلطة.

كان السلاطين يتزوجون من فتيات أهل الكتاب إعجاباً بجمالهن، أو لمصلحةٍ سياسيةٍ كأن يتزوجون بنات الأمراء من الأعداء، ويرغبون أن يبقىٰ هؤلاء الأمراء علىٰ وئامٍ مع الدولة دون تمرّدٍ، أو لتوطيد الصلات بين الدولتين، أو لتوثيق المعاهدات والاتفاقيات وما إلىٰ ذلك. غير أن هذه الزوجات قد يبقين علىٰ عقيدتهن السابقة، أو حتىٰ لو أظهرت الإسلام بأفواههن ولكن لم تُؤمن قلوبهن، فيبقىٰ ارتباطهن بأصحاب عقيدتهن أكثر بكثير من ارتباطهن بدولتهن الجديدة، لذلك يعملن لأبناء دينهن وهم من النصارىٰ غالباً، وهم من أعداء العثمانيين والمحاربين لهم، أو يكنّ من اليهود والأمر واحد في مرارته، هذا من جهةٍ ومن جهةٍ ثانيةٍ فإن هذه الزوجات يُربين أولادهن علىٰ محبة النصارىٰ، ومحاولة العمل لهم ولمصلحتهم قبل كل شيءٍ، وكذلك تحرص كل واحدةٍ علىٰ تولية ابنها السلطنة أو الخلافة ليكون لابنها دور

كبير، ويكون لها نفوذ واسع وغالباً ما يكون لمصلحة أبناء عقيدتها، وخلاف ابنها مع إخوته يكون لمصلحة أعداء العثمانيين. وقد مرّ معنا سابقاً أن أم السلطان محمد الفاتح قد بقيت علىٰ عقيدتها السابقة، وهي النصرانية، وكذلك زوجة أبيه الأخرىٰ (مارا) ابنة أمير الصرب، وقد أعادها محمد الفاتح إلىٰ أهلها بعد أن تولّىٰ السلطنة. كما مرّ معنا دسائس (روكسلانة) اليهودية الروسية زوجة الخليفة سليمان القانوني، كي يتولّىٰ ابنها سليم الثاني الخلافة بعد أبيه، وقد نجحت بذلك.

وغالباً ما يسعىٰ الأعداء لزواج قادةٍ مسلمين من فتياتهم، عند عقد اتفاقيات أو مصالحة أو هدنة تحت شعار توثيق هذه الاتفاقيات وتأكيدها، والحقيقة إنما هو تخطيط لتكون هذه الزوجات عيوناً لأهلها أو أصابع فتنةٍ وتهديمٍ وتخريبٍ، وتكون هذه الفتاة قد دُرّبت بشكلٍ جيدٍ قبل الزواج وأُعطيت التعليمات الكافية للذي ستقوم به، وتصل إليها بعد الزواج المراحل المطلوبة والمخططات المرسومة، كما تنقل هي لأهلها ما قامت به وما هي بصدد عمله وتطلب التوجيه. واستمرّ هذا الأسلوب بعد الدولة العثمانية، إذ نجد اليوم زواج رؤساء مسلمين من فتياتٍ من الأعداء ضمن مخططٍ مرسومٍ، وربما تُوجّه الأنظار إلىٰ من يدرس في بلاد

الأعداء فيطلب من بعضهن متابعته والعمل علىٰ إغرائه ويتمّ الزواج، ويعمل الأعداء جاهدين ليصل هذا الزوج إلىٰ رأس الهرم، وغالباً ما ينجحون لنفوذهم الواسع وأثرهم الواضح، وتصل ابنتهم الزوجة إلىٰ المكانة المرموقة وتؤدّي ما تستطيع من الدور المُعدّ لها بخفاءٍ تامٍ، وكتمانٍ شديدٍ، وعملٍ سديدٍ ـ فليت إخواننا يعلمون، وينتبهون، ويحذرون، ويقفون أمام هذه الألاعيب المرسومة ـ.

٧" ـ الجواري:

كان يعيش في قصور سلاطين وخلفاء الدولة العثمانية عدد من الجواري والخادمات والمحظيات، وأغلبهن من غير المسلمات، ومن المرسلات ضمن مخططٍ ليؤدّين دوراً معيناً، وكثيراً ما يتدخّلن في شؤون القصر لما يتمتّعن به من جمالٍ وحسن أداء المهمّة، وإظهار الأدب فيملكن قلوب صاحب القصر، ويعملن عيوناً لأبناء عقيدتهن ويُؤدّين دوراً معيناً.

٨" ـ الصليبية الأوربية:

كانت أوربا عامةً وعلىٰ رأسها الباب تُذكي الحماسة الصليبية ضد العثمانيين، كي تقف دول أوربا

وشعوبها كافةً في وجه التوسّع الإسلامي القادم من جنوب شرقي أوربا من الدولة العثمانية، ومع أن هذه الدول الأوربية لها مصالح تتضارب بعضها مع بعضٍ، وينتج عنها حروب إلا أنها تلتقي معاً ضدّ المسلمين.

وعندما تحاول بعض الدول الأوربية أن تستفيد من الدولة العثمانية لقوتها فتعقد معها اتفاقات ومعاهدات، إلا أنها لا تستطيع الدول الأوربية النصرانية أن تقوم بالتزاماتها كاملةً تجاه العثمانيين، بسبب الروح الصليبية التي تحملها، وبسبب التيار الأوربي الصليبي الذي تخشاه أيضاً بسبب مصالحها، ففرنسا عندما اتفقت مع الدولة العثمانية لتعملان معاً ضد النمسا، ومع أن مصالح فرنسا أكثر من مصالح الدولة العثمانية في ذلك، إذ أن أملاك النمسا كانت تحفّ بفرنسا من كل جهةٍ تقريباً، غير أن ملك فرنسا (فرانسوا الأول) أحجم عن متابعة تنفيذ الاتفاقية، خوفاً من أن يُرمىٰ بالمروق عن النصرانية، باتفاقه مع دولةٍ إسلاميةٍ ضدّ دولةٍ تدين بدينه وهو النصرانية، كما أن البابا قد هدّده بذلك. وربما كانت الامتيازات القنصلية التي قدّمها الخليفة العثماني سليمان القانوني لفرنسا والبندقية إنما كانت الغاية منها تحطيم وحدة الدول الصليبية ضده، وفكّ عقدها واستغلال خلافها فيما بينها، والواقع أنه قدّم الكثير،

والذي كان سبباً رئيسياً في ضعف الدولة العثمانية، والذي أسرع فيها بالسير نحو حتفها، إلا أن الخليفة سليمان لم يستفد كثيراً من هذه الامتيازات التي قدّمها لتلك الدول، ، إذ أن النزعة الصليبية هي المحركة لهم، وإن أظهروا موقتاً موافقتهم للعثمانيين أو أن مصالحهم برزت موقتاً فوق تعصبهم، ثم عادت فطغت الصليبية عندهم وعند غيرهم ضدهم، فأزالت كل ما كان ـ فليت إخواني يعلمون وينتبهون ـ.

وإن إذكاء الروح الصليبية لا يُثير الدول الأوربية فقط، بل ويُثير النصارىٰ وأولياءهم الذين يعيشون في رعاية الخلافة أيضاً، فكانوا يقومون بالحركات ضد الخلافة وتدعمهم الدول النصرانية كافةً، وهذا ما يؤدّي إلىٰ التمرّد وإشعال الثورات وبالتالي إلىٰ إنهاك الخلافة وإضعافها.

٩" ـ الحركات والثورات:

إن ضعف الدولة يجعل أصحاب الأطماع والمصالح يتحرّكون، هؤلاء يريدون تأسيس إمارةٍ لهم، وأولئك يريدون إقامة دولةٍ علىٰ أنقاض ما يبغون تهديمها، وآخرون يريدون اقتطاع أجزاء من الدولة القائمة يبنون عليها أمجادهم، وهناك من يسعىٰ لتحقيق

منفعةٍ، وقد ساعد الجميع اتساع رقعة الدولة العثمانية إذ يصعب عليها أن تطالهم بسهولةٍ، لبُعد الشقة أو لمناعة المنطقة ووعورة المسالك، ولضعف الدولة بصورةٍ أساسيةٍ. ونتيجة الامتيازات الأجنبية قد يكون هناك تحريض ودعم بشكلٍ سريٍ.

١٠" ـ الجمعيات السرية والتنظيمات:

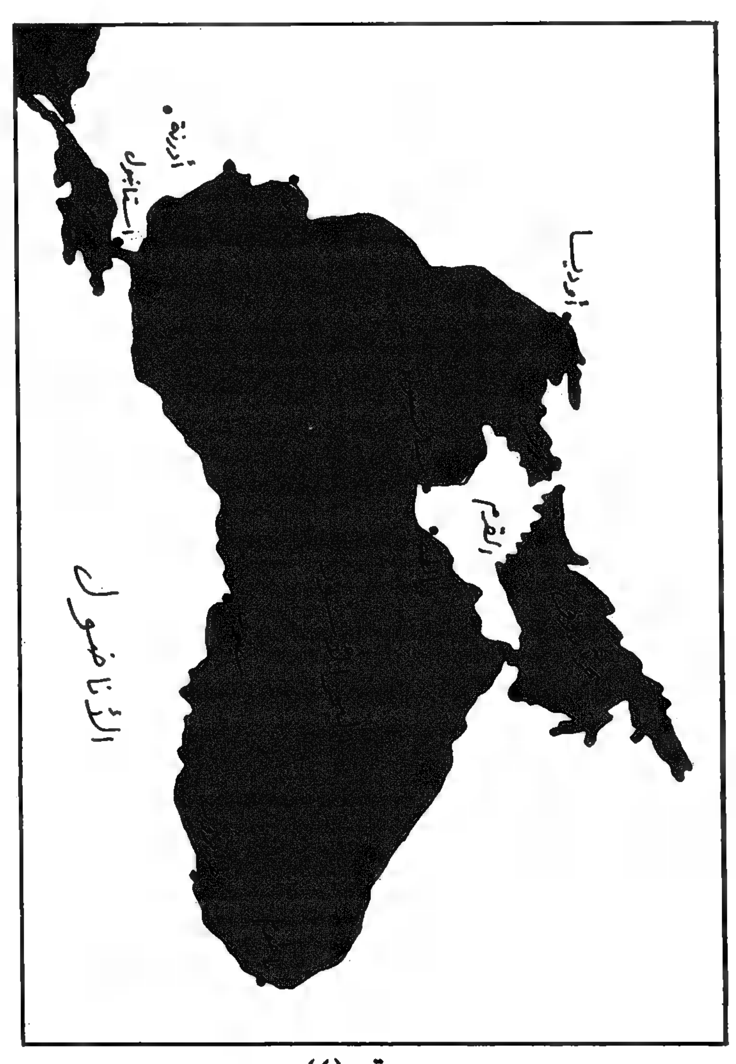
عندما ضعفت الدولة العثمانية تجرأ رعاياها النصارىٰ وساعدتهم الامتيازات الأجنبية، فأخذوا يؤسّسون الجمعيات وإن كانت تحمل ظاهراً الطابع الأدبي أو الصفة العلمية، إلا أنها في الحقيقة تعمل لهدم الدولة من الداخل، مثل التفرقة فتدعو إلىٰ قوميةٍ معينةٍ فتتجزأ بذلك الأمة المسلمة إلىٰ قومياتٍ متنافرةٍ، أو تُشيع هذه التنظيمات أفكاراً مخالفة للإيمان، أو تدعو شباباً طائشين من أصحاب الشهوات إلىٰ سهراتٍ مختلطةٍ عندهم في بيوت رجال تلك التنظيمات، وذلك كله في سبيل الهدم والنخر في جسم الدولة العثمانية المسلمة.

١١" ـ مخالفة الشريعة الإسلامية:

عندما قامت الدولة العثمانية كانت العاطفة

الإسلامية قويةً جيّاشةً، ولكن العاطفة لا تكفي، فلما تبعتها التربية الإسلامية والتدريب السليم كان الجهاد فكانت القوة وانطلقت الفتوحات، لكن ضعفت التربية بعد حينٍ وبدأت المخالفات تدريجياً، فظهرت أعمال السلب والمخالفة عند الفتح ودخول المدن، وهذا انحراف وتمسّك بذلك العسكر الانكشارية لتحقيق أطماعهم ورغباتهم، وصعُب إجبارهم بالتخلّي عن ذلك فوُجد عدم الطاعة والمخالفة واستمرّ الانحراف والمخالفة، وغدا التقليد واتسع مجال البعد عن المنهج الصحيح، ووُضعت راية الجهاد، وضعفت الدولة.

لم تكن تُلقىٰ الدروس والخطب الإيمانية لترتفع معنويات الجند وتعلو راية الجهاد، بل يكتفون بالقول بأننا نُقاتل كفاراً، ويكتفون بالعاطفة إن كانت قد بقيت عاطفة وإن وُجدت فعند القليل، أما الباقي فلا يعرفون شيئاً لِمَ يقاتلون؟ ومن يقاتلون؟ بل هو تنفيذ أوامر وطاعة القادة، كما لم يستطيعوا نشر الإسلام في المناطق التي يفتحونها حيث لم تكن عندهم إمكانات وفاقد الشيء لا يُعطي شيئاً. وإن حاولوا أحياناً نشر الإسلام بالسيف، وهذا لا يفيد، وإن أفاد فظاهراً ولا يلبث أن يتغيّر. أما اتخاذ الفكر والإقناع والقدوة الحسنة والتطبيق الصحيح للإسلام لتظهر النتائج المشجّعة فهذا قليل.



مصور رقم (٤)

ـ ٣ ـ

سليم الثاني

(٩٧٤ ــ ٩٨٢هـ)

سليم الثاني بن الخليفة سليمان القانوني ولد في ٦ رجب سنة ٩٣٠هـ في خلافة أبيه، وأمه (روكسلانة) الروسية اليهودية، تولّىٰ الخلافة بعد وفاة أبيه ٢٠ صفر سنة ٩٧٤هـ، وبعد أن قتل أبوه ابنيه الآخرين مصطفىٰ وبايزيد.

وصل سليم الثاني إلىٰ إستانبول في ٩ ربيع الأول سنة ٩٧٤هـ، وبعد أن أقام فيها يومين سار بسرعةٍ إلىٰ مكان وفاة أبيه في بلاد المجر، للاحتفال بإرجاع جثّة أبيه إلىٰ إستانبول فقابله خارج المدينة سفيرا فرنسا والبندقية القادمان إليه لتهنئته بالخلافة، ثم تابع سيره فوصل إلىٰ مدينة (صوفيا) قاعدة بلغاريا في ٢١ ربيع الأول سنة ٩٧٤هـ، فأرسل الرسل إلىٰ الممالك الخارجية كافةً والولايات العثمانية جميعها يخبرهم بموت أبيه واستلامه الخلافة. ثم قصد مدينة (بلغراد) قاعدة الصرب وأقام فيها حتىٰ أتىٰ الوزير محمد باشا

صقلّي بجثة والده، وكان الوزير قد كتم وفاة الخليفة، وهناك أعطىٰ الخليفة الجديد العطايا للجنود بعد أن تمنّع فأظهروا العصيان فاضطر إلىٰ العطاء.

كان سليم الثاني ضعيفاً ليس أهلاً للخلافة، إلا أن هيبة الخلافة في عهد أبيه وقوة وزيره محمد باشا صقلي قد خفّف من ظهور الضعف مباشرةً.

عقدت الدولة العثمانية صلحاً مع النمسا سنة ٩٧٦هـ اعترفت فيه بأملاك النمسا في المجر، وعلىٰ أن تدفع النمسا مقابل ذلك الجزية السنوية المقرّرة وتعترف بتبعية أمراء ترانسلفانيا، والأفلاق، والبغدان للدولة العثمانية.

وجدّدت الدولة العثمانية المعاهدة مع بولونيا مع اعترافها بالتحالف الذي تمّ بين ملك بولونيا وأمير البغدان.

كما تجدّدت المعاهدة مع فرنسا سنة ٩٧٧هـ، وكان ملك فرنسا شارل التاسع الذي تولّىٰ الحكم بعد موت أخيه فرانسوا الأول، وهما ولدا الملك هنري الثاني. وأيّد الخليفة سليم الثاني الامتيازات القنصلية الفرنسية، ونتيجة ذلك بدأت فرنسا ترسل إرساليات نصرانية كاثوليكية إلىٰ رعاياها في الدولة العثمانية

وخاصةً بلاد الشام، وبذلك بدأ العمل من داخل الخلافة ضد العثمانيين، وتربية النصارىٰ في ديار الإسلام الذين هم أهل ذمة علىٰ الارتباط بفرنسا. وأيّدت الدولة العثمانية ترشيح أخي ملك فرنسا ملكاً علىٰ بولونيا تحدّياً لروسيا، وأصبحت بولونيا تحت حماية الدولة العثمانية.

استطاعت الدولة العثمانية قمع ثورةٍ قامت باليمن بإمرة المطهر بن شرف الدين يحيىٰ، إذ أرسلت جيشاً كبيراً بإمرة عثمان باشا، ودعم والي مصر سنان باشا ذلك فقضت علىٰ الثورة سنة ٩٧٦هـ، وفي أوائل سنة ٩٧٧هـ اعترف المطهر شرف الدين بسيادة الخلافة العثمانية علىٰ بلاده.

كانت جزيرة قبرص تتبع إمارة البندقية الإيطالية، فأرسلت الدولة العثمانية سنة ٩٧٨هـ حملةً بحريةً إلىٰ قبرص بإمرة (بيالي باشا)، يبلغ عدد جندها مائة ألف جندي بإمرة (لاله مصطفىٰ باشا) فرست المراكب أمام ميناء (ليماسول) الذي تم فتحه في ٨ ربيع الثاني سنة ٩٧٨هـ، ثم أُلقي الحصار علىٰ ميناء (فماغوست) ولاقتراب فصل الشتاء أُمهل فتحها إلىٰ أوائل فصل الربيع فلما اقترب أُعيد حصارها وتمّ فتحها في ١٠ ربيع الأول سنة ٩٧٩هـ.

غزا العثمانيون جزيرة كريت ولكن لم يتمكّنوا من فتحها.

وغزا العثمانيون أيضاً بعض المراكز علىٰ بحر الأدرياتيك التابعة لإمارة البندقية واستولوا عليها، فأسرعت إمارة البندقية وعقدت حلفاً مع البابا وإسبانيا واتفقوا علىٰ حرب الدولة العثمانية بحراً، خوفاً من امتداد سلطانها علىٰ بلاد إيطاليا، فجمعوا مراكبهم فكانت ٢٣١ مركباً منها ١٤٠ للبندقية و٧٠ لإسبانيا و١٢ للبابا و٩ لرهبان مالطة، وأبحرت هذه المراكب نحو الشرق بقيادة دون جوان بن شارلكان، والتقت يوم ١٧ جمادىٰ الأولىٰ سنة ٩٧٩هـ في بحر الأدرياتيك، وكانت المراكب العثمانية ٣٠٠ مركبٍ واشتبك الطرفان مدة ثلاث ساعاتٍ انتهت بانتصار الصليبيين فأُخذ ١٣٠ مركباً عثمانياً وأُحرق، وأغرق ٩٤ مركباً عثمانياً، كما ربح الصليبيون ٣٠٠ مدفعاً، وأخذوا ثلاثين ألف أسيرٍ.

ابتهج البابا وأعلن الانتصار الصليبي، وتأثر المسلمون في إستانبول وهمّوا بالقضاء علىٰ النصارىٰ في مدينتهم ولكن الوزير محمد باشا الصقلي منعهم من ذلك.

أسرع الوزير بإنشاء أسطولٍ جديدٍ للثأر مما وقع.

اختلف النصارىٰ فيما بينهم إذ عرضت إمارة البندقية الصلح معترفةً بدخول العثمانيين جزيرة قبرص، كما دفعت غرامةً حربيةً خوفاً من تجدُّد القتال، وقد تمّ الصلح سنة ٩٨٠هـ.

وأما إسبانيا فقد احتلّ (دون جوان بن شارلكان) تونس سنة ٩٨٠هـ وارتحل العثمانيون عنها دون قتالٍ لقلة عددهم، وأُعيد مولاي حسن الحفصي إلىٰ الحكم، لكن العثمانيين عادوا فاسترجعوا تونس بعد ثمانية أشهرٍ بقيادة سنان باشا.

وحدث تمرّد في إمارة البغدان ولكن قضي عليه سنة ٩٨١هـ.

وتوفي الخليفة سليم الثاني في ٢٧ شعبان سنة ٩٨٢هـ بعد أن حكم ثمانية أعوامٍ وخمسة أشهرٍ، وكان عمره يوم وفاته اثنتين وخمسين سنةً.

وتوفي عن ستة أبناء وهم: مراد ومحمد وسليمان ومصطفىٰ وجهانكير وعبد الله، وثلاث بنات، وخلفه ابنه مراد الثالث.

ـ ٤ ـ

مراد الثالث

(٩٨٢ ــ ١٠٠٣هـ)

مراد الثالث بن سليم الثاني ولد في إستانبول في ٥ جمادىٰ الأولىٰ سنة ٩٥٣هـ، وتولّىٰ الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٩٨٢هـ فكان عمره تسعاً وعشرين سنةً.

كانت أول أعماله أن أصدر أمراً بمنع شرب الخمور الذي شاع وخاصةً بين الإنكشارية، فثارت الإنكشارية وألزموه بالتنازل عما أمر.

أمر بقتل إخوته الخمسة خوفاً من منازعتهم له علىٰ الخلافة.

ترك ملك بولونيا (هنري دي فالو) منصبه وعاد إلىٰ فرنسا، فأوصىٰ الخليفة أعيان بولونيا بانتخاب أمير ترانسلفانيا (باتوري) ملكاً عليهم، وأصبحت بولونيا تحت الحماية العثمانية سنة ٩٨٣هـ.

وقعت عدة مناوشات بين العثمانيين والنمساويين سالت فيها الدماء من الطرفين وذلك دون إعلان حربٍ، ثم أُعلنت هدنة سنة ٩٨٤هـ لمدة ثماني

سنواتٍ، وعند بيان أملاك الدولة العثمانية بهذه المعاهدة ذُكرت بولونيا ضمن الأقاليم التي للدولة العثمانية حق السيادة عليها.

أغار التتار سنة ٩٨٤هـ علىٰ حدود بولونيا، فاستنجدت بالخليفة فأعلن حمايتها بمعاهدةٍ رسميةٍ.

جدّد الخليفة للدول الأوربية امتيازاتها، وهي فرنسا والبندقية وزاد عليها أن أصبح السفير الفرنسي يأتي في مقدمة سفراء الدول الأجنبية الذين كثروا في إستانبول، وكانت كل سفن الدول الأوربية تدخل الموانئ العثمانية تحت ظلّ العلم الفرنسي باستثناء البندقية، ثم حصلت انكلترا علىٰ امتيازاتٍ لتُجَّارها أيضاً.

حدثت فتنة داخلية في المغرب سنة ٩٨٥هـ، إذ نازع أحد الزعماء السلطان بالملك وحدثت بينهما عدة وقائع فاستنجد سلطان المغرب بالدولة العثمانية، واستعان زعيم الفتنة بالبرتغاليين، فأوعز الوزير العثماني محمد باشا صقلّي إلىٰ والي طرابلس بإنجاد السلطان الشرعي، فأسرع بمساعدته والتقىٰ العثمانيون والبرتغاليون في معركة القصر الكبير جنوب مدينة طنجة انتصر فيها العثمانيون وحلفاؤهم علىٰ البرتغاليين

وأعوانهم، وأُعيد السلطان الشرعي إلىٰ الحكم، وأصبح شمالي إفريقية كله ضمن النفوذ العثماني.

ابتدأت الرسل بين الدولة العثمانية وإسبانيا للوصول إلىٰ الصلح، وبعد أن استمرت خمس سنواتٍ تمّ الصلح بينهما ولكن لم يمنع ذلك القراصنة علىٰ نهب السفن التجارية واسترقاق الرجال وسبي النساء.

قتال الصفويين:

توفي الشاه طهماسب الصفوي سنة ٩٨٤هـ، وخلفه ابنه حيدر فقتل بعد بضع ساعاتٍ وقبل دفن أبيه فدُفنا معاً، ثم تولّىٰ أخوه إسماعيل بن طهماسب فمات مسموماً سنة ٩٨٥هـ، وخلفه أخوه محمد خدابنده، وكانت البلاد منقسمةً عليه فاستغلّ الصدر الأعظم محمد باشا صقلّي وأرسل جيشاً بقيادة (لاله مصطفىٰ باشا) فسار إلىٰ بلاد الكرج، واحتلّ عاصمتها مدينة تفليس سنة ٩٨٥هـ بعد أن انتصر علىٰ جنود الشاه، وتفلّب علىٰ قائدهم المسمىٰ (دقماق)، وبعد أن انتصر علىٰ جيش الشاه مرةً ثانيةً رجع (لاله مصطفىٰ باشا) وجنوده إلىٰ مدينة (طرابزون)، وهي مدينة تركية علىٰ ساحل البحر الأسود وذلك لقضاء فصل الشتاء، فلما انقضىٰ فصل الشتاء سار العسكر العثمانيون بقيادة عثمان باشا فدخلوا

إقليم (شروان) غربي بلاد داغستان، ثم سار هذا القائد إلىٰ بلاد القرم عبر جبال القوقاز لتأديب خان القرم، الذي رفض إرسال مددٍ للعثمانيين لمحاربة الصفويين، وقد أنهك التعب عثمان باشا لبُعد الشقة، ووعورة الطريق، ومناوشة الروس له، وأخيراً وصل إلىٰ عاصمة القرم مدينة (كافا)، وكان خان القرم محمد كراي قد جمع جيشاً عظيماً من رجال قبائل القوزاق أصحاب الشجاعة، وحاصر عثمان باشا وجيوشه التي أضناها التعب وأنهكها السير، فمنّىٰ عثمان باشا بالحكم (إسلام كراي) أخا محمد كراي فعصىٰ إسلام كراي علىٰ أخيه وانضمّ إلىٰ العثمانيين فتفرّق جيش الخان عنه، وقُتل بالسمّ بدسيسة أخيه الذي طمع بالإمارة، ولولا ذلك لانتصر الخان محمد كراي علىٰ العثمانيين ـ والله أعلم ـ. فدخل عثمان باشا مدينة كافا عاصمة خان القرم، ورجع براً إلىٰ إستانبول، وعُيّن صدراً أعظم سنة ٩٩٢هـ وكان محمد باشا الصقلي قد قُتل وكثر العزل والتولية بعده، وكان عماد الدولة وركنها الأساسي.

سار عثمان باشا بجيش ضخم يضمّ ٢٦٠ ألف مقاتلٍ قاصداً بلاد أذربيجان، فاخترقها دون كبير مقاومةٍ، وتابع سيره إلىٰ قتال الصفويين فانتصر علىٰ قائدهم (حمزة ميرزا) ودخل عاصمتهم مدينة تبريز، وهو

الدخول العثماني الرابع لها. ثم جرىٰ الصلح بين الطرفين، وتنازل الصفويون للعثمانيين عن بلاد الكرج (جورجيا)، وإقليم شروان، ولورستان الواقعة جنوب أذربيجان وذلك سنة ٩٩٣هـ. ثم قلت الحروب العثمانية.

ومع توقّف الحرب ثارت الإنكشارية الذين اعتادوا النهب والسرقات فثاروا في إستانبول، والقاهرة، وتبريز، وبودا، وقتلوا والي بودا (عاصمة المجر) فأشار سنان باشا الذي أُعيد إلىٰ الصدارة العظمىٰ سنة ٩٩٧هـ بإشغالهم بالحرب في بلاد المجر، وأوعز إلىٰ حسن باشا والي بلاد البوشناق (البوسنة) أن يجتاز حدود بلاد المجر إعلاناً للحرب. وبدأ القتال ولكن بجنودٍ عثمانيةٍ اختلّ نظامها فكانت الحرب سجالاً، ثم قُتل حسن باشا، وانهزم والي بودا، وهُزم الجيش العثماني أمام النمسا التي دعمت المجر، ودخلت النمسا عدة قلاعٍ عثمانيةٍ وبقيت بيدها حتىٰ استردّها سنان باشا سنة ١٠٠٣هـ.

وأعلن أمراء الأفلاق، والبغدان، وترانسلفانيا التمرّد، وانضمّوا إلىٰ النمسا في حربها مع العثمانيين، فسار إليهم سنان باشا سنة ١٠٠٣هـ، ودخل مدينة بخارست عاصمة الأفلاق. إلا أن أمير الأفلاق

(ميخائيل) قام بردّ فعلٍ واستطاع أن يُحرز النصر، فانسحب العثمانيون إلىٰ ما وراء نهر الدانوب، وخسروا عدة مدنٍ.

تولّىٰ (فرهاد باشا) الصدارة العظمىٰ سنة ٩٩٩هـ، ثم أُعيد (سياوس باشا) سنة ١٠٠٠هـ.

أُصيب الخليفة مراد الثالث بداءٍ عُضالٍ وتوفي في ٨ جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٠٠٣هـ، وله من العمر خمسون سنةً وكانت مدة ملكه إحدىٰ وعشرون سنةً. وكان كثير الميل لاقتناء الجواري الحسان، ويعمل بمشورتهن، وكان من بينهن جارية بندقية الأصل، وسميت صفية، وتدخلت كثيراً بالسياسة، وساعدت بلادها الأصلية كثيراً بالسياسة الخارجية، وهي والدة الخليفة محمد الثالث.

ـ ٥ ـ

محمد الثالث

(١٠٠٣ ــ ١٠١٢هـ)

محمد بن مراد الثالث ولد في ٧ ذي القعدة سنة ٩٧٤هـ، وتولّىٰ الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ١٠٠٣هـ، وأمه جارية بندقية الأصل أُطلق عليها اسم (صفية). كان له تسعة عشر أخاً غير الأخوات فأمر بخنقهم قبل دفن أبيه، ودُفنوا معه مقابل أيا صوفيا.

ترك شؤون الدولة الداخلية بيد الصدر الأعظم سنان باشا والوزراء الآخرين، فكثرت المفاسد وتوالت الهزائم علىٰ جيوش الدولة.

هُزمت جيوش الخلافة أمام أمير الأفلاق (ميخائيل)، الذي استطاع بمساعدة النمسا أن يضمّ إليه إقليم البغدان والجزء الأكبر من إقليم ترانسلفيانيا لعدم وجود القادة الأكفاء.

رأىٰ محمد الثالث ما حلّ بجيوشه فقادها بنفسه، وهزم جيوش النمسا والمجر في معركة (كرزت) سنة ١٠٠٥هـ، واستمرت المعارك بين الطرفين وكانت سجالاً.

وحدثت ثورة في الأناضول أيام خلافة محمد الثالث

كان عمادها العسكر الذين فرّوا من معركة (كرزت) حيث نُفوا إلىٰ الأناضول، فقام أحدهم، واسمه (قره يازجي)، وادّعىٰ رؤية الرسول ﷺ بالمنام، ووعده بالنصر علىٰ آل عثمان فأعلن التمرّد، وتبعه عدد كبير من الجنود المنفيين، ودخل مدينة عينتاب، وحاصرته الجيوش العثمانية فأعلن الاستسلام علىٰ أن يُعطىٰ ولاية (أماسيا) فوافق العثمانيون علىٰ ذلك، فلما ابتعدت عنه الجيوش أظهر العصيان ثانيةً، وساعده أخوه (دلي حسن) والي بغداد فجاءه الجيش العثماني بقيادة صقلّي حسن باشا فانتصر علىٰ (قره يازجي) الذي توفي متأثّراً بجراحه، وجاء أخوه (دلي حسن) وانتصر علىٰ (صقلي حسن باشا) وقتله سنة ١٠١٠هـ، فلما قوي أمره أخذته الدولة بالسلم والإرضاء، وأعطته ولاية البوسنة فانصرف لقتال الأوربيين حتىٰ فني وجنوده.

وقامت ثورة الخيالة (السباهية) في إستانبول مطالبين بالتعويض عما لحق إقطاعاتهم من أضرارٍ بسبب الثورة هناك، ولم يكن بإمكان الدولة أن تعطيهم لعجزها فاستعانت بالإنكشارية عليهم وقضت علىٰ ثورتهم، بعد أن أفسدوا ونهبوا المساجد وغيرها مما وصلت أيديهم إليها.

وتوفي الخليفة محمد الثالث في ١٢ رجب سنة ١٠١٢هـ، وعمره سبع وثلاثون سنةً، وكانت مدة حكمه ٩ سنواتٍ، وخلفه ابنه أحمد الأول.

- ٦ -
أحمد الأول
(١٠١٢ ـ ١٠٢٦هـ)

ولد أحمد الأول بن الخليفة محمد الثالث في ١٢ جمادىٰ الآخرة سنة ٩٩٨هـ، وتولّىٰ الخلافة بعد وفاة والده محمد الثالث في ١٢ رجب سنة ١٠١٢هـ، ولم يتجاوز الرابعة عشرة من العمر، ولم يقتل أخاه مصطفىٰ ـ كما جرت العادة ـ وهو أصغر منه بثلاث سنواتٍ بل اكتفىٰ بحجزه بين الخدم والجواري. وقامت في عهده عدة حركاتٍ ضد الدولة، ومنها:

حركة (جان بولاد) الكردي، وحركة والي أنقره (قلندر أوغلي)، وحركة فخر الدين المعني الثاني حفيد فخر الدين المعني الأول الذي انضمّ إلىٰ السلطان سليم الأول العثماني عندما دخل بلاد الشام سنة ٩٢٢هـ، وآل المعني أسرة درزية، وقد تمكّن فخر الدين المعني الثاني الذي أخذ السلطة في جبل لبنان سنة ٩٩٩هـ أن يجمع الذين يعادون الإسلام من كل فرقةٍ كالنصارىٰ، والنصيرية، والدروز و. . . وأن يتقرّب من الخليفة

ويُظهر له الطاعة حتىٰ أعطاه حق الإشراف علىٰ منطقة جبل لبنان والسواحل وبعض الأجزاء القريبة منها، ولما قوي أمره فاوض الطليان فدعموه بالمال فبنىٰ القلاع والحصون، وشكّل جيشاً زاد عدد أفراده علىٰ أربعين ألفاً، ثم أعلن العصيان سنة ١٠٢٢هـ غير أنه هُزم ففرّ إلىٰ إيطاليا، وكان قد تلقّىٰ الدعم من البابا، ومن إمارة فلورنسا الإيطالية، ومن رهبان فرسان القديس يوحنا في جزيرة مالطة.

قيّض الله للدولة العثمانية في هذه المرحلة الوزير مراد باشا الذي عُيّن صدراً أعظم، وكان قد تجاوز الثمانين من العمر، فكان عوناً وعضداً للخليفة الفتىٰ فتقلّد مع كبر سنه وضعف قواه قيادة الجيوش، وحارب الثائرين بهمةٍ ونشاطٍ زائدين فانتصر علىٰ فخر الدين المعني، وجان بولاد واقتفىٰ أثرهما حتىٰ اختفيا في بادية الشام، واستمال (قلندر أوغلي) أحد زعماء الثورة في الأناضول وعيّنه والياً علىٰ أنقره، وقبض علىٰ آخر ويُدعىٰ أحمد بك وقتله بعد أن فرّق جنده بالقرب من قونية. ولما رأىٰ جان بولاد ذلك بعد نجاحه بالثورة سافر إلىٰ إستانبول وأظهر الطاعة للخليفة فعفا عنه وعيّنه والياً.

وانتصر الصدر الأعظم مراد باشا علىٰ من بقي من

العصاة قرب بحيرة (وان) في شرقي الأناضول، وقتل آخر زعمائهم المدعو يوسف باشا الذي كان قد استقل بأقاليم (صاروخان) و(منتشا) و(آيدين)، فعاد الهدوء وساد الأمن بهمة الصدر الأعظم مراد باشا الذي لقّب نفسه سيف الدولة.

الجبهة مع الصفويين:

تولّىٰ أمر الصفويين الشاه عباس الكبير سنة ٩٩٥هـ فوجد نفسه بين العثمانيين في الغرب وبين الأوزبك في الشرق، فعقد معاهدةً مع العثمانيين وتنازل لهم فيها عن الكثير ـ كما مر معنا ـ واتجه إلىٰ الشرق فانتصر علىٰ الأوزبك، ثم عاد الشاه عباس الكبير إلىٰ قتال العثمانيين بعد هدوءٍ دام علىٰ الجبهة ما يقرب من خمس عشرة سنةً، واستغلّ فرصة اشتغال العثمانيين بالحركات في الأناضول فقام بهجومٍ علىٰ القلاع العثمانية واستردّ تبريز، وأريفان عاصمة أرمينيا، وشروان، وقارص، ثم أبرم الصلح مع العثمانيين سنة ١٠٢١هـ فقدت بموجبه الدولة العثمانية كل ما ضمّه الخليفة سليمان القانوني من أراضٍ في تلك الجهات بما في ذلك بغداد، وكان هذا بداية التراجع.

استبدّ النمساويون ببلاد المجر أثناء اشتغال الدولة

العثمانية بحروبها الداخلية، وأساء النمساويون معاملة أشراف المجر لإخلاصهم للدولة العثمانية، إذ سبق لهم أن طلبوا حماية العثمانيين ليتخلّصوا من استرقاق النمسا لهم، وانتخب المجريون الأمير (بوسكاي) ملكاً عليهم سنة ١٠١٤هـ، فسرّ ذلك الدولة العثمانية وأمدت (بوسكاي) بجيوشها التي افتتحت عدة حصونٍ في زمنٍ يسيرٍ. وخشيت النمسا من امتداد الفتوحات العثمانية فسعت في إبعاد (بوسكاي) عن الدولة العثمانية فاعترفت بانتخابه ملكاً للمجر وأميراً لترانسلفانيا، وتنازلت عن الأقاليم المجرية كافةً.

ولزيادة اضطراب أحوال الدولة العثمانية في آسيا وصعوبة الحرب مع النمسا دون مساعدة جيوش المجر، فقد أبرمت الدولة العثمانية صلحاً مع إمبراطور النمسا سنة ١٠١٥هـ تخلّصت فيه النمسا مما كانت تدفعه من جزيةٍ سنويةٍ للعثمانيين علىٰ أن تدفع مائتي ألف دوكاً دفعةً واحدةً، وكانت الجزية السنوية ثلاثين ألف دوكاً، وبقيت المجر بعد هذا الصلح إلىٰ جانب العثمانيين. وبعد التصديق علىٰ هذا الاتفاق من جميع أولي الشأن توفي (بوسكاي).

وجرت حروب بحرية بين السفن العثمانية وسفن إسبانيا، ورهبان القديس يوحنا في مالطة، والإمارات

الإيطالية وغالباً ما كانت الدائرة علىٰ العثمانيين، لذا فقد سُحبت السفن العثمانية من البحر الأسود وتوجّهت إلىٰ البحر المتوسط، فاستغلّ أمراء القازاق هذا التصرّف وأغاروا علىٰ ميناء (سينوب) ونهبوه، فوقع الخلاف بين الخليفة والصدر الأعظم نصوح باشا الذي قُتل إثر ذلك.

وجددت الدولة العثمانية امتيازات فرنسا، وانكلترا، وحصلت هولندا علىٰ مثلها، كما جُدّدت الاتفاقية مع بولونيا علىٰ أن تمنع الدولة العثمانية تعدّيات التتار علىٰ بولونيا.

انتشر تعاطي الدخان بواسطة الهولنديين، وبدأ تعاطيه من قبل الجنود، فأصدر المفتي فتوىٰ بمنعه فهاج الجند، وأيّدهم الموظفون فاضطر العلماء إلىٰ السكوت عنه.

وتوفي الخليفة أحمد الأول في ٢٣ ذي القعدة سنة ١٠٢٦هـ، وعمره ثمانٍ وعشرون سنةً، ومدة حكمه أربع عشرة سنةً أي نصف عمره تقريباً قضاه في السلطة.

ولصغر سنّ ولده عثمان الذي كان لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره لذا لم يُنصّب أكبر أولاده أو أحدهم بل أوصىٰ بالملك من بعده لأخيه مصطفىٰ.

ـ ٧ ـ

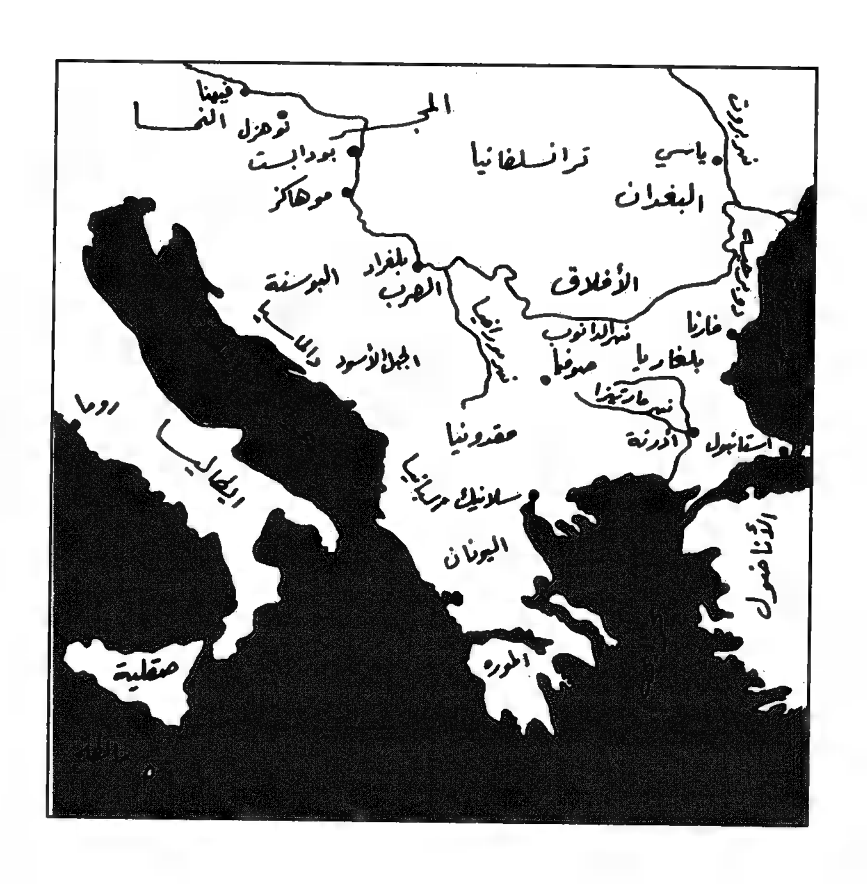
مصطفىٰ الأول

(١٠٢٦ ـ ١٠٢٧هـ)

(١٠٣١ ـ ١٠٣٢هـ)

مصطفىٰ الأول بن محمد الثالث وُلد سنة ١٠٠١هـ، لم يقتله أخوه أحمد الأول ـ كما جرت عليه عادة الحكام العثمانيين عندما يتولون الملك بقتل إخوتهم ـ بل حجزه بين الخدم والجواري لذا لم يعرف شيئاً عن أمور الحكم عندما آل إليه الأمر. فلما توفي الخليفة أحمد الأول سنة ١٠٢٦هـ كان ابنه عثمان صغيراً لذا عهد إلىٰ أخيه مصطفىٰ الأول، ولكن لم يلبث في الخلافة سوىٰ ثلاثة أشهرٍ حتىٰ عُزل ونُصّب ابن أخيه عثمان بن الخليفة أحمد الأول رغم صغره وذلك في بداية سنة ١٠٢٧هـ.

وأُعيد مصطفىٰ الأول إلىٰ الخلافة سنة ١٠٣١هـ بعد قتل ابن أخيه عثمان الثاني بن أحمد الأول، ثم عُزل مصطفىٰ الأول ثانيةً في ١٥ ذي القعدة سنة ١٠٣٢هـ وبقي معزولاً حتىٰ توفي سنة ١٠٤٩هـ.



فيينا
المجر
بودابست
موهاكز
ترانسلفانيا
ياسي
البغدان
الأفلاق
بلغراد
الصرب
البوسنة
الجبل الأسود
نهر الدانوب
صوفيا
بلغاريا
فارنا
أدرنة
استانبول
مقدونيا
سلانيك
اليونان
المورة
روما
صقلية

مصور رقم (٥)

- ٨ -

عثمان الثاني

(١٠٢٧ ـ ١٠٣١هـ)

ولد الخليفة عثمان الثاني بن أحمد الأول سنة ١٠١٣هـ، وتولّىٰ الخلافة بعد عزل عمه مصطفىٰ الأول في بداية سنة ١٠٢٧هـ.

أمر الخليفة بإطلاق سراح قنصل فرنسا، وكاتبه، ومترجمه الذين سجنهم عمه مصطفىٰ الأول لتدخّلهم في شؤون الدولة ومساعدة أحد أشراف بولونيا علىٰ الهرب من السجن، كما بعث الخليفة مندوباً لملك فرنسا لويس الثالث عشر، ويُسمّىٰ المندوب حسين جاووش بجواب اعتذارٍ عما حصل من الإهانة لسفيره وبذلك حُسمت هذه المشكلة.

قتل عثمان الثاني أخاه محمداً خوفاً من منازعته علىٰ الخلافة ـ حسب العادة السيئة المتبعة.

أعلن الحرب علىٰ بولونيا لتدخّلها بشؤون إمارة البغدان، لكن حدث الصلح بين الطرفين سنة ١٠٢٩هـ. بناءً علىٰ رغبة بولونيا، وطلب الانكشارية الذين تعبوا

من القتال فغضب عليهم، وعندما أراد استبدالهم بمن درّبهم ثاروا عليه، وقبضوا عليه، ثم قُتل بعد أن عزلوه، وأعادوا مكانه عمه مصطفىٰ الأول سنة ١٠٣١هـ، ولم يتجاوز عمر الخليفة عثمان الثاني الثامنة عشرة من عمره، ومدة خلافته أربع سنواتٍ وأربعة أشهرٍ.

كان الخليفة عثمان الثاني قد عفا عن فخر الدين المعني الثاني، وسمح له بالعودة إلىٰ جبل لبنان، فبدأ من جديدٍ بالتحّرك للثورة والعصيان.

عندما انتشرت الأخبار بقتل الخليفة تمرّد كل طامعٍ فأعلن والي طرابلس الاستقلال، وطرد الانكشارية من ولايته، كما أعلن العصيان والي أرضروم (أباظة باشا) ودخل سيواس وأنقرة، وزادت الاضطرابات، وعمّ نهب الانكشارية و.... ثم عيّنوا (كمانكش علي باشا) صدراً أعظم فأشار عليهم بعزل الخليفة مصطفىٰ الأول لعجزه، وتنصيب مراد الرابع بن الخليفة أحمد الأول.

وبعد ذلك أصبحت الحكومة بيد الانكشارية يُنصّبون الوزراء ويعزلونهم حسب أهوائهم.

- ٩ -

مراد الرابع

(١٠٣٢ ــ ١٠٤٩هـ)

مراد الرابع بن الخليفة أحمد الأول ولد في ٢٨ جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٠١٨هـ، وتولّىٰ الخلافة بعد عزل عمه الخليفة مصطفىٰ الأول سنة ١٠٣٢هـ، وكان عمره أربع عشرة سنةً، ولحداثة سنّه فقد سيطر عليه الإنكشارية في بداية الأمر، وبالأساس هم قد اختاروه صغيراً كي لا يكون معارضاً لهم في أعمالهم الاستبدادية، ولا يستطيع الوقوف أمام نفوذهم الذي اكتسبوه بقتل خليفةٍ وعزل غيره، وقد استمرّوا عشر سنواتٍ من حكمه علىٰ غيّهم وطغيانهم.

قام قائد الشرطة في بغداد (بكير آغا) وقتل الوالي، وتسلّم الأمر مكانه فأرسلت له الدولة العثمانية قوةً بقيادة (حافظ باشا) فسار إليه وحاصره في بغداد، فاتصل (بكير آغا) بالشاه عباس، وعرض عليه تسليم المدينة فسار نحوها، وفي الوقت نفسه اتصل بالقائد العثماني وعرض عليه تسليم المدينة علىٰ أن يتسلّم هو

ولايتها، فوافق القائد ودخلت جنوده المدينة قبل وصول الشاه، فلما وصل الشاه إليها وألقىٰ الحصار عليها مدة ثلاثة أشهرٍ اتصل بـ (ابن بكير آغا) وأغراه بتسليم الولاية فوافق، وخان الدولة، ودخل الشاه بغداد، وقتل (بكير آغا) وابنه معاً.

قُضي علىٰ الثائر (أباظة باشا) سنة ١٠٣٣هـ بعد معركة قيصرية، وسار الصدر الأعظم حافظ أحمد باشا لاسترداد بغداد غير أن الانكشارية لم يستمروا معه بالقتال، وعُزل الصدر الأعظم نتيجة ذلك، وعاد (أباظة باشا) للثورة، وأحرز النصر، وسار إليه الصدر الأعظم الجديد (خسرو باشا)، وأدخله بالطاعة، وعيّنه والياً علىٰ البوسنة سنة ١٠٣٧هـ.

توفي الشاه عباس الكبير كبير الصفويين سنة ١٠٣٨هـ، وتولّىٰ مكانه ابنه الصغير (شاه ميرزا) فاستغلّ الصدر الأعظم الفرصة وسار إلىٰ بلاد الصفويين، ودخل مدينة همدان سنة ١٠٣٩هـ، وحاصر بغداد، ولكن لم يتمكّن من فتحها بعد مرتين من الحصار.

وثارت الانكشارية فتأثر الخليفة من ثورتهم وإفسادهم، وكانت قد كبرت سنّه فوقف في وجههم، وقتل رؤوس الفتنة منهم فخافوه وسكنوا، وكانت آخر

ثورة للإنكشارية في آخر شهر شوال سنة ١٠٤١هـ حرّكها من يُدعىٰ (رجب باشا)، لغايةٍ في النفس فأمر الخليفة بقتله وإلقاء جثته من نافذة دار الحكومة حتىٰ يراها المتجمهرون، فسكنت الخواطر ولم يحصل ما يعبث بالأمن بعد ذلك في مدته.

وثار فخر الدين المعني الثاني في جبل لبنان فنهض إليه والي دمشق بأمرٍ من الخليفة وانتصر عليه، وأسره وولديه، وأرسلهم إلىٰ إستانبول غير أن الخليفة قد عاملهم بإكرامٍ رغم أنهم أكثر الناس خيانةً باتصالهم الدائم مع الصليبيين عامةً والطليان خاصةً، ثم البريطانيين، وأكثر الناس فساداً في العقيدة، وهذا ما جعل الكفار يثنون علىٰ فخر الدين المعني، وهذا الإكرام من قبل الخليفة شجّعهم، شجّع (قرقماز) حفيد فخر الدين بالتحّرك، لذلك فإن الخليفة أعاد النظر وقتل فخر الدين وابنه الكبير سنة ١٠٤٤هـ، وأرسل إلىٰ قرقماز من أخضعه.

وسار الخليفة بنفسه إلىٰ الصفويين، وفتح بعض القلاع، وأمر بقتل أخويه بايزيد وسليمان، ثم انطلق إلىٰ مدينة تبريز فدخلها عنوةً سنة ١٠٤٥هـ، ورجع الخليفة إلىٰ إستانبول فقويت عزيمة الصفويين، وانتصروا علىٰ الجيوش العثمانية، واستردّوا بعض القلاع، ووصلت

الأخبار إلىٰ إستانبول فرجع الخليفة علىٰ رأس جيشٍ فقويت معنويات العثمانيين وتمكّنوا من دخول بغداد سنة ١٠٤٨هـ، وإن فقدوا الصدر الأعظم طيار محمد باشا في ميدان المعركة، وبقيت بغداد بعدها بيد العثمانيين، وتمّ الصلح بين الدولتين سنة ١٠٤٩هـ.

وتوفي الخليفة مراد الرابع في ١٦ شوال سنة ١٠٤٩هـ، وكان عمره إحدىٰ وثلاثين سنةً، وقد حكم ١٦ سنةً و١١ شهراً.

وتولّىٰ بعده أخوه إبراهيم.

- ١٠ -

إبراهيم الأول

(١٠٤٩ ــ ١٠٥٨هـ)

إبراهيم الأول بن الخليفة أحمد الأول ولد في ١٢ شوال سنة ١٠٢٤هـ، وتولّىٰ الخلافة بعد أخيه مراد الرابع سنة ١٠٤٩هـ أي كان عمره يوم تسلّم الحكم خمساً وعشرين سنةً.

لم تكن عنده رغبة في قتال النمسا وقد أرسل إلىٰ أمير ترانسلفانيا يأمره بكفّ العدوان عنها.

احتلّت قبائل القازاق مدينة (آزوف) شمال البحر الأسود، فأرسل إليهم الخليفة إبراهيم الأول جيشاً استردّها سنة ١٠٥٢هـ.

كانت جزيرة كريت تتبع إمارة البندقية فأمر بتجهيز قوةٍ بحريةٍ، فتمّ ذلك، وسارت هذه القوة بإمرة يوسف باشا، وألقت مراسيها في أهم ثغور الجزيرة يوم ٢٩ ربيع الثاني سنة ١٠٥٥هـ، وتمَّ فتحها دون قتالٍ تقريباً لعدم وجود قوة البندقية البحرية. وأراد البنادقة الثأر فأحرقوا عدداً من مرافئ المسلمين في شبه جزيرة

الموره، وأراد الخليفة الردّ علىٰ ذلك بقتل النصارىٰ في بلاد الخلافة غير أن المفتي لم يوافقه علىٰ ذلك، وكان المفتي هو (أسعد زاده).

أراد الخليفة إبراهيم الأول أن يفتك برؤوس الانكشارية لمعارضته، فعلموا بذلك فتآمروا علىٰ عزله وتولية ابنه محمد الذي لم يزد عمره علىٰ السنة السابعة وقد تمّ ذلك سنة ١٠٥٨هـ، وبعد عشرة أيامٍ رغب الخيّالة (السباهية) إعادة الخليفة إبراهيم فخاف الذين عملوا علىٰ عزله لذا فقد أسرعوا وقتلوه في ذلك العام.

قُتل الخليفة إبراهيم الأول ولم يزد عمره علىٰ الرابعة والثلاثين، وخلفه ابنه محمد الرابع.

ـ ١١ ـ

محمد الرابع

(١٠٥٨ ـ ١٠٩٩هـ)

ولد محمد الرابع بن إبراهيم الأول في ٢٩ رمضان سنة ١٠٥١هـ، وتولّىٰ الخلافة بعد مقتل أبيه سنة ١٠٥٨هـ، وكان عمره سبع سنواتٍ، ولصغر سنّه فقد عمّت الفوضىٰ.

كان حسين باشا يحاصر مدينة (كنديا) في جزيرة كريت فاضطر أن يرفع الحصار عن المدينة بسبب الفوضىٰ التي أثارتها الانكشارية.

قامت ثورة في الأناضول بزعامة رجلٍ عُرف باسم (قاطرجي أوغلي) ودعمه (كورجي يني)، وقد انتصرا علىٰ والي الأناضول ثم توجّها نحو إستانبول، ولكن اختلفا فسلمت العاصمة منهما لاختلافهما، وانتصر الخليفة عليهما لما وقع بينهما من خلافٍ فقُتل (كورجي يني)، وطلب (قاطرجي أوغلي) العفو، وتسلّم ولاية القرمان.

انتصرت البحرية البندقية علىٰ أسطولٍ عثماني،

واحتلّت جزيرتين عند مدخل مضيق الدردنيل تتحكّمان فيه وتحميانه، وبذلك تحكّمت البندقية بهذا المضيق وحالت دون وصول المواد الغذائية إلىٰ إستانبول فارتفعت الأسعار.

تولّىٰ مركز الصدر الأعظم (محمد كوبريلي) فقتل كثيراً من الانكشارية حتىٰ خضعوا، وأعدم بطريرك الروم لأنه من الذين أثاروا الفتنة سراً. وحاول أن يستردّ ما أخذته البندقية من جزرٍ عند مدخل مضيق الدردنيل، فلم يتمكّن إلا بعد جهدٍ ووقتٍ وموت قائد البحرية البندقي.

وقعت الحرب بين السويد وبولونيا فطلب ملك السويد من العثمانيين أن يعاونوه ضد بولونيا، وتكون تحت حماية الدولة العثمانية ولكن الصدر الأعظم رفض ذلك، واتفق أمير ترانسلفانيا مع أمراء الأفلاق والبغدان التفاهم مع السويد ومحاربة بولونيا، فعزلت الدولة العثمانية هؤلاء الأمراء وعيّنت غيرهم في أماكنهم، فعصىٰ أمير ترانسلفانيا الأمر، وحارب العثمانيين وانتصر عليهم، ولم يلبث أمير الأفلاق أن أعلن التمرّد بعد عودة الجيوش العثمانية إلىٰ إستانبول فرجع الصدر الأعظم إلىٰ القتال وأخضع العصاة.

وضعفت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا لأن فرنسا دعمت البندقية سرّاً في جزيرة كريت، فلما أطلعت الدولة العثمانية علىٰ ذلك سجنت ابن السفير الفرنسي الذي لم يقبل حلّ رموز البرقيات، وتوترت الحالة بين الطرفين، ودعمت فرنسا البندقية جهاراً في جزيرة كريت وأنجدتها بقوةٍ.

وتوفي الصدر الأعظم محمد كوبريلي سنة ١٠٧٢هـ، وكان قد أعاد للدولة هيبتها وخلفه ابنه أحمد كوبريلي فكان كوالده، إذ رفض الصلح مع النمسا والبندقية، وسار علىٰ رأس جيشٍ لقتال النمسا واستطاع سنة ١٠٧٤هـ أن يفتح أعظم قلعةٍ في النمسا، وهي قلعة (نوهزل) شرق فيينا فأخاف أوربا بذلك، ثم دخل مورافيا وسيليزيا، واضطر ملك النمسا (ليوبولد) أن يرجو البابا بالعمل علىٰ مساعدة فرنسا له ضد المسلمين، وكان قد رفض ذلك في البداية اعتماداً علىٰ النفس وإظهاراً للقوة، فتوسط البابا في ذلك فأمدته فرنسا بستة آلاف جنديٍ، وجرت بين المسلمين والنصارىٰ معارك عنيفة أهمها معركة (سان غوتار)، ولم يحصل أحد الطرفين علىٰ نصرٍ، ثم وُقِّعت معاهدة صلحٍ بين الطرفين المتحاربين، وقُسّمت بلاد المجر بين الدولة العثمانية والنمسا، وتوقَّفت الحرب علىٰ هذه

الجبهة، إلا أن فرنسا تابعت القتال في البحر المتوسط، وحدث صدام بين السفن المغربية والفرنسية، ودخلت فرنسا تونس والجزائر دون إعلانٍ رسمي للحرب.

وحاولت فرنسا التقرّب من الدولة العثمانية وتجديد الامتيازات غير أن الصدر الأعظم قد رفض ذلك، فأرسلت فرنسا التهديد إذ أرسل ملك فرنسا لويس الرابع عشر السفير الفرنسي مع أسطولٍ حربي، وهذا ما زاد الصدر الأعظم ثباتاً، وقال: إن الامتيازات كانت مُنحةً وليست معاهدةً واجبة التنفيذ. وكان ملك فرنسا يريد إعلان الحرب غير أن وزيره نصحه بعدم ذلك الفعل، وسار الوزير بسياسة اللين والخضوع للدولة العثمانية حتىٰ جُدّدت له المعاهدات القديمة، وأُعيد لفرنسا حق حماية بيت المقدس وذلك سنة ١٠٨٤هـ، وعادت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا إلىٰ الصفاء السابق.

رغبت قبائل القوزاق بالتبعية إلىٰ الدولة العثمانية فأعلنوا ذلك، وكانوا يقيمون في (أوكرانيا) والمناطق التي تقع إلىٰ الشرق منها، وهذا ما أغضب بولونيا وأثارها فأغارت علىٰ أوكرانيا التي طلبت النجدة من العثمانيين، وسار الخليفة بنفسه علىٰ رأس جيشٍ انتصر علىٰ البولونيين الذين طلبوا الصلح فعُقد، ولم يحول دون الحرب أكثر من شهرٍ، وقد اعترفت بولونيا فيه بأن

أوكرانيا للقوزاق، وأن إقليم (بودوليا) في غرب أوكرانيا للدولة العثمانية، وفوق هذا تدفع بولونيا جزيةً قدرها ٢٢٠ ألف بندقي ذهباً وذلك سنة ١٠٨٣هـ. وتضايق الشعب البولوني من هذه المعاهدة التي عُرفت باسم (بوزاكس) فأعلن رفضه لها، وسار القائد البولوني (سوبيسكي) بجيوشٍ جرارةٍ وقاتل العثمانيين، وانتصر عليهم، واستلم الملك بعد موت ملك بولونيا (ميشيل) سنة ١٠٨٤هـ، واستمرت المعارك سجالاً بين الطرفين، ثم عادت المفاوضات فعُقد الصلح بين الطرفين، وتنازل فيه ملك بولونيا إلىٰ العثمانيين عما تنازل لهم سلفه باستثناء بعض المواقع وذلك سنة ١٠٨٧هـ.

توفي الصدر الأعظم (أحمد كوبريلي) سنة ١٠٨٧هـ وخلفه في الصدارة العظمىٰ صهره (قره مصطفىٰ)، ولم يكن صاحب إمكاناتٍ بل صاحب هوىً ومصالح، فأثار قبائل القوزاق فثاروا ضد العثمانيين، واستنجدوا بروسيا فوقعت الحرب بين الطرفين سنة ١٠٨٨هـ، واستمّرت حتىٰ سنة ١٠٩٢هـ حيث عُقدت معاهدة بين الجانبين أنهت الحرب، وبقيت الأمور كما كانت قبل الحرب، ولكن أصبح القوزاق أكثر ميلاً إلىٰ أعدائهم الروس منهم إلىٰ العثمانيين إخوانهم في السابق. وتمت هذه المعاهدة المعروفة باسم معاهدة

(رادزين) نسبة إلىٰ المدينة التي وُقّعت فيها، والتي تقع جنوب غربي فارسوفيا، وذلك سنة ١٠٩٢هـ.

وسار الصدر الأعظم قره مصطفىٰ سنة ١٠٩٢هـ لمحاربة النمسا، إذ طلب نجدته سكان الأقسام المجرية التي تخضع للنمسا إذ أثارهم استبداد النمسا، المذهبي، وانتصر الصدر الأعظم في عدة معارك، ثم سار نحو العاصمة فيينا وألقىٰ عليها الحصار مدة شهرين سنة ١٠٩٤هـ، وكادت تستسلم أمام قوة العثمانيين لولا نداءات البابا إلىٰ الدول النصرانية، وإثارة الهمم الصليبية، فوصلت إلىٰ فيينا قوات ملك بولونيا، وأمراء ساكسونيا وبافاريا الألمان وكان وصولهم في الوقت المناسب، وهُزم المسلمون، وانسحبوا بعد معارك طاحنةٍ، واتجهوا نحو مدينة (بودا) قاعدة المجر، ووجد ملك بولونيا فرصةً لثأره فتبعهم يقتل كل من يستطع قتله من مؤخرة العثمانيين، ووصل خبر هذه الهزيمة إلىٰ الخليفة محمد الرابع فغضب علىٰ الصدر الأعظم (قره مصطفىٰ)، وأمر بقتله، وإعطاء هذا المنصب إلىٰ إبراهيم باشا وذلك سنة ١٠٩٥هـ.

هذا الانتصار الذي أحرزه النصارىٰ زاد من أوار الصليبية، وشجّعها علىٰ المضيّ فعقدت الدول الأوربية تحالفاً يُسمّىٰ (التحالف المقدس) لاستمداد قوته من

النصرانية، وقد ضمّ: البابا، البندقية، رهبان مالطة، النمسا، بولونيا، روسيا، وبدأ هذا التحالف بالعمل ضد الدولة العثمانية.

بدأت النمسا تهاجم بلاد المجر، وتمكّنت من دخول مدينة (بست) وحاصرت مدينة (بودا)، ثم دخلت عدة مواقع منها قلعة (نوهزل) التي سبق أن تكلمنا عنها. وبسبب هذه الهزيمة عُزل الصدر الأعظم إبراهيم باشا، ونُفي إلىٰ جزيرة رودوس، وعُيّن مكانه سليمان باشا الذي أسرع لنجدة مدينة (بودا) غير أن النمساويين قد دخلوها عنوةً، وهُزم العثمانيون سنة ١٠٩٧هـ، ثم هُزموا ثانية سنة ١٠٩٨هـ في (موهاكز).

وكانت جيوش ملك بولونيا (سوبيسكي) تُغير علىٰ ولاية البغدان وتُهدّدها.

وتُغير سفن البندقية باستمرارٍ علىٰ سواحل اليونان وشبه جزيرة الموره، وتدعمها سفن البابا، ورهبان مالطة، وتمكّنت من دخول (أثينا) و(كورنثا) وعدداً آخر من المدن سنة ١٠٩٧هـ.

وأمام هذه الهزائم والفوضىٰ اتفق العلماء والوزير علىٰ عزل الخليفة فعُزل سنة ١٠٩٩هـ، وتولّىٰ مكانه أخوه سليمان الثاني، وبقي محمد الرابع حتىٰ توفي سنة ١١٠٤هـ.

- ١٢ -

سليمان الثاني

(١٠٩٩ ـ ١١٠٢هـ)

الخليفة سليمان الثاني بن الخليفة إبراهيم الأول (١٠٤٩ ـ ١٠٥٨هـ). ولد سليمان الثاني في ١٥ المحرم سنة ١٠٥٢هـ فكان عمره يزيد علىٰ ستٍ وأربعين سنةً يوم تولّىٰ الخلافة، وأغدق العطايا علىٰ الجنود ولم يعاقبهم علىٰ ما فعلوه بأخيه محمد الرابع، وهذا ما أطمعهم فيه فتمّردوا عليه، وقتلوا قادتهم، وقتلوا الصدر الأعظم الجديد (سياوس باشا) وسبوا نساءه فعمت الفوضىٰ البلاد، فعيّن الخليفة صدراً أعظم جديداً هو (مصطفىٰ باشا).

انتهز الأعداء هذه الفوضىٰ وتقدّموا في أملاك الدولة العثمانية فأخذت النمسا كثيراً من المواقع والمدن ومنها بلغراد سنة ١٠٩٩ و١١٠٠هـ، كما أخذت البندقية سواحل دالماسيا (السواحل الشرقية لبحر الأدرياتيك)، وبعض المواقع في بلاد اليونان. وتوالت الهزائم، ولم يكن الصدر الأعظم كفئاً فعزله الخليفة، وعيّن مكانه

(مصطفىٰ بن محمد كوبريلي) فسار علىٰ نهج أبيه وأخيه أحمد فحمىٰ الأهالي من تصرّفات الجند، وأعطىٰ الجند حقوقهم، وسمح للنصارىٰ في إستانبول ببناء ما تهدّم من كنائسهم، وأحسن إليهم فأحبه الناس حتىٰ أن نصارىٰ شبه جزيرة الموره ثاروا ضد البندقية وطردوا جيشها من بلادهم، إذ أرادت نشر الكاثوليك بينهم وهم من الأرثوذكس.

واتجه الصدر الأعظم علىٰ رأس جيشٍ إلىٰ النمسا فاستعاد بعض المواقع مما أخذت، ومنها (بلغراد) سنة ١١٠١هـ، كما أخضع خان القرم (سليم كراي) ثوار الصرب، وفي الوقت نفسه أعاد (تيكلي المجري) إقليم ترانسلفانيا إلىٰ الدولة العثمانية، وبذا استعاد العثمانيون هيبتهم.

توفي الخليفة سليمان الثاني في ٢٦ رمضان سنة ١١٠٢هـ وعمره خمسون سنةً بعد أن حكم ثلاث سنواتٍ وثمانية أشهر. توفي من غير أن يُنجب، وتولىٰ الخلافة بعده أخوه أحمد الثاني.

ـ ١٣ ـ

أحمد الثاني

(١١٠٢ ــ ١١٠٦هـ)

الخليفة أحمد الثاني بن الخليفة إبراهيم الأول تولّىٰ الخلافة بعد أخيه سليمان الثاني، ولد أحمد الثاني في ٦ ذي الحجة ١٠٥٢هـ فهو أصغر من أخيه سليمان بأقل من سنةٍ.

تولّىٰ الصدارة العظمىٰ (عربجي باشا) إذ كان سلفه (مصطفىٰ باشا كوبريلي) قد توفي في ٢٤ ذي القعدة سنة ١١٠٢هـ في ساحة القتال، ضد الجيش النمساوي الذي كان يقوده (لويز دي باد). وكانت وفاته خسارةً للدولة لكفاءته.

كان (عربجي باشا) ضعيفاً فاحتلّت إمارة البندقية بعض جزر بحر إيجه.

كان القتال في أيام الخليفة أحمد الثاني عبارةً عن مناوشاتٍ.

توفي الخليفة أحمد الثاني في ٢٢ جمادىٰ الآخرة سنة ١١٠٦هـ وعمره أربع وخمسون سنةً، وتولّىٰ الخلافة مدة أربع سنواتٍ وثمانية أشهرٍ، وتولّىٰ بعده مصطفىٰ الثاني ابن أخيه محمد الرابع.

- ١٤ -

مصطفىٰ الثاني

(١١٠٦ ــ ١١١٥هـ)

مصطفىٰ الثاني بن محمد الرابع ولد في ٨ ذي القعدة سنة ١٠٧٤هـ، تولّىٰ الخلافة سنة ١١٠٦هـ بعد وفاة عمه أحمد الثاني، فكان عمره اثنتين وثلاثين سنةً.

كان شجاعاً رابط الجأش فأعلن بعد استلامه الخلافة بثلاثة أيامٍ عن رغبته بقيادة الجيوش، فسار إلىٰ بولونيا وانتصر عليها في عدة معارك بمساعدة قبائل القوزاق.

انطلق إلىٰ مدينة (آزوف) التي يحاصرها القيصر الروسي (بطرس الأكبر) فأجبره علىٰ ترك الحصار سنة ١١٠٧هـ، ثم توجّه إلىٰ بلاد المجر فانهزمت جيوشها أمامه.

هُزم أمام القائد النمساوي (أوجين دي سافوا) علىٰ ضفاف نهر (تيس)، وقتل يومها الصدر الأعظم (الماس محمد باشا)، وغرقت أعداد من العثمانيين في النهر، ولاحقهم القائد النمساوي حتىٰ بلاد البوسنة.

استغلّ (بطرس الأكبر) اشتغال العثمانيين بقتال النمساويين فسار إلىٰ مدينة (آزوف) ودخلها سنة ١١٠٨هـ.

تولّىٰ الصدارة العظمىٰ (حسين كوبريلي) فسار نحو النمسا فتقهقرت جيوشها أمامه، ودفعهم إلىٰ ما وراء نهر السافا.

انتصر الأسطول العثماني علىٰ قوات البندقية البحرية واستردّ بعض الجزر في بحر إيجه.

عقدت سنة ١١١٠هـ معاهدة بين الدولة العثمانية والنمسا، والبندقية، وروسيا، وبولونيا بجهود فرنسا، وعُرفت تلك المعاهدة باسم معاهدة (كارلوفتس) فقدت فيها الدولة العثمانية مدينة آزوف لروسيا، ومنطقة أوكرانيا وإقليم بودوليا وبعض المدن لبولونيا، وساحل دالماسيا وبعض الجزر للبندقية، وبلاد المجر وإقليم ترانسلفانيا للنمسا، وعقدت هدنة مع النمسا لمدة خمسٍ وعشرين سنة، ولم تبق أية دولةٍ تدفع أيّ مبلغٍ للدولة العثمانية كجزيةٍ. وبذا كانت الدول النصرانية تقف كلها في وجه العثمانيين، وكانت متفقةً فيما بينها علىٰ الوقوف في وجه التقدّم للدولة العثمانية، والعمل علىٰ تقسيمها، وذلك خوفاً من انتشار الإسلام في أوربا.

استقال (حسين كوبريلي) من الصدارة العظمىٰ سنة ١١١٤هـ، وثار الانكشارية علىٰ (دال طبان مصطفىٰ باشا) الذي خلفه، وطلبوا عزله فأقاله في ٦ رمضان سنة ١١١٤هـ، فثاروا عليه أيضاً، وطلبوا من الخليفة عزله فرفض فعزلوا الخليفة في ٢ ربيع الثاني سنة ١١١٥هـ بعد أن حكم ٨ سنوات و٨ أشهرٍ، وبقي معزولاً حتىٰ توفي في ٢٢ شعبان سنة ١١١٥هـ، وعمره أربعون سنةً، وولّوا مكانه أخاه أحمد الثالث.

ـ ١٥ ـ
أحمد الثالث

(١١١٥ ــ ١١٤٣هـ)

الخليفة أحمد الثالث بن الخليفة محمد الرابع.
وُلد أحمد الثالث في ٣ رمضان سنة ١٠٨٣هـ، وتولّىٰ الخلافة سنة ١١١٥هـ فكان عمره اثنتين وثلاثين سنةً، أظهر موافقة الانكشارية مدةً فأعطاهم الأُعطيات، ووافقهم علىٰ قتل المفتي (فيض الله أفندي) لمقاومته لهم في أعمالهم حتىٰ إذا تمكّن اقتصّ من رؤوس الانكشارية، وعزل الصدر الأعظم (نشانجي أحمد باشا) الذي اختاروه، وكان قد قادهم في حركتهم، وعيّن مكانه صهره (حسن باشا) ثم عزله في ٢٨ جمادىٰ الأولىٰ ١١١٦هـ، وتوالىٰ علىٰ الصدارة العظمىٰ عدد، وشُغل الناس بذلك، بينما كان الأعداء يُخططون لقوتهم ومحاربتهم للدولة، وفي مقدمتهم قيصر روسيا (بطرس الأكبر) الذي انتصر علىٰ ملك السويد (شارل الثاني عشر) وقويت دولته، ولم يوافق الصدر الأعظم (نعمان كوبريلي) علىٰ دعم الدولة للسويد ضد روسيا، وعزل

هذا الوزير وجاء بعده (بلطجي محمد) الذي أعلن الحرب علىٰ روسيا، وقاد الجيوش ضدها، وتمكّن من حصار القيصر بطرس الأكبر وخليلته (كاترينا) التي أغرت الصدر الأعظم (بلطجي محمد)، وأعطته ما معها من الجواهر فخان الدولة ورفع الحصار عن القيصر فنجا القيصر، ونجت كاترينا، ونجا الجيش الروسي من الإبادة، ووُقّعت معاهدة بين الطرفين تعهّد فيها القيصر بعدم التدخّل بشؤون القوزاق والتخلّي عن ميناء آزوف.

عُزل الصدر الأعظم (بلطجي محمد) بجهود خان القرم ودعم ملك السويد، ونُفي إلىٰ جزيرة (لمنوس) في بحر إيجه، وتولّىٰ (يوسف باشا) منصب الصدر الأعظم فعقد مع روسيا معاهدةً جديدةً تنصّ علىٰ هدنةٍ بين الطرفين مدتها خمس وعشرون سنةً، غير أن الحرب كادت تندلع لإخلال القيصر بالشروط، وتدخّلت الدول، وعُقدت معاهدة أدرنة سنة ١١٢٥هـ من جديدٍ تنازلت فيها روسيا عن كل ما أخذته علىٰ سواحل البحر الأسود، ولكنها تخلّت في الوقت نفسه عما كانت تدفعه إلىٰ خانات القرم.

انتصر العثمانيون علىٰ إمارة البندقية وأخذوا منها كل ما بقي بأيديها في جزيرة كريت، وبعض الجزر الأخرى فاستنجدت البندقية بالنمسا التي انتهت من

الحروب بينها وبين فرنسا، فطلب إمبراطور النمسا من الدولة العثمانية إعادة ما أُخذ من البندقية إليها فرفضت الدولة العثمانية فوقعت الحرب بين الطرفين، فانتصرت النمسا، وقُتل الصدر الأعظم (علي باشا)، وسقطت بلغراد بيد النمسا سنة ١١٢٩هـ، وعادت النمسا فانتصرت ثانيةً علىٰ الصدر الأعظم الجديد (خليل باشا) الذي جاء دعماً لمدينة بلغراد. ثم جرىٰ الصلح سنة ١١٣٠هـ، وعُقدت معاهدة (بساروفتس) أخذت فيها النمسا بلغراد، وأكثر بلاد الصرب وجزءاً من الأفلاق، وتبقىٰ سواحل (دالماسيا) للبندقية، وترجع شبه جزيرة الموره للعثمانيين.

لما رأىٰ الروس ضعف العثمانيين طلبوا منهم السماح للتجار وزوّار بيت المقدس المرور من أراضي الدولة العثمانية، دون دفع شيءٍ فوافق العثمانيون علىٰ ذلك.

ضعفت الدولة الصفوية وتنازل الشاه حسين عن السلطة لمير محمد أمير بلاد أفغانستان، فأسرع الصدر الأعظم إبراهيم باشا واحتلّ بلاد أرمينيا وبلاد الكرج، وأسرع قيصر روسيا بطرس الأكبر واحتلّ بلاد داغستان وسواحل بحر الخزر الغربية، واصطدمت الجيوش الروسية والعثمانية وكادت الحرب تقع بين الطرفين،

لولا وساطة فرنسا بناءً على طلب روسيا التي وجدت نفسها عاجزةً عن القتال، فبقي كل فريقٍ في المناطق التي دخلها دون معارضة الفريق الآخر.

وانتفض الصفويون واتجهوا لقتال العثمانيين غير أنهم قد هُزموا، وسلّموا تبريز وهمدان وعدداً من القلاع ثم جرىٰ الصلح بين الطرفين سنة ١١٤٠هـ. ثم مات الشاه أشرف الصفوي، وبقي الشاه طهماسب فطلب من العثمانيين أن يتخلُّوا عما أخذوه، فلم يقبلوا فغزاهم ولم تكن عند الخليفة أحمد الثالث روح القتال فثارت الانكشارية، وقتلوا الصدر الأعظم وأمير البحر، ثم امتدّ أذاهم وعصيانهم فعزلوا الخليفة أحمد الثالث، وولّوا مكانه ابن أخيه محمود الأول بن مصطفىٰ الثاني وذلك سنة ١١٤٣هـ، وبقي أحمد الثالث معتزلاً حتىٰ توفىٰ سنة ١١٤٩هـ عن عُمرٍ يناهز السادسة والستين، وكانت مدة خلافته سبعاً وعشرين سنةً وأحد عشر شهراً.

- ١٦ -

محمود الأول

(١١٤٣ ــ ١١٦٨هـ)

ولد الخليفة محمود الأول بن الخليفة مصطفىٰ الثاني في ٤ المحرم سنة ١١٠٨هـ، وتولّىٰ الخلافة بعد عزل عمه أحمد الثالث سنة ١١٤٣هـ، فكان عمره خمساً وثلاثين سنةً.

عندما تسلم محمود الأول الخلافة لم يكن له منها سوىٰ الاسم، إذ كانت السلطة الحقيقية بيد رئيس الذين ثاروا علىٰ عمه من الانكشارية وهو (بطرونا خليل)، الذي عزل الخليفة السابق وفعل ما فعل، ثم نقم عليه الانكشارية وقتلوه وهدأت الأحوال وساد الأمن.

اتجهت الدولة العثمانية إلىٰ قتال الصفويين فتغلّبت علىٰ (الشاه طهماسب) الذي طلب الصلح سنة ١١٤٤هـ، وتخلّىٰ الشاه للعثمانيين عن تبريز وهمدان وإقليم لورستان، غير أن والي الشاه علىٰ خراسان وهو (نادر خان) لم يقبل بمعاهدة الصلح التي تمت واتجه إلىٰ أصفهان وعزل (الشاه طهماسب) وولّىٰ مكانه ابنه

عباساً الذي لا يزال طفلاً، وأخذ الوصاية عليه، وسار لحرب العثمانيين فانتصر عليهم، وحاصر بغداد وطلبت الدولة العثمانية الصلح وجرىٰ الاتفاق سنة ١١٤٩هـ في مدينة تفليس عاصمة الكرج، حيث أعلن (نادر خان) نفسه ملكاً علىٰ الفرس، واتفقوا علىٰ أن يردّ العثمانيون إلىٰ الفرس كل ما أخذوه سابقاً.

اختلفت الدول بشأن بولونيا، وأعلنت روسيا والنمسا الحرب علىٰ بولونيا، واحتلتها روسيا، ورغبت فرنسا التحالف مع الدولة العثمانية لإنقاذ بولونيا وعداوةً بالنمسا وحليفتها روسيا، ولكن النمسا أرضت فرنسا بمعاهدة فيينا، واتفقت من جهةٍ ثانيةٍ لقتال الدولة العثمانية، وفتحت روسيا القتال لحجةٍ بسيطةٍ واحتلت ميناء آزوف، فاتفقت الدولة العثمانية سريعاً مع نادر خان واتجهت لمقاومة الروس، وتمكنّت خلال مدةٍ قصيرةٍ من وقف تقدّمهم في إقليم البغدان الذي احتلّوا عاصمته (ياسي)، وأوقفت كذلك تقدّم النمسا في البوسنة والصرب والأفلاق، وانتصرت علىٰ الصرب، وعلىٰ جيوش النمسا التي انسحبت من الميدان، وطلبت الصلح عن طريق فرنسا، وتمّ ذلك في معاهدة (بلغراد) سنة ١١٥٢هـ. تنازلت النمسا عن مدينة (بلغراد) وعما سبق أن أخذته من بلاد الصرب وإقليم الأفلاق،

وتعهّدت روسيا بعدم بناء سفن في البحر الأسود وهدم قلاع ميناء آزوف.

اتفقت الدولة العثمانية مع السويد ضد روسيا بجهودٍ فرنسية سنة ١١٥٣هـ.

اندلعت الحرب بين النمسا التي تولّت أمرها (ماريا تيريزا) سنة ١١٥٣هـ وبين فرنسا، وحاولت فرنسا الاتفاق مع الدولة العثمانية لقتال النمسا، ولكن العثمانيين رفضوا ذلك، وانتصرت النمسا.

وأعطت الدولة العثمانية أمر إقليمي الأفلاق والبغدان إلىٰ نصارىٰ من إستانبول فساموا أهل البلاد سوء المعاملة فاتجه السكان نحو روسيا.

توفي السلطان محمود الأول سنة ١١٦٨هـ عن عمرٍ يزيد علىٰ الستين سنةً، وتولّىٰ الخلافة مدة خمسٍ وعشرين سنةً، وخلفه أخوه عثمان الثالث.

ـ ١٧ ـ
عثمان الثالث
(١١٦٨ ــ ١١٧١هـ)

ولد الخليفة عثمان الثالث بن الخليفة مصطفىٰ الثاني سنة ١١١٠هـ وتولّىٰ الخلافة سنة ١١٦٨هـ، فكان عمره حين آل إليه الأمر يزيد علىٰ الثامنة والخمسين سنة.

أبقىٰ كبار الموظفين في وظائفهم. وعيّن (نشانجي علي باشا) في منصب الصدارة العظمى وقد سبق له أن تقلّدها، وقد عيّنه مكان (محمد سعيد باشا)، فاستغلّ علي باشا ميل الخليفة فسار في طريق غير صحيحٍ.

كان الخليفة يسير في الليل متنكراً، ويطّلع علىٰ أحوال الرعية، ويسعىٰ للإصلاح، وبأسلوبه هذا عرف نهج الصدر الأعظم (نشانجي علي باشا) فأمر بقتله فقُتل في ١٦ محرم سنة ١١٦٩هـ، وعيّن مكانه مصطفىٰ باشا، ثم عزله في ٢٠ ربيع الأول سنة ١١٧٠هـ، وعيّن مكانه (محمد راغب باشا)، وهو من كرام الرجال، وقد اكتسب خبرةً في الأمور السياسية من المناصب التي تسلّمها.

توفي الخليفة عثمان الثالث في ١٦ صفر سنة ١١٧١هـ، وعمره إحدىٰ وستون سنة، وكانت مدة خلافته ثلاث سنواتٍ وأحد عشر شهراً. وخلفه ابن عمه وهو (مصطفىٰ الثالث بن الخليفة أحمد الثالث).

ـ ١٨ ـ

مصطفىٰ الثالث

(١١٧١ ــ ١١٨٧هـ)

ولد الخليفة مصطفىٰ الثالث سنة ١١٢٩هـ وهو ابن الخليفة أحمد الثالث، وقد تولّىٰ الخلافة سنة ١١٧١هـ بعد ابن عمه عثمان الثالث، فكان عمره لما آل إليه أمر الخلافة اثنتين وأربعين سنةً، وكان الصدر الأعظم يومذاك هو (محمد راغب باشا) ويُعدّ أحد المصلحين غير أنه توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ١١٧٦هـ.

اعتدت قبائل القوزاق التي تتبع روسيا علىٰ بعض المواقع علىٰ حدود الدولة العثمانية، فأعلن العثمانيون الحرب علىٰ روسيا أملاً في تأديبها قبل أن يشتدّ ساعدها، وبدأ القتال بغارةٍ قام بها خان القرم (كريم كراي) علىٰ الأرض الروسية سنة ١١٨٢هـ، فخرَّب عدداً من الضياع وحمل معه كثيراً من الأسرىٰ الروس.

سار الصدر الأعظم (نشانجي محمد أمين باشا) لفكّ الحصار عن بعض المواقع التي يُطوّقها الروس، ولكنه فشل لعدم اتباعه الأوامر العسكرية الواردة إليه من

الخليفة، فأمر الخليفة بقتله فقُتل في ٩ ربيع الثاني سنة ١١٨٣هـ. وانطلق الصدر الأعظم الذي خَلَف المقتول فهُزم أيضاً وهو (مولدواني) بعد أن غرق عدد كبير من جنده في نهر الدينستر وذلك سنة ١١٨٣هـ، واحتلّ الروس بعدها إقليمي الأفلاق والبغدان.

بدأ الروس يثيرون النصارىٰ الأرثوذكس الذين يعيشون في أراضي الدولة العثمانية، فقد أثاروا نصارىٰ شبه جزيرة الموره فقاموا بثورةٍ ودعموهم بأسطولٍ التفّ حول أوربا، ولكنه هُزم غير أن بعض المراكب الهاربة أغارت علىٰ الأسطول العثماني وأحرقته. وقد أُطفئت ثورة شبه جزيرة الموره.

فكّر القائد الروسي بالهجوم علىٰ إستانبول لكنه لم ينجح.

هاجم الروس مدينة طرابزون التركية علىٰ ساحل البحر الأسود ولكنهم فشلوا في دخولها. لكن استطاعت روسيا أن تقتحم بلاد القرم، وأن تفصلها عن الدولة العثمانية، وأن تجعلها تحت حماية روسيا، وتُعيّن (جاهين كراي) خاناً عليها من قبل إمبراطورة روسيا وذلك سنة ١١٨٥هـ، ثم جرت مفاوضات للصلح بواسطة النمسا، غير أن روسيا كانت تطالب باستقلال

تتار القرم، وحرية الملاحة للأسطول الروسي في البحر الأسود والبحار الأخرىٰ التي تُشرف عليها الدولة العثمانية، وحق حماية روسيا للنصارىٰ الأرثوذكس الذين هم رعايا للدولة العثمانية ففشلت لذلك المفاوضات، وعادت الحرب، وانتصر العثمانيون.

وفي الوقت الذي كان الروس يثيرون النصارىٰ الأرثوذكس كانوا يُحرّضون أصحاب المصالح والأطماع من الولاة العثمانيين والمتنفّذين، وقد استطاع قائد الأسطول الروسي في البحر المتوسط أن يتصل بواسطة مبعوثين مع (علي بك الكبير) والي مصر، الذي كان يتصرّف تصرّف المستقلّ فيها، وأن يُشجّعه علىٰ محاربة العثمانيين لمدّ نفوذه إلىٰ بلاد الشام، وأن يمدّه بالذخائر، وذلك من أجل إحداث الفوضىٰ في داخل الدولة العثمانية وطعنها من الخلف، وإمكانية قهرها في الجبهة الروسية، واستجاب علي بك الكبير لهذه الآراء وأصغىٰ إليها، أو حرّكت ما كان يجيش في نفسه فسار بجيشه نحو بلاد الشام واحتلّ مدن غزة، ونابلس، والقدس، ويافا، ودمشق، وبدأ بالتوجّه نحو الشمال ليداهم بلاد الأناضول، ويتقدّم عندها الروس من جهة الشمال، غير أن نائبه في القاهرة محمد أبا الذهب قد ثار ضده فاضطر إلىٰ أن يعود إلىٰ مصر، ويُقاتل محمد

أبا الذهب لكنه هُزم أمامه فالتجأ إلىٰ ضاهر العمر الذي كان أحد جباة الأموال وفي الوقت نفسه أحد قُطّاع الطرق، واستطاع أن يجعل حوله قوةً تستفيد من اعتداءاتها، ثم تمكن من السيطرة علىٰ مدينة صفد مكان عمله، وأن ينطلق منها إلىٰ الجهات الثانية فدخل عكا وتسلّم ولايتها، واضطر الخليفة أن يعترف بذلك لانشغاله بالحروب مع الروس.

وعندما التجأ علي بك الكبير إلىٰ ضاهر العمر اتفقا علىٰ محاربة العثمانيين، وقبلا دعم الروس وسارا معاً إلىٰ مدينة صيدا لاحتلالها، والتقيا بالجيش العثماني خارجها فانتصرا عليه، وكان الأسطول الروسي في البحر المتوسط يتحرّك مع سيرهما ويدعمهما، ويضرب القوات العثمانية والمدن الساحلية فقد ألقىٰ قذائفه علىٰ مدينة بيروت وخرّب جزءاً منها.

بعد هذا النجاح الذي حقّقاه رجع علي بك الكبير إلىٰ مصر ليتخلّص من محمد أبي الذهب، ويحمي ظهره قبل أن ينطلق وحليفه ضاهر العمر باتجاه الأناضول. سار نحو مصر وانطلق معه أربعمائة جنديٍ روسيٍ وذلك في مطلع سنة ١١٨٧هـ، والتقىٰ الطرفان، وانتصر محمد أبو الذهب، ووقع علي بك الكبير ومعه أربعة من كبار ضباط الروس أسرىٰ بيد محمد أبي الذهب، وقُتل كل

من كان معهم، وتوفي علي بك الكبير متأثّراً بجراحه، وأُرسل رأسه والضباط الروس إلىٰ الوالي العثماني خليل باشا الذي قام بدوره فأرسلهم إلىٰ إستانبول.

توفي الخليفة مصطفىٰ الثالث في ٨ ذي القعدة سنة ١١٨٧هـ، وكان عمره يوم وفاته ثمانيةً وخمسين سنةً، وبلغت مدة حكمه ست عشرة سنةً وثمانية أشهرٍ، وكان رحمه الله محباً للخير. وتولّىٰ مكانه أخوه عبد الحميد الأول.

ـ ١٩ ـ
عبد الحميد الأول
(١١٨٧ ــ ١٢٠٣هـ)

وُلد الخليفة عبد الحميد الأول بن الخليفة أحمد الثالث سنة ١١٣٧هـ، وبقي محجوزاً في قصره مدة حكم أخيه مصطفىٰ الثالث، وتولّىٰ السلطة بعد وفاته سنة ١١٨٧هـ، ولم يُوزّع الأُعطيات المعتادة يوم تسلّمه السلطان لنضوب خزائن الدولة من الأموال التي استنزفتها الحرب الأخيرة.

أقرّ الصدر الأعظم (محسن زاده) في منصبه، وكذا أغلب كبار الموظفين والقادة العسكريين في البر والبحر لعدم وقوع الخلل في الأعمال.

كانت روسيا تستعدّ استعداداً كبيراً للأخذ بالثأر واسترداد ما فقدته، فأرسلت قوةً كبيرةٍ إلىٰ مدينة (فارنا) البلغارية الواقعة علىٰ ساحل البحر الأسود وأحرزت النصر علىٰ العثمانيين، وتابعت إلىٰ معسكرهم حيث يوجد الصدر الأعظم إلىٰ الغرب من مدينة (فارنا) فطلب الصدر الأعظم الصلح والمفاوضة وتم ذلك في مدينة

(قينارجة) البلغارية سنة ١١٨٧هـ، واعترفت الدولة العثمانية باستقلال تتار القرم، وإقليم بسارابيا[١]، ومنطقة قوبان[٢] علىٰ أن تكون الدولة العثمانية المرجع في الشؤون الدينية. وتُعطىٰ للسفن الروسية حرية الملاحة في البحر الأسود، والمتوسط، وتدفع الدولة العثمانية لروسيا غرامةً حربيةً خمسة عشر ألف كيسٍ علىٰ ثلاثة أقساطٍ في مطلع كل عامٍ نصرانيٍ، ويكون لروسيا حق حماية النصارىٰ الأرثوذكس من رعايا الدولة العثمانية، وتبني كنيسةً في إستانبول.

حققت روسيا بعض ما تريد ولكن لم تروِ أحقادها، فبقيت تُثير الفتن في بلاد القرم حتىٰ عزل السكان الخان (دولت كراي) واستبدلوه بـ(جاهين كراي) المؤيّد من روسيا، وكادت الفتنة تقع بين السكان فأسرعت روسيا واحتلّت بلاد القرم، وهبّ الناس في الدولة العثمانية غاضبين وكادت تشتعل الحرب لولا الانتباه إلىٰ ما يخططه الصليبيون ويسعون إليه، وبقيت روسيا تتحرّش بالدولة العثمانية.

زارت إمبراطورة روسيا (كاترينا الثانية) بلاد القرم

---

(١) بسارابيا: إقليم في الجزء الشمالي من دولة رومانيا اليوم.

(٢) قوبان: إقليم في شمال غربي بلاد القفقاس.

فاستقبلت بالحفاوة البالغة، وقد كُتب لها علىٰ أقواس النصر ـ الطريق إلىٰ بيزنطة ـ فانتبهت الدولة العثمانية إلىٰ أن روسيا تريد الحرب، لذا وجد العثمانيون أن يبدؤوا بالحرب قبل أن يستعدّ خصومهم، ولإيجاد سببٍ للقيام بحربٍ فقد طلبت الدولة العثمانية من السفير الروسي إبلاغ حكومته عدة طلبات هي:

١" ـ تسليم حاكم الأفلاق الذي أعلن العصيان علىٰ الدولة العثمانية والتجأ إلىٰ روسيا.

٢" ـ التنازل عن حماية الكرج لأنها تحت سيادة الدولة العثمانية.

٣" ـ عزل القناصل الذين يعملون علىٰ إثارة السكان، وقبول قناصل عثمانيين في موانئ البحر الأسود.

٤" ـ من حق الدولة العثمانية تفتيش المراكب الروسية التجارية خوفاً من نقلها الأسلحة.

رفضت روسيا هذه الطلبات فأعلنت الدولة العثمانية الحرب عليها عام ١٢٠٠هـ. فطلب القائد الروسي من الإمبراطورة الانسحاب من بلاد القرم نتيجة عدم الاستعداد للقتال، لكنها رفضت ذلك، وأمرته بالتقدّم فامتثل واستطاع أن يحتل ميناء (أوزي) سنة ١٢٠٣هـ.

أعلنت النمسا الحرب علىٰ الدولة العثمانية تضامناً وصليبيةً مع الروس، وحاول (جوزيف الثاني) ابن الإمبراطورة (ماريا تيريزا) احتلال بلغراد، لكنه فشل وهُزم أمام العثمانين الذين لاحقوه.

أما ما حدث في بلاد الشام أيام الخليفة عبد الحميد الأول، فقد أمر الخليفة والي مصر محمد أبا الذهب ملاحقة ضاهر العمر فحاصره في عكا ففرّ إلىٰ جبال صفد، ثم قُتل سنة ١١٨٨هـ وتخلّصت منه الدولة.

توفي عبد الحميد الأول في ١٢ رجب سنة ١٢٠٣هـ عن عُمرٍ يناهز السادسة والستين، وكانت خلافته خمس عشرة سنةً وثمانية أشهرٍ. وخلفه سليم الثالث ابن أخيه مصطفىٰ الثالث.

- ٢٠ -

سليم الثالث

(١٢٠٣ ــ ١٢٢٢هـ)

ولد سليم الثالث بن الخليفة مصطفىٰ الثالث سنة ١١٧٥هـ، وتولّىٰ الخلافة بعد وفاة عمه عبد الحميد الأول سنة ١٢٠٣هـ، وكانت المعارك دائرةً فأعطىٰ وقته وجهده للقتال غير أن الجند قد ضعفت معنوياتهم وأصابهم التعب، واتحدت الجيوش الروسية والنمساوية، فتمكّنت روسيا من الاستيلاء علىٰ الأفلاق والبغدان وبسارابيا، كما استطاعت النمسا احتلال بلاد الصرب، ودخلت بلغراد.

لم يستمر الاتفاق بين الروس والنمساويين، إذ انصرف امبراطور النمسا (ليوبولد الثاني) الذي خلف (جوزيف الثاني) في هذا الوقت إلىٰ الثورة الفرنسية، إذ خشي من امتداد الثورة نحو بلاده، وقد حرص علىٰ مصالحة الدولة العثمانية، وبنتيجة الصلح أُعيدت بلاد الصرب للدولة العثمانية وذلك سنة ١٢٠٥هـ.

أما روسيا فقد استمرت بالحرب واستولت علىٰ

بعض المدن وارتكبت من الجرائم أقذرها، ثم توسّطت انكلترا وهولندا وبروسيا للصلح بين الطرفين حرصاً علىٰ مصالحهم، فكانت معاهدة (ياسي) سنة ١٢٠٦هـ، أخذت روسيا بموجبها بلاد القرم نهائياً، وبسارابيا وجزءاً من بلاد الشراكسة والمنطقة الواقعة بين نهري (بوغ) و(الدنيستر) وأصبح نهر دنيستر فاصلاً بين الدولتين، كما تنازلت الدولة العثمانية عن مدينة (أوزي).

بعد أن هدأت الجبهات اتجه الخليفة للإصلاحات الداخلية، وقد أخذ يعمل علىٰ تنظيم الجند النظاميين للخلاص من الانكشارية سبب الفتن والفوضىٰ، كما أخذ ببناء السفن والمدافع بأسلوبٍ علميٍ حديثٍ.

دخل نابليون بونابرت مصر وانتصر علىٰ حكامها من المماليك، فأخذ الخليفة يستعدّ لقتال الفرنسيين وإخراجهم من مصر، وكانت النمسا وروسيا مشغولتين بالثورة الفرنسية وتأثيرها.

عرضت انكلترا علىٰ الدولة العثمانية مساعدتها علىٰ قتال الفرنسيين، خوفاً علىٰ مصالحها في الهند فوافقت الدولة العثمانية وعرضت دعمها حربياً فكانت الموافقة كذلك، وانتقلت السفن الروسية من البحر

الأسود إلىٰ البحر المتوسط، وعزم نابليون علىٰ ضرب القوات العثمانية قبل أن تستعدّ، وقرر احتلال بلاد الشام، فسار إليها وفشل في اقتحام (عكا) لقوة حصونها وعزيمة واليها (أحمد باشا الجزَّار)، ودعم الأسطول الانكليزي من جهة البحر، غير أنه انتصر علىٰ القوة العثمانية عند جبل طابور قرب الناصرة، ثم تراجع عن عكا، وعاد إلىٰ مصر، وهرب إلىٰ فرنسا، وقُتل خليفته (كليبر) سنة ١٢١٥هـ علىٰ يد سليمان الحلبي، وقامت الثورات في وجه الفرنسيين، وكانت انطلاقاتها من الجامع الأزهر، ونزل العثمانيون ومعهم قوة انكليزية إلىٰ أرض مصر، ووصلوا إلىٰ القاهرة، وأخيراً اضطر الفرنسيون إلىٰ الانسحاب من مصر بعد اتفاق العريش سنة ١٢١٦هـ.

وعاد نابليون بونابرت يُفاوض الدولة العثمانية لتحسين العلاقات بين الدولتين وإعادة التفاهم بينهما، وتمّ ذلك سنة ١٢١٦هـ علىٰ أساس إخلاء فرنسا لمصر، وتأييد امتيازات فرنسا السابقة في الدولة العثمانية. كما اتفقت فرنسا وانكلترا بمصالحة (أميان) سنة ١٢١٧هـ. وخرجت انكلترا من مصر، وأصبح لفرنسا حق الملاحة في البحر الأسود أسوةً بروسيا، وأُقيم في اليونان جمهورية مستقلة تحت حماية الدولة العثمانية وذلك

بالاتفاق مع روسيا، وأُعيدت لفرنسا امتيازاتها وما صودر لها من أملاك في الدولة العثمانية.

بدأ العمل في الدولة العثمانية علىٰ تنظيم الفرق العسكرية النظامية، وفصل الخليفة المدفعية والبحرية عن الانكشارية.

أرسل نابليون بونابرت مندوباً إلىٰ إستانبول لتأكيد تحسين العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا.

عزل الخليفة أميري الأفلاق والبغدان من مركزيهما، وكانا مؤيدين من روسيا فثارت ثائرة روسيا وأرسلت جيوشها لاحتلال الإقليمين دون إعلان الحرب علىٰ الدولة العثمانية، وتضامنت انكلترا مع روسيا، وأرسلت قطعاتٍ بحريةً إلىٰ مضيق الدردنيل، وطلبت من الخليفة:

١" ـ أن يقوم حلف بين الدولة العثمانية وانكلترا.

٢" ـ أن تسلّم الدولة العثمانية الأسطول وقلاع مضيق الدردنيل إلىٰ انكلترا.

٣" ـ أن تتنازل عن إقليمي الأفلاق والبغدان لروسيا.

٤" ـ أن تُعلن الحرب علىٰ فرنسا.

رفضت الدولة العثمانية اقتراحات انكلترا فاجتازت

القطعات الحربية مضيق الدردنيل بسهولةٍ، فساد الأهالي الخوف ورأىٰ الخليفة أن يقبل طلبات انكلترا، غير أن مندوب فرنسا الذي أُبلغ الخروج من إستانبول قابل الخليفة وعرض عليه دعم فرنسا، واستقدام الأسطول الفرنسي، وعدم التنازل لانكلترا، وخطر ذلك فوافق الخليفة، وبدأ الاستعداد لتحصين إستانبول ومضيق الدردنيل ودعم الفرنسيون ذلك، واضطرت القطعات البحرية الانكليزية للخروج من الدردنيل خوفاً من الحصار في بحر مرمرة، وكردّ فعلٍ أرسل القائد الانكليزي حملةً إلىٰ الاسكندرية بقيادة (فريزر) فاحتلها في مطلع سنة ١٢٢٢هـ، وأرسل فرقةً إلىٰ ثغر (رشيد) لكنها هُزمت، وأعاد الكرّة بعد أشهر فكان مصيره كالمرة السابقة. وجاء (محمد علي باشا) للدفاع عنها، واضطر الإنكليز للرحيل عن مصر بعد دخولهم بستة أشهرٍ.

جاء محمد علي باشا إلىٰ مصر مع الجنود العثمانيين الذين جاءوا لإخراج الفرنسيين منها، وبعد مناورات مع المماليك، والولاة، والأهالي استطاع أن يتوصّل إلىٰ ولاية مصر في ١٠ ربيع الثاني سنة ١٢٢٠هـ.

حاول الإنكليز لدىٰ الدولة العثمانية عزله أو نقله

ولكن تمسّك به العلماء والقادة فصدر أمر سنة ١٢٢١هـ بتثبيته، وارتفعت مكانته فضرب العلماء بعضهم ببعضٍ، وتخلّص من المماليك بحادثة القلعة سنة ١٢٢٦هـ فصفا له الجو واستبدّ بالولاية.

ثار الجنود غير النظاميين في القوات العثمانية وأيّدهم الانكشارية فقتلوا المؤيدين للنظام العسكري الجديد، ولكن لم يقبل الثائرون بهذا بل قرروا عزل الخليفة فنودي بعزله في ٢١ ربيع الثاني سنة ١٢٢٢هـ، وبقي معزولاً مدة سنةٍ وشهرٍ تقريباً، وتوفي بعدها في ٤ جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٢٢٣هـ، وكان عمره ٤٨ سنة تقريباً، وتولّىٰ الخلافة مدة ١٩ سنةً.

ـ ٢١ ـ

مصطفىٰ الرابع

(١٢٢٢ ـ ١٢٢٣هـ)

مصطفىٰ الرابع بن الخليفة عبد الحميد الأول وُلد سنة ١١٩٣هـ، وتولىٰ الخلافة سنة ١٢٢٢هـ بعد عزل ابن عمه الخليفة سليم الثالث وكان عمره تسعاً وعشرين سنةً.

تسلّم مصطفىٰ الرابع الخلافة بعد ثورة الجنود غير النظاميين بدعم الانكشارية، وتفرّق الجنود النظاميين نتيجة ذلك، فكان الخليفة مصطفىٰ الرابع صورةً يُحّركها الذين نجحوا بثورتهم.

لما وصلت أخبار الثورة ونجاحها إلىٰ الجيوش العثمانية التي تُقاتل الروس عند نهر الدانوب سرّ الإنكشارية، ولما رأوا قائدهم الصدر الأعظم (حلمي إبراهيم باشا) غير راضٍ عما جرىٰ قتلوه، وولّوا مكانه (جلبي باشا) فضعفت الجيوش.

كانت روسيا آنذاك في حربٍ مع فرنسا أيام نابليون بونابرت، وقد هُزمت روسيا أمام نابليون، غير

أن الصلح قد تمَّ بين فرنسا وروسيا، ودخلت فرنسا في وساطةٍ بين الدولة العثمانية وروسيا علىٰ إنهاء الحرب بينهما علىٰ أن تتخلّىٰ روسيا عن الأفلاق والبغدان دون أن تدخلهما جيوش الدولة العثمانية، فإن رفضت الدولة العثمانية ذلك اتفقت فرنسا وروسيا، ثم جذبتا إليهما النمسا بالاتفاق علىٰ أن تُسلخ الولايات العثمانية في أوربا وتتقاسمها فيما بينها. ووافق الطرفان علىٰ مقترحات نابليون، ولكن لم تتخل روسيا عن الأفلاق والبغدان، ومع ذلك توقفت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا مدة سنتين اثنتين.

اختلف زعماء الحركة التي أطاحت بالخليفة سليم الثالث، وقُتل زعيم الحركة (قباقجي أوغلي)، وطلب من تسلّم الحركة أن يُعاد الخليفة سليم الثالث إلا أنه كان قد توفي آنذاك، غير أن الخليفة مصطفىٰ الرابع قد قتل هذا الزعيم وأعلم جنده أن الخليفة سليم الثالث قد توفي، فنادوا بعزل الخليفة مصطفىٰ وحجره مكان سليم الثالث، وأُقيم خليفة بعده أخوه محمود الثاني سنة ١٢٢٣هـ. فكانت خلافة مصطفىٰ الرابع سنةً وشهراً.

حجز مصطفىٰ الرابع في مقرّ خلافته مدةً وقُتل بعد ذلك بقليلٍ، ولم يتجاوز من العمر الثلاثين سنةً.

ـ ٢٢ ـ

محمود الثاني

(١٢٢٣ ـ ١٢٥٥هـ)

محمود الثاني بن الخليفة عبد الحميد الأول، وُلد محمود الثاني في ١٣ رمضان سنة ١١٩٩هـ، وتولّىٰ الخلافة بعد أخيه مصطفىٰ الرابع سنة ١٢٢٣هـ وعمره أربع وعشرون سنةً.

قلّد (مصطفىٰ البيرقدار) منصب الصدارة العظمىٰ، وكلّفه بإصلاح الانكشارية فاعترضوا عليه، ووقع الخلاف فأرادوا إعادة الخليفة السابق المعزول مصطفىٰ الرابع فقُتل وأُلقيت جثته إليهم، وهم يحاصرون الصدر الأعظم في قصره الذي أحرقوه، واصطدم أنصاره بالانكشارية، وكادوا يُحرزون النصر عليهم وينتهوا منهم بموافقة الخليفة فأضرموا النار في المدينة فاضطر الخليفة إلىٰ إمهالهم واستجاب لطلبهم آنياً.

عقد الخليفة صلحاً مع انكلترا سنة ١٢٢٤هـ. وحاول أيضاً مع روسيا، ولكن لم يتم الاتفاق، واشتعلت نار الحرب، وهُزم العثمانيون بقيادة الصدر

الأعظم (ضياء يوسف باشا) واستولىٰ الروس علىٰ بعض المواقع، وعُزل الصدر الأعظم، وتولّىٰ مكانه (أحمد باشا) الذي انتصر علىٰ الروس وأجلاهم عن المواقع التي دخلوها، ثم عاودوا الكرَّة فانتصروا.

ساءت العلاقات بين فرنسا وروسيا، وكادت الحرب تقع بينهما، فطلبت روسيا الصلح مع الدولة العثمانية، وعُقدت بين الطرفين معاهدة (بُخارست) التي نصّت علىٰ بقاء الأفلاق، والبغدان، وبلاد الصرب تابعةً للدولة العثمانية، وبسارابيا لروسيا، وهذا ما فسح لروسيا أن تسحب جيوشها من الجبهة العثمانية وتزجّ بها في مقاومة نابليون بونابرت الذي جاءها غازياً، ولما انتصرت عليه عدّ هذا خيانةً من الدولة العثمانية له.

ولما علم أهل الصرب بمعاهدة بخارست وإعادة خضوعهم للدولة العثمانية، قاموا بالثورة غير أن القوات العثمانية أخضعتهم بالقوة، وفرّ زعماء الحركة إلىٰ النمسا لكن أحدهم وهو (تيودور فتش) أظهر الولاء للعثمانيين، وبقي يعمل سرّاً ضدّهم حتىٰ إذا تشبّع الناس بما أثاره فيهم من روح المقاومة أعلن العصيان سنة ١٢٣٠هـ، وبعد معارك دامت سنتين بينه وبين العثمانيين وكانت سجالاً بين الطرفين وافق علىٰ الخضوع لسلطان الدولة العثمانية، دون التدخّل في شؤون الصرب

الداخلية، وعلىٰ أن تبقىٰ وظيفة الوالي للعثمانيين الذين يسيطرون علىٰ القلاع والحصون وذلك سنة ١٢٣٢هـ، وتمكّن من قتل (قره جورج) الذي فرّ إلىٰ روسيا، وعاد إلىٰ البلاد متخفياً، وأرسل رأسه إلىٰ إستانبول إشارةً إلىٰ الطاعة في حين كان سيّد البلاد، ويتصرّف دون مشاورة الوالي.

هاجم محمد علي باشا والي مصر الدولة السعودية بحراً عند ينبع غرب المدينة المنورة، بقيادة ابنه (طوسون) وتأييد الدول الأوربية التي خشيت من إحياء روح الجهاد، ثم انتقل طوسون بجنده إلىٰ البر وسار نحو المدينة المنورة واستطاع أن يدخلها.

سار (طوسون) إلىٰ الطائف ودخلها ولكن جاءت نجدة، وحوصر (طوسون) في الطائف، فجاء (محمد علي باشا) بنفسه إلىٰ مكة، وخلع الشريف غالب، وأقام مكانه يحيىٰ بن سرور. وأحرز بعض الانتصارات، وضعف مركز الدولة السعودية، وتوفي سعود الكبير، وخلفه ابنه عبد الله سنة ١٢٢٩هـ.

سار (طوسون) باتجاه نجد عن طريق القصيم، ودخل بلدة الرسّ، وأرسل إليه عبد الله بن سعود من يفاوضه للصلح والخضوع للدولة العثمانية فوافق بعد

سفر والده الذي لم يستطع أن يأخذ رأيه، وتمّ الصلح، وأرسل إليه والده بضرورة سفر عبد الله بن سعود إلىٰ إستانبول، وإن لم يوافق يتابع طوسون سيره إلىٰ الدرعية.

وصل خبر إلىٰ طوسون مفاده أن تمرّداً قام في القاهرة ضد والده، فترك طوسون جيشه في جزيرة العرب بإمرة أحد قادته، وسافر هو إلىٰ القاهرة سنة ١٢٣٠هـ.

هدأ الوضع في القاهرة فأرسل محمد علي باشا حملةً جديدةً إلىٰ جزيرة العرب، بقيادة أكبر أولاده وهو إبراهيم ومعه بعض المستشارين الفرنسيين، ووصل إلىٰ الدرعية، وطلب عبد الله بن سعود الصلح في ٧ ذي القعدة ١٢٣٣هـ فتمّ بعد تسليم الدرعية، ووافق عبد الله علىٰ السفر إلىٰ إستانبول عن طريق القاهرة، وسافر فوصل إلىٰ القاهرة في ١٧ المحرم ١٢٣٧هـ، وقابل هناك محمد علي، وسافر بعد يومين إلىٰ إستانبول حيث قُتل بعد وصوله إليها بقليلٍ، ولم يفِ الخليفة بوعده، ورجع إبراهيم بن محمد علي من الجزيرة في ٢١ صفر سنة ١٢٣٥هـ.

دخول محمد علي باشا بلاد الشام:

كان محمد علي باشا يطمع في توسعة أملاكه

ويرغب في ضمّ بلاد الشام إليه، ولما فرّت أعداد من مصر إلىٰ الشام والتجؤوا إلىٰ والي عكا عبد الله باشا الجزّار، هرباً من الضرائب الفادحة التي فرضها عليهم محمد علي باشا في مصر، ورفض عبد الله باشا الجزّار إعادتهم جهّز محمد علي باشا جيشاً برياً وآخر بحرياً بإمرة ابنه إبراهيم باشا وسيّره إلىٰ بلاد الشام، فسار الجيش البحري في ٢٦ جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٢٤٧هـ، أما الجيش البري فقد سبق في سيره واحتلّ غزة، ويافا، والقدس، ونابلس، والتقىٰ الجيشان في حيفا، وسار إبراهيم باشا وحاصر عكا براً وبحراً.

كلّف الخليفة عامله علىٰ حلب (عثمان باشا) بقتال إبراهيم باشا، فسار إليه فترك إبراهيم باشا حصار عكا لقوةٍ صغيرة وسار لملاقاة عثمان باشا، فالتقيا قرب حمص فهُزم عثمان باشا ورجع القهقرى، وعاد إبراهيم باشا فشدّد الحصار علىٰ عكا ودخلها، وانطلق بعدها متجهاً نحو الشمال.

سيّر الخليفة لقتال إبراهيم باشا القائد حسين باشا الذي انهزمت مقدمته أمام المصريين الذين دخلوا حلب، وتراجع حسين باشا حتىٰ تحصّن في ممر بيلان الذي يعدّ الطريق الطبيعي من وإلىٰ الأناضول فانتصر إبراهيم باشا، فجهّز الخليفة جيشاً بقيادة رشيد باشا

الذي التقىٰ مع إبراهيم باشا قرب مدينة قونية بعد أن اجتاز إبراهيم جبال طوروس، واحتلّ أضنه، وانتصر إبراهيم هنا أيضاً وأخذ القائد العثماني أسيراً، وأصبحت أبواب إستانبول مفتوحةً أمامه.

خشيت الدول الأوربية من سيطرة محمد علي باشا علىٰ الدولة العثمانية ودبّ النشاط فيها من جديدٍ، وكانت أكثر هذه الدول خوفاً هي روسيا، التي عرضت علىٰ الخليفة دعمه وأرسلت له ١٥ ألف جندي لحماية إستانبول، فخافت انكلترا وفرنسا من التدخّل الروسي، وطلبت من الخليفة ضرورة التفاهم مع محمد علي باشا.

معاهدة كوتاهية:

اتفقت الدولة العثمانية وواليها علىٰ مصر محمد علي باشا سنة ١٢٤٨هـ في مدينة كوتاهية علىٰ معاهدةٍ تضمّ النقاط التالية:

١" ـ أن ترجع جيوش محمد علي باشا عن إقليم الأناضول إلىٰ ما بعد جبال طوروس.

٢" ـ يُعطىٰ محمد علي باشا ولاية مصر مدة حياته.

٣" ـ يُعين محمد علي باشا والياً من قبله علىٰ

ولايات الشام (عكا، طرابلس، دمشق، حلب) وعلىٰ جزيرة كريت.

٤" ـ يُعيّن إبراهيم بن محمد علي والياً علىٰ إقليم أضنه، وهو الإقليم المتاخم للأناضول.

ويبدو أن الخليفة وافق مرحلياً علىٰ هذه النقاط ليستعدّ للحرب ثانيةً، وينقذ موقفه من تعدّيات واليه علىٰ مصر، وكذلك كانت موافقة محمد علي باشا مرحليةً خوفاً من تدخل الدول الأوربية وإجباره علىٰ التراجع وهو يريد الانفصال التام.

أصدر الخليفة في هذه الأثناء بعض التعليمات الإصلاحية وهو ما يعرف باسم (خط شريف كولخانة).

معاهدة خونكار أسكله سي:

أثناء وجود القوات الروسية في الدولة العثمانية للدفاع عن إستانبول عُقدت معاهدة جانبية مع الدولة تعهدت فيها بالدفاع عن الدولة ضد جيوش محمد علي أو أيّ معتدٍ، وبذلك أصبحت بإمكانها التدخّل في شؤون الدولة الخاصة، وكذلك كانت موافقة الخليفة علىٰ هذه المعاهدة مرحليةً.

تجدّد القتال في الشام:

حدثت ثورات في بلاد الشام ضد حكم إبراهيم باشا بن محمد علي باشا فأخضعها بكل شدّةٍ فهدأت. وفاتح محمد علي باشا وكلاء الدول الأوربية في مصر بأنه يريد ولاية مصر والشام وجزيرة العرب له ولأولاده من بعده، ونُقلت هذه الرغبات إلىٰ الدولة العثمانية التي أرسلت له مندوباً اتفق معه علىٰ أن تكون مصر وجزيرة العرب ملكاً متوارثاً لأسرة محمد علي، وبلاد الشام لمحمد علي مدىٰ حياته، وتعدّ جبال طوروس الحدّ الفاصل بين الشام والأناضول، ولم يوافق الخليفة إلا أن تكون له فجاج جبال طوروس وبذا تكون سفوحها من كلا الجانبين للدولة العثمانية، وأصرّ محمد علي علىٰ عكس ذلك فوقع الخلاف.

سار (حافظ باشا) علىٰ رأس جيشٍ من أرمينية وسيواس وتقدّم إلىٰ بلاد الشام، وفي ١١ ربيع الثاني سنة ١٢٥٥هـ التقىٰ مع إبراهيم باشا في بلدة (نزيب)، إلىٰ الغرب من نهر الفرات شمال الحدود السورية (اليوم) بخمسةٍ وعشرين كيلاً فانهزم العثمانيون، وتركوا عتادهم في ساحة القتال فأخذ المصريون ١٦٦ مدفعاً و٢٠ ألف بندقية. وكان في الجيش العثماني

القائد الألماني المشهور (فون مولتكه).

ثورة اليونان:

كانت اليونان تتبع الدولة العثمانية، وقد أسس اليونانيون الذين في النمسا وروسيا للدراسة والتجارة جمعياتٍ سريةً، وبدؤوا يعملون للانفصال عن العثمانيين لاختلاف الرابطة الأساسية بين الطرفين ألا وهي العقيدة. وكانت مراكز جميعة الأخوة أهم هذه الجمعيات في فيينا عاصمة النمسا، وفي أوديسا علىٰ البحر الأسود في روسيا ثم انتقل مركزها إلىٰ كييف قاعدة أوكرانيا الروسية، وكثر أعضاء هذه الجمعية، واستغلّوا انشغال الدولة بقتال (علي باشا) وبدؤوا بالحركة، وما أن قضىٰ (خورشيد باشا) علىٰ (علي باشا) والي (يانية) حتىٰ أعلنوا العصيان بالتحريض من الروس بالدرجة الأولىٰ. فكُلّف (خورشيد باشا) بإخضاعهم فسار إليهم، فانتصروا عليه، وشتّتوا جنده، وانتحر هو بتجرّع السمّ سنة ١٢٣٧هـ.

كلّف الخليفة محمود الثاني والي مصر محمد علي باشا بإخضاع اليونان، وكان قد انتهىٰ من دخول السودان. وأصدر أمراً بتعيين محمد علي باشا والياً علىٰ شبه جزيرة الموره وجزيرة كريت وهاتان المنطقتان

مركز الثورة اليونانية، وهذا إضافةً إلىٰ ما تحت يد محمد علي باشا من ولايات.

سارت جيوش محمد علي باشا بحراً من الاسكندرية بقيادة ابنه إبراهيم باشا ومساعدة مستشاره سليمان الفرنساوي سنة ١٢٣٩هـ، إلىٰ جزيرة (رودوس) ومنها إلىٰ جزيرة (كريت) فاحتلّها، وانطلق إلىٰ شبه جزيرة الموره التي كانت الثورة قد ألهبت نارها شبه الجزيرة كلها وسيطرت عليها سوىٰ مينائين، فأنزل إبراهيم باشا جنوده بصعوبةٍ كبيرةٍ حيث كانت أوربا كلها من خلف ثورة اليونان تحّركها ضد المسلمين العثمانيين، بدافعٍ صليبيٍ حيث تأسست جمعيات في أوربا باسم جمعيات محبي اليونان، وترسل هذه الجمعيات المال والسلاح لليونان لتقاتل المسلمين، كما تطوّعت أعداد كبيرة من أعضاء هذه الجمعيات للقتال في بلاد اليونان، ومن هؤلاء (واشنطون) ابن أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية، والشاعر الإنكليزي اللورد (بيرون) وأمثالهم كثير..... ووضعت القصائد الحماسية.

استطاع إبراهيم باشا أن يحرز النصر ـ بإذن الله ـ وأن يدخل مدينة (نافارين) سنة ١٢٤٠هـ، وأن يدخل العثمانيون ـ بمشيئة الله ـ مدينة (أثينا) سنة ١٢٤١هـ رغم دفاع القائد الإنكليزي البحري اللورد (كوشران). ثم

تدخّلت الدول الأوربية باسم حماية اليونان ظاهراً وبحقدٍ صليبيٍ واضحٍ، إذ كانت روسيا تدعم الحركة اليونانية علناً، وتأوي اللاجئين إليها. وقد رأت أن الفرصة مناسبة جداً لدخول إستانبول وإعادتها إلىٰ ماضيها (القسطنطينية) مركز الأرثوذكس.

وقفت انكلترا بجانب روسيا وعقد صلح مع الدولة العثمانية وهو معاهدة (آق كرمان) في ٢٨ صفر سنة ١٢٤٢هـ، وأهم ما جاء فيها:

١" ـ يحق لروسيا الملاحة في البحر الأسود، ومرور سفنها في المضائق العثمانية دون تفتيشٍ.

٢" ـ تنتخب روسيا حكام مقاطعتي الأفلاق والبغدان، ولا يحق للدولة العثمانية عزل أحدهما أو كلاهما إلا بموافقة روسيا.

٣" ـ تصبح ولاية الصرب مستقلةً، وتحتفظ الدولة العثمانية بثلاث قلاعٍ فيها فقط من بينها (بلغراد).

ووافقت كل من النمسا وبروسيا وفرنسا أيضاً علىٰ هذه المعاهدة، ورغم أنها عُقدت بسبب الثورة في اليونان إلا أنها لم تذكر شيئاً عنها.

تجدُّد القتال:

طلبت انكلترا من الدولة العثمانية في ٨ رجب سنة

١٢٤٢هـ أن تتوسّط الدول الأوربية النصرانية بين الدولة العثمانية وبين ما يتبعها، فرفضت الدولة العثمانية ذلك لأن هذا تدخّل صريح في شؤونها الداخلية، فكان هذا الرفض حجةً تزرّعت بها الدول الأوربية لإعلان الحرب مرةً أخرىٰ، بعد أن أضعفت الدولة العثمانية سياسياً، وخسرت مناطق من أملاكها في معاهدة (آق كرمان)، وما كان الطلب الإنكليزي إلا مبرراً أو إيجاد مبررٍ لإعادة القتال.

اتفقت انكلترا وفرنسا وروسيا في ١١ ذي الحجة علىٰ إجبار الدولة العثمانية لإعطاء اليونان استقلالها، علىٰ أن تدفع جزيةً سنويةً يتفق عليها الطرفان، وأُعطي الخليفة مدة شهرٍ لإيقاف الأعمال العدوانية ضد اليونان، وإن عجز عن ذلك أو رفض فإن الدول النصرانية تتخذ ما تراه مناسباً، ولم يعمل الخليفة أي عملٍ بهذا الخصوص. وبعد شهرٍ أمرت الدول الثلاث: انكلترا وفرنسا وروسيا أساطيلها بالتوجّه إلىٰ سواحل اليونان، وطلبت من إبراهيم باشا التوقّف عن القتال، فكان جوابه طبيعياً بأنه يتلقّىٰ الأوامر من خليفة المسلمين أو من أبيه لا من غيرهما، ومع ذلك توقّف عشرين يوماً عن القتال ريثما تصل إليه التعليمات من المسؤولين عنه، واجتمعت أساطيل الدول الأوربية في

ميناء (نافارين) محيطة بالقوات العثمانية فدُمّر الأسطول العثماني وأكثر الأسطول المصري، وقُتل ما يزيد علىٰ ثلاثين ألف جنديٍ مصريٍ، واحتجَّ الخليفة فلم ينفعه احتجاجه فأعلن أن القِتال ديني لا سياسي وذلك في منشورٍ أصدره للمواطنين ودعاهم فيه للدفاع عن عقيدتهم، وخصّ بذلك روسيا التي تأثّرت من ذلك وأعلنت الحرب علىٰ الدولة العثمانية في ١١ شوال سنة ١٢٤٣هـ.

ولما رأىٰ محمد علي باشا والي مصر ذلك أمر ولده بالانسحاب من اليونان بجنده، وترك قوةٍ بسيطةٍ في المدن التي لا تزال بيده حتىٰ يتسلّمها العثمانيون. وكان الفرنسيون يحلّون مكان الجنود المصريين المنسحبين. وعقدت الدول الأوربية الثلاث مؤتمراً في لندن ودعت إليه الدولة العثمانية فرفضت الحضور، فقرّر المؤتمر إعلان استقلال اليونان وحكمها من قبل حاكمٍ نصرانيٍ تنتخبه هذه الدول ويكون تحت حمايتها، وتدفع جزيةً سنويةً للدولة العثمانية يكون مقدارها خمسمائة ألف قرشٍ، ولكن الدولة العثمانية رفضت هذا المؤتمر وقراراته التي تتعلق بالدولة ورعاياها، فلا يحق لأحدٍ أن يُصدر قراراتٍ بشأنها أو تتعلّق فيها وانصرفت الدولة إلىٰ قتال روسيا التي أعلنت الحرب عليها.

الحرب مع روسيا:

بعد أن أعلنت روسيا الحرب علىٰ الدولة العثمانية اجتازت جيوشها نهر (بروت)، الفاصل بين الدولتين والذي يرفد نهر الدانوب قرب مصبه، واحتلت عاصمة إقليم البغدان (ياسيّ) الواقعة علىٰ النهر، ثم دخلت مدينة (بخارست) عاصمة إقليم الأفلاق، وجعلت علىٰ الإقليمين حكاماً من قبلها. ثم اجتازت نهر الدانوب، واتجهت جيوشها لحصار مدينة (فارنا) الواقعة في بلغاريا علىٰ ساحل البحر الأسود، وحاصرتها براً وبحراً، ولكن سُلّمت بالنهاية خيانةً بعدما يئست روسيا من دخولها، وكان تسليمها في أول شهر ربيع الأول سنة ١٢٤٤هـ علىٰ يد يوسف باشا أحد القادة العثمانيين الذي التجأ أيضاً إلىٰ بلاد الروس، وكذلك احتلت روسيا مدينة (قارص) في شرقي الأناضول، ثم تقدّمت من جهة الغرب، واحتلّت مدينة (أدرنة)، وخافت إنكلترا وفرنسا من أن تحتل روسيا مدينة (إستانبول) فإن ذلك يُهدّد مصالحها الخاصة لذلك سارعتا للوقوف في وجه روسيا، وبجهود مملكة بروسيا عقدت معاهدة أدرنة سنة ١٢٤٥هـ في منتصف شهر ربيع الأول، ومن أهم ما جاء فيها:

١" ـ إعادة الأفلاق، والبغدان، ودوبروجيه، والبلقان، وقارص، وأرضروم إلىٰ الدولة العثمانية.

٢" ـ يُعّد نهر (بروت) الحد الفاصل بين الدولتين.

٣" ـ تكون الملاحة في نهر الدانوب عند مصبه من حق الدولتين.

٤" ـ حرية الملاحة لروسيا في البحر الأسود.

٥" ـ لا تُفتش السفن الروسية أثناء عبورها المضائق العثمانية.

٦" ـ تُعوِّض الدولة العثمانية لروسيا مبالغ كمصروفات حربٍ.

٧" ـ يُطلق سراح الأسرىٰ الذين عند الدولتين.

٨" ـ تستقلّ بلاد الصرب وتُعطىٰ ما بقي من أجزائها تحت حكم الدولة العثمانية.

٩" ـ تُعاد الامتيازات القنصلية الروسية، ورعايا روسيا لهم المعاملة نفسها التي لرعايا الدول الأوربية الأخرىٰ، وكذا الامتيازات.

احتلال فرنسا للجزائر:

كانت فرنسا تطمع باحتلال أجزاء من ساحل بلاد المغرب لتكون قواعد لها، وكانت تدّعي دائماً بتعدّي

قراصنة بلاد المغرب علىٰ سفنها، وقد قررت الاحتلال فكانت تفتش عن ذريعة لاختلافها مع والي الجزائر الباي (حسين)، ولحادثةٍ بسيطةٍ قررت الحرب، وأمر الملك الفرنسي بضرورة احتلال إقليم الجزائر وذلك في ١٣ شعبان سنة ١٢٤٥هـ، فأرسلت الحكومة الفرنسية جيشاً يضمّ ثمانيةً وعشرين ألف مقاتلٍ، وأسطولاً يضمّ مائة سفينةٍ، وسفناً أخرىٰ تحمل ٢٧ ألف جنديٍ بحريٍ وأُنزلت بالقرب من مدينة (الجزائر)، وبعد قتالٍ عنيفٍ دخلوا مدينة الجزائر، وقامت المقاومة بقيادة عبد القادر الجزائري حتىٰ استسلم في ٢٤ رجب ١٢٦٣هـ، وسيطرت فرنسا علىٰ الإقليم، وإن بقيت المقاومة عنيفةً، وتظهر بين الآونة والأخرىٰ.

وكانت إنكلترا قد خشيت من هذا العمل الفرنسي خوفاً من منافستها، وطلبت من الدولة العثمانية أن تأمر واليها بالتساهل مع فرنسا وإرضائها كي يفشل مخططها، فأرسل مندوباً لذلك، لكن قُبض عليه وأُخذ أسيراً حيث بقي في السجن حتىٰ أنهت فرنسا مهمتها.

إلغاء نظام الإنكشارية:

تضايق الخليفة محمود الثاني من الأوضاع التي آلت إليها الإنكشارية والتصّرفات التي تقوم بها،

وأُعجب بالأنظمة العسكرية الحديثة، وسُرّ بالجنود المصريين في حرب اليونان لذا فقد قرّر إلغاء نظام الانكشارية، فدعا كبار الدولة، وكبار ضباط الانكشارية إلىٰ بيت المفتي، وتكلّم الصدر الأعظم (سليم محمد باشا) وشرح المواقف فأبدىٰ الجميع تأييدهم، إلا أن الانكشارية قرّروا العصيان، واستعدّوا لذلك، واجتمعوا في ساحة (آت ميدان) فأحاطت بهم المدفعية وحصدتهم في يوم ٩ ذي القعدة سنة ١٢٤٠هـ، وفي اليوم التالي أصدر الخليفة قراراً بمنع هذا النظام، وبدأ بتنظيمٍ جديدٍ للجنود علىٰ الطريقة الأوربية مستفيداً من المدربين الأجانب.

وتوفي الخليفة محمود الثاني في ١٩ ربيع الثاني سنة ١٢٥٥هـ عن عمرٍ يناهز السادسة والخمسين.

ـ ٢٣ ـ

عبد المجيد الأول

(١٢٥٥ ــ ١٢٧٧هـ)

ولد الخليفة عبد المجيد الأول في ١٤ شعبان سنة ١٢٣٧هـ، وتولّىٰ الخلافة بعد وفاة أبيه محمود الثاني سنة ١٢٥٥هـ فكان عمره يوم أُسندت إليه الخلافة دون الثامنة عشرة.

كانت أحوال الدولة العثمانية في اضطرابٍ نتيجة الهزائم التي حلّت بها، واتفاق الدول الأوربية ضدها بحقدٍ صليبي، وزاد الاضطراب أن قائد البحرية العثماني (أحمد باشا) قد خرج بمراكبه الحربية جميعها في ٢ جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٢٥٥هـ، وأتىٰ بها إلىٰ ثغر الإسكندرية وسلّمها إلىٰ والي مصر محمد علي باشا، وقد رأىٰ أن فيه القوة التي يمكن أن تدافع ضد أوربا الصليبية.

خافت الدول الأوربية بعد هذا الضعف الذي حلّ بالدولة العثمانية أن يسير محمد علي باشا إليها ويحتلّ إستانبول، أو تتقدّم روسيا للدفاع عنها بناء علىٰ

المعاهدة الدفاعية المعقودة بين الطرفين سابقاً، لذا فقد قدّمت الدول الأوربية لائحةً مشتركةً من: روسيا، وبروسيا، والنمسا، وفرنسا، وإنكلترا تطلب من الخليفة الجديد ألا يقرّ في شأنٍ يتعلّق بوالي مصر دون الرجوع إليهم، وفي الوقت نفسه فإنهم مستعدون للتوسط بينهما فقبل الخليفة اللائحة، واجتمع السفراء عند الصدر الأعظم، وتداولوا الرأي، وظهر تباين في وجهات النظر. روسيا تريد أن تحتفظ بالمعاهدة الدفاعية مع الدولة العثمانية التي تبقيها تحت حمايتها، وانكلترا وفرنسا تخشيان من ذلك وترغبان أن تكون لهما قطعات بحرية في المضائق، تشاركانها وتمنعانها من أن تنفرد بالتصرّف في شؤون الدولة العثمانية وحدها. ومن ناحيةٍ أخرىٰ فإن فرنسا تودّ دعم محمد علي وأن يحتفظ بما أخضعه، وانكلترا لا تريد ذلك منافسةً لفرنسا علىٰ مركزها في مصر، وخوفاً من منافستها علىٰ طريق الهند. والنمسا وبروسيا تريان في قوة محمد علي خطراً علىٰ أوربا خشيةً من أن يسيطر علىٰ الدولة ويُعيد لها القوة، فهما أقرب إلىٰ انكلترا. وبعد فشل الاتفاق، والتهديدات بالانسحاب، ودعوة إلىٰ مؤتمرات فقد نجحوا في عقد اتفاقيةٍ سنة ١٢٥٦هـ بين إنكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا بعد انسحاب فرنسا ومحاولة اتفاقها

مباشرة مع الدولة العثمانية ومحمد علي باشا وتشجيعه علىٰ رفض مطالب إنكلترا، ودعمه إن عارضته إنكلترا، غير أن هذه الاتفاقية قد نصّت علىٰ:

١" ـ يجب علىٰ محمد علي باشا أن يعيد إلىٰ الدولة العثمانية ما احتله منها، ويحتفظ لنفسه بالجزء الجنوبي من الشام مع عدم دخول عكا في هذا الجزء.

٢" ـ يحق لإنكلترا بالاتفاق مع النمسا في محاصرة موانئ الشام ومساعدة كل من أراد من السكان خلع طاعة محمد علي باشا والعودة إلىٰ الدولة العثمانية، (ومعنىٰ ذلك التحريض علىٰ العصيان).

٣" ـ أن يكون لمراكب روسيا وإنكلترا والنمسا حق الدخول إلىٰ إستانبول لحمايتها فيما إذا تعرّضت لهجومٍ من قبل المصريين، ولا يحق لأحدٍ أن يدخلها ما دامت غير مهددةٍ بهجومٍ.

٤" ـ يجب أن تُصدّق هذه الاتفاقية خلال شهرين في لندن، كما يجب تصديقها من الخليفة.

بدأت إنكلترا تحرّض سكان الجبال ذات الأقليات كالموارنة، والنصيرية، والدروز، وبدأ تحرّك الأساطيل الإنكليزية والفرنسية علىٰ سواحل بلاد الشام. ثم بُلّغت الاتفاقية لمحمد علي باشا، وجاءته بعد ذلك قناصل

الدول الأربع (إنكلترا، بروسيا، روسيا، النمسا)، وعرضوا عليه باسم دولهم: أن تكون له ولاية مصر وراثيةً، وولاية عكا مدىٰ الحياة، وأعطوه مهلة عشرة أيامٍ للجواب، وأفهموه أن فرنسا لا يمكن أن تساعده. وبعد مضي عشرة أيامٍ جاءه القناصل ومعهم مندوب عن الدولة العثمانية بأنه بقي له ولاية مصر فقط فرفض ذلك وطردهم من بلاده، فأعطوه عشرة أيامٍ للجواب فإن رفض فإن الدول تتخذ ما تراه مناسباً، وبعد انقضاء المدة كتبوا إلىٰ سفراء دولهم في إستانبول فاجتمعوا مع الصدر الأعظم، واتخذوا قراراً بسلخ ولاية مصر من محمد علي باشا، وضعفت الحكومة الفرنسية، وسحبت قواتها البحرية إلىٰ مياه اليونان ثم إلىٰ فرنسا، وتركت سواحل مصر والشام لسفن إنكلترا، وثار الرأي العام الفرنسي ضد حكومته التي شجّعت محمد علي علىٰ المقاومة ثم لم تستطع مساعدته في الوقت المناسب.

اقتصرت روسيا بعدم الابتعاد عن إستانبول، ولم يكن لبروسيا مراكب يومذاك، واقتصر العمل علىٰ انكلترا مع دعمٍ قليل من النمسا، وتمكّنت القوات الإنكليزية ومن معها من أخذ الموانئ وإجلاء المصريين، وطلب محمد علي باشا من ابنه إبراهيم

الانسحاب حيث لا يستطيع مقاومة الدول كلها، فانسحب، وتعرّض أثناء انسحابه لكثيرٍ من الهجمات عليه من العرب حتىٰ فقد ثلاثة أرباع الذين معه.

وعرض قائد القوات البحرية الانكليزية علىٰ محمد علي باشا التوسط لدىٰ الدولة العثمانية لإبقاء مصر وراثيةً له فيما إذا تنازل عن ولاية الشام، وردّ القطعات البحرية التي جاءته مع أحمد باشا إلىٰ الدولة العثمانية فوافق علىٰ ذلك. ووافق الخليفة علىٰ أن يُحدَّد الجيش المصري بثمانية عشر ألفاً، ويمكن أن يزيد وقت الضرورة، ولا تصنع مصر سفناً، ولا يحق للوالي تعيين ضباط أعلىٰ من رتبة ملازم، والرتب الأعلىٰ من ذلك ترجع للخليفة، واتفق علىٰ أن ما تدفعه الحكومة المصرية للدولة العثمانية ثمانين ألف كيسٍ سنوياً.

إلغاء معاهدة خونكار اسكله سي:

بدأت إنكلترا وفرنسا تعملان لإلغاء المعاهدة الدفاعية بين الدولة العثمانية وروسيا (خونكار اسكله سي) التي تقضي بمرور السفن الروسية من المضائق العثمانية في الوقت الذي تشاء ودون تفتيش سفنها، وقد استطاعت الدولتان فرنسا وانكلترا الاتفاق مع الدول الأخرىٰ بما فيها روسيا علىٰ أن تبقىٰ المضائق مقفلةً

أمام الدول جميعها دون استثناء، ووقعت المعاهدة التي عُرفت بـ(معاهدة المضائق) في ٢٣ جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٢٤٧هـ.

اتفاق بلطه ليمان:

ثار أهالي الأفلاق والبغدان رغبةً في تكوين دولةٍ واحدةٍ تشمل الإقليمين مع ترانسلفانيا، ففرّ أميرا الإقليمين، وتشكلت حكومة موقتة، فأرسلت الدولة العثمانية جيشاً بقيادة (عمر باشا) لإعادة الوضع إلىٰ ما كان عليه، وسارعت روسيا واحتلت الأفلاق والبغدان وطردت الحكومة الموقتة، فاحتجّت الدولة العثمانية علىٰ هذا الفعل، وكادت الحرب تقع بين الطرفين، ثم جرىٰ اتفاق (بلطه ليمان) قرب إستانبول سنة ١٢٦٥هـ ينصّ علىٰ أن يبقىٰ تعيين أمراء الإقليمين من حق الدولة العثمانية، وأن يبقىٰ فيهما جيش عثماني ـ روسي لمدة سبع سنواتٍ حتىٰ يستقرّ الوضع.

حرب القرم:

كانت فرنسا بحكم الامتيازات القنصلية تملك الإشراف علىٰ الكنائس في بيت المقدس، وقد حصلت روسيا علىٰ هذا الإشراف لاشتغال فرنسا بحروب

نابليون، فلما انتهت فرنسا مما تعاني أرادت العودة إلىٰ ما كانت عليه، فحصل خلاف بين رجال الكنائس الكاثوليك والأرثوذكس. فشكّلت الدولة العثمانية لجنةً من رجال الكنائس مختلفي المذاهب فأقروا بحق فرنسا في ذلك فاحتجّت روسيا، وهدّدت بالحرب، وأرسلت سفيراً فوق العادة إلىٰ إستانبول هو الأمير (منشيكوف) لإيجاد الشقاق، وحاول إعادة معاهدة (خونكار اسكله سي) الدفاعية مع الدولة العثمانية فلم يقبل الخليفة ذلك.

اتصل إمبراطور روسيا (نيقولا) بسفير إنكلترا معرّضاً له بالاستيلاء علىٰ مصر مقابل الاتفاق علىٰ تقسيم الدولة العثمانية، والقضاء عليها فلم يجد عنده آذاناً صاغيةً، واتصل بسفير فرنسا معرّضاً له باحتلال تونس والوقوف في وجه إنكلترا فلم يرَ عنده ما يرتاح له.

ورفض الخليفة أيضاً من السفير الروسي حق حماية روسيا للنصارىٰ المقيمين في الدولة العثمانية، بل أعاد (رشيد باشا) للصدارة العظمىٰ وكان قد عزله إرضاءً لروسيا، فأرسل السفير بلاغاً نهائياً للخليفة مع مهلة ثمانية أيامٍ فلم يردّ عليه الخليفة، فارتحل عندها السفير من إستانبول مهدّداً باحتلال الأفلاق والبغدان.

أبلغ الخليفة سفراء الدول ما تمّ، فأعطت انكلترا الأوامر لقطعاتها البحرية المنتظرة في جزيرة مالطة بالتحّرك إلىٰ مياه اليونان حيث القطعات الفرنسية والاشتراك معها في الأعمال كافةً، وتلقّت القطعات المشتركة الأوامر بالتحرك نحو مضيق الدردنيل لتكون علىٰ مقربةٍ من ميدان المعركة المرتقبة.

تقدّمت الجيوش الروسية واحتلّت إقليمي الأفلاق والبغدان حسب تهديدات سفيرها فوق العادة، وسعت النمسا للصلح بين روسيا والدولة العثمانية، وعُقد مؤتمر في فيينا، وكان ظنّ الروس أن النمسا ستقف بجانبهم، حيث عملوا بجانبها ضدَّ الثورة التي اندلعت في بلادها وأخمدوا التهاب نيرانها للملك النمساوي (فرانسوا جوزيف)، وعُقد المؤتمر في الشهر الأخير من سنة ١٢٦٩هـ، وسعت النمسا، وبروسيا، وإنكلترا، وفرنسا للتوفيق بين الطرفين وقُدّمت عروض وافقت عليها روسيا ورفضها الخليفة، وشجّعت إنكلترا وفرنسا الدولة العثمانية في عدم الخضوع لطلبات الروس وانفضّ المؤتمر دون اتفاقٍ.

أرسلت الدولة العثمانية إلىٰ روسيا بضرورة إخلاء ولايتي الأفلاق والبغدان في مدة خمسة عشر يوماً من تاريخ البلاغ ١/١/١٢٧٠هـ، وأمرت في الوقت نفسه

قائدها عمر باشا بالتحّرك ودخول هاتين الولايتين إثر الموعد المحدد. ودخل عمر باشا فعلاً في أول شهر صفر وانتصر، وأجبر الروس علىٰ الانسحاب، كما انتصر العثمانيون في الوقت نفسه علىٰ جبهة القفقاس، واحتلّوا بعض القلاع، وتوقّف القتال بسبب برد الشتاء.

اتصل إمبراطور روسيا بإمبراطور النمسا طالباً منه النجدة فيما إذا دخلت الدول الغربية في القتال الدائر بين العثمانيين والروس، فلم يوافق إمبراطور النمسا بل اعتذر عن تلك المساعدة.

دمّرت الأساطيل الروسية في البحر الأسود القطعات البحرية العثمانية في ميناء (سينوب) العثماني، وكانت القطعات البحرية الفرنسية والإنكليزية قد اقتربت من إستانبول، ثم دخلت إثر ذلك الاعتداء إلىٰ البحر الأسود، ولم تُجدِ محاولات الصلح والرسائل. وكان موقف فرنسا وإنكلترا ضد روسيا خوفاً علىٰ مصالحهم لا حبّاً بالمسلمين، وظهر لإمبراطور روسيا أن النمسا بجانب خصومه وليست بجانبه، ويشكّ في أمر بروسيا.

وجرىٰ اتفاق في إستانبول في ١٢ جمادىٰ الآخرة سنة ١٢٧٠هـ بين الدولة العثمانية وفرنسا وإنكلترا علىٰ محاربة روسيا، واقتضىٰ الاتفاق أن ترسل فرنسا خمسين

ألف جنديٍ وتبعث إنكلترا بخمسةٍ وعشرين ألفاً، وأن تجلو هذه الجنود عن الدولة العثمانية بعد خمسة أسابيع من الصلح مع روسيا.

أعلنت فرنسا الحرب علىٰ روسيا بالاتفاق مع إنكلترا، ثم اتفقت الدولتان في لندن في ١٢ رجب من السنة نفسها ألا تنفرد إحداهما بالاتصال مع روسيا أو الاتفاق معها، وأن تمنعا روسيا من ضمّ أي جزءٍ من الدولة العثمانية إليها، وجمعتا جيوشهما في غاليبولي وإستانبول.

بدأت المعارك البحرية قبل أن تصل القوات البرية، إذ أرسل أحد القادة الإنكليز في البحرية أحد مراكبه ليحمل الرعايا الإنكليز من ميناء أوديسا، ويرفع العلم الأبيض، فأطلقت القلاع الروسية المدافع عليه، ورفض حاكم المدينة الاعتذار فهدّمت القطع البحرية الفرنسية والإنكليزية قلاع المدينة، ثم انطلقت إلىٰ الأسطول فأعلن الإمبراطور الروسي في ١٣ رجب سنة ١٢٧٠هـ الحرب علىٰ الدول المعادية له.

اجتازت الجيوش الروسية نهر الدانوب، وحاصرت مدينة (سلستريا) مدة خمسةً وثلاثين يوماً ولم تستطع اقتحامها، وجاء المدد للعثمانيين فترك الروس

الحصار، وانسحبوا، وأراد العثمانيون ملاحقتهم واسترجاع الأفلاق والبغدان حيث أخلاهما الروس، إلا أن النمساويين قد احتلوا هذين الإقليمين ووقفوا في وجه العثمانيين.

نقلت الدول المتحالفة المعركة إلىٰ أرض الروس، وحاصرت ميناء (سيباستيبول)، وهزمت القوات الروسية. ثم أقنعت النمسا بالانضمام إليها فوافقت، ورفضت بروسيا ذلك من النمسا. وبعد مدةٍ انضمت أيضاً مملكة البيمونت بإيطاليا إلىٰ الدول المتحالفة التي احتلت ميناء (كيرتش) وبحر آزوف؛ لمنع وصول الإمدادات إلىٰ (سيباستيبول) التي أخلاها الروس بعدئذٍ وأحرقوها، ودخلتها الدول المتحالفة في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٢٧١هـ، وكانت بعض القطع البحرية الفرنسية والإنكليزية قد أطلقت القذائف علىٰ موانئ بحر البلطيق الروسية وعطّلت التجارة فيها، وحاصرت مدخل البحر الأبيض الشمالي، ثم تقدّمت بعد سبياستيبول في أراضي أوكرانيا. وفي جبهة القفقاس استطاع الروس أن يستولوا علىٰ مدينة (قارص). ثم جاء فصل الشتاء وتوقّفت العمليات الحربية. وانضمت السويد إلىٰ الدول المتحالفة. ثم وافقت روسيا علىٰ طلبات أعدائها بعد أن كانت قد رفضتها من قبل، بل قبلت ما زادت عليه

هذه الدول من شروطٍ أقسىٰ، وعقدت معاهدة باريس، وتنصّ علىٰ ما يأتي:

١" ـ تُخلىٰ المناطق التي احتلّت أثناء الحرب من كلا الطرفين، ويُطلق سراح الأسرىٰ، ويصدر عفو عام عن جميع الذين تعاونوا مع خصوم دولهم.

٢" ـ تُطلق حرية الملاحة في البحر الأسود للدول جميعاً، ولا تنشأ فيه قواعد بحرية حربية سواء أكان من قبل الدولة العثمانية أم من قبل روسيا.

٣" ـ تُطلق حرية الملاحة في نهر الدانوب.

٤" ـ تبقىٰ الأفلاق والبغدان تحت حماية الدولة العثمانية.

٥" ـ تبقىٰ الصرب مرتبطةً بالدولة العثمانية، ولها استقلال ذاتي يُضمن من قبل الدول.

وأعقب ذلك بحث بعض الشؤون الأوربية، فاتفقوا علىٰ إنشاء دولةٍ واحدةٍ من الأفلاق والبغدان شبه مستقلةٍ تُسمّىٰ حكومة الإمارات المتحدة، وتكون تحت حماية جميع الدول، أي إخراجها من التبعية للدولة العثمانية، ووقّع ذلك في باريس سنة ١٢٧٥هـ، وكان الخليفة قد أصدر بعض التعليمات الإدارية في سبيل الإصلاح، وهو ما عُرف باسم (الخط الهمايوني) وذلك سنة ١٢٧٢هـ.

وأوجدت الدول النصرانية كذلك مشكلات في الصرب، والجبل الأسود، والبوسنة والهرسك لتفصلها عن الدولة العثمانية. فبدأت تندلع الثورات، وتمنع الدول الأوربية الدولة العثمانية من قمع هذه الثورات، بتهديد الدولة وقطع العلاقات السياسية معها، بل غالباً ما كانت الدول الأوربية هي التي تدعم هذه الثورات وتُثيرها، وأصبح سفراء هذه الدول شركاء في السلطة تقريباً. وأُثيرت آنذاك مشكلة جزيرة كريت، وحدث اعتداء علىٰ النصارىٰ في ميناء جُدّة، وأُصيب قنصل فرنسا، وهدّأ والي مكة الوضع غير أن الإنكليز قد ضربوا جُدّة بالمدافع.

مسألة لبنان والحرب الطائفية:

دعمت فرنسا (الموارنة) في لبنان من الشام، ودعمت إنكلترا (الدروز).

اعتدىٰ الدروز علىٰ الموارنة سنة ١٢٥٧هـ، ودخلوا بلدة دير القمر، وارتكبوا أبشع الأعمال فعزل الخليفة عن منطقة لبنان الأمير بشير الشهابي وعيّن مكانه والياً عثمانياً، وحُرم سكان جبل لبنان الامتيازات التي كانت لهم، ولم تقبل الدول الأوربية ذلك إذ كانت تتدخّل في شؤون النصارىٰ وتعدّهم من رعاياها فاضطر

الخليفة أن يُعيد للجبل امتيازاته، وأن يُعيّن قائمقام درزياً وآخر مارونياً وذلك سنة ١٢٥٨هـ، ولكن الأمر لم يستقم لاختلاط الطوائف في القرىٰ، فرأىٰ الخليفة أن يضمّ شمالي الجبل أي منطقة الموارنة إلىٰ ولاية طرابلس فاحتجّ الموارنة إذ غدوا أقليةً، وأصرّ الدروز أن يبقىٰ الموارنة تحت سلطانهم، ولم تُجدِ الحلول، ولم تنفع الآراء، ثم فضّل الموارنة أن يتبعوا ولايةً أخرىٰ من أن يكونوا تحت سلطان الدروز، فاستحسن الخليفة الرأي، ولكن لم يُعجب ذلك الدروز وقاموا باعتداءٍ ثانٍ سنة ١٢٦١هـ.

أرسلت الدولة العثمانية بعد ذلك جيوشها واحتلّت المنطقة، وأعلنت الأحكام العرفية فيها، ثم اتفقت الدول الأوربية مع الخليفة علىٰ تشكيل مجلسٍ يضمّ أعضاء من المجموعتين ومن غيرهم، ولم تنته القضية.

اعتدىٰ الموارنة علىٰ الدروز سنة ١٢٧٦هـ فقام الدروز يأخذون بالثأر، وامتد لهيب الفتنة من جبل لبنان إلىٰ طرابلس، وصيدا، وزحلة، ودير القمر، واللاذقية، ودمشق فأسرعت الدولة العثمانية وأرسلت (فؤاد باشا) فقضىٰ علىٰ الفتنة وعاقب المسؤولين عنها، كلاً بما يستحق، واحتجت الدول الأوربية وهدّدت بالتدخّل، ثم تمّ الاتفاق علىٰ أن ترسل فرنسا ستة آلاف جنديٍ

لمساعدة الدولة فيما إذا عجزت عن إطفاء الفتنة، وأنزلت فرنسا قوتها في بيروت في ٢٢ المحرم سنة ١٢٧٧هـ، وما كان القصد بالحقيقة سوىٰ دعم النصارىٰ (الموارنة) وإعلامهم أن أوربا كلها من خلفهم لتزداد معنويتهم. وجرىٰ الاتفاق مع الوالي فؤاد باشا أن يُعوض النصارىٰ ما خسروه، وأن يمنح أهل الجبل حكومةً مستقلةً تحت سيادة الدولة، وأن يرأس هذه الحكومة رجل نصراني لمدة ثلاث سنواتٍ، ولا يحقّ عزله إلا برأي الدول الأوربية، وهذا الرئيس تقترحه الدولة العثمانية وتوافق عليه الدول الأوربية. وقد اختير أول رئيس (داود الأرمني).

اضطرت فرنسا للانسحاب من الشام لأن المناطق التي دخلتها خلت من السكان وهذا بعد عشرة أشهرٍ وخمسة أيامٍ، وقد كان دخولها في ٢٧ ذي القعدة سنة ١٢٧٧هـ.

وتوفي الخليفة عبد المجيد الأول في ١٧ ذي الحجة سنة ١٢٧٧هـ وخلفه أخوه عبد العزيز بن الخليفة محمود الثاني.

ـ ٢٤ ـ

عبد العزيز بن محمود الثاني

(١٢٧٧ ــ ١٢٩٣هـ)

وُلد الخليفة عبد العزيز بن محمود الثاني في ١٤ شعبان سنة ١٢٤٥هـ، وتولّىٰ الخلافة بعد وفاة أخيه عبد المجيد الأول في ١٧ ذي الحجة سنة ١٢٧٧هـ، فكان عمره اثنتين وثلاثين سنةً.

قامت في عهده ثورة في جزيرة كريت وأُخمدت سنة ١٢٨٣هـ.

حُصرت ولاية مصر في أبناء إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، وقد حصل إسماعيل باشا علىٰ لقب (خديوي) أي نائب السلطان.

زار الخليفة عبد العزيز أوربا ولمس الحقد الصليبي علىٰ الإسلام والمسلمين وعلىٰ دولة الخلافة. وعرف أن اختلاف الدول الأوربية فيما بينها إنما هو بسبب مصالحها المتباينة.

انتبه الخليفة إلىٰ أن نفوذ دول أوربا الغربية في إستانبول إنما هو أكثر من نفوذ روسيا، وظنّ أنه لو

أظهر الميل نحو روسيا لقدّمت الدول الأوربية الغربية بعض التساهلات للعثمانيين حرصاً علىٰ مصالحها، فبدأ يكثر من دعوة السفير الروسي في إستانبول فأخذت دول أوربا الغربية تشيع الشائعات في التبذير والإسراف، وتولّىٰ رئيس مجلس الشورىٰ أحمد مدحت باشا فكرة عزل الخليفة فعُزل يوم الثلاثاء ٧ جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٢٩٣هـ، وبويع ابن أخيه مراد الخامس بن عبد المجيد.

ثم قُتل الخليفة المعزول عبد العزيز، وأشاعوا أنه انتحر، وتعددت الروايات في قتله.

- ٢٥ -

مراد الخامس

(١٢٩٣ ـ ١٢٩٣هـ)

وُلد مراد الخامس بن عبد المجيد في ٢٥ رجب سنة ١٢٥٦هـ، وتولّىٰ الخلافة بعد عزل عمه عبد العزيز سنة ١٢٩٣هـ فكان عمره يوم ولايته سبعاً وثلاثين سنة.

أُشيع عن وجود اختلالٍ في عقل مراد الخامس فعُزل في ١٠ شعبان سنة ١٢٩٣هـ.

فكانت مدة خلافته ثلاثة أشهرٍ وثلاثة أيامٍ. بويع في ٧ جمادىٰ الأولىٰ وعزل في ١٠ شعبان من السنة نفسها وبويع بعده أخوه عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد.

- ٢٦ -
عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد
(١٢٩٣ ــ ١٣٢٨هـ)

ولد الخليفة عبد الحميد الثاني سنة ١٢٥٩هـ وهو من زوجة الخليفة عبد المجيد الثانية، وتولىٰ الخلافة سنة ١٢٩٣هـ بعد عزل أخيه مراد الخامس، فكان عمره يومذاك أربعاً وثلاثين سنةً.

قويت الدعوة إلىٰ القوميات في عهد الخليفة عبد الحميد الثاني، وكانت تهدف إلىٰ تفرقة الأمة الإسلامية إلىٰ شعوبٍ متنافرةٍ، وقد حمل هذه الفكرة جمعيات ظهرت باسم «أدبية» أو «علمية» غير أنها كلها ذات هدفٍ واحدٍ وهو فرقة الأمة، ويبدو ذلك واضحاً من مؤسسيها والذين وراءهم، فالمؤسسون من النصاري واليهود ووراؤهم الدول الأوربية والإرساليات التنصيرية ورجالات اليهود ومؤسساتهم.

كانت أهم مراكز هذه الجمعيات (بيروت) و(إستانبول)، ففي المركز الأول لعبت النصرانية دورها الكبير وبرز أثر الإرساليات التنصيرية، فقد تشكلت مثلاً

جمعية العلوم والفنون تحت رعاية الإرساليات التنصيرية الأمريكية، ومن مؤسسي هذه الجمعية (بطرس البستاني) و(ناصيف اليازجي)، ولم ينضم إلىٰ هذه الجمعية بعد عامين من تأسيسها سوىٰ خمسين عضواً كلهم من نصارىٰ بلاد الشام، وهناك الجمعية الشرقية التي كانت تحت رعاية الإرساليات التنصيرية الكاثوليكية، وبتوجيهٍ تأسست الجمعية العلمية العربية وضمّت نصارىٰ وهم الغالبية، وبعض النصارىٰ الذين أظهروا الإسلام أمثال فارس الشدياق، وبعض الدروز. وإن كان الأعضاء من أبناء البلاد إلا أن المحّرك لهم كان من الخارج وذا هدفٍ سياسيٍ، وفكريٍ، وهم ليسوا من أبناء الأمة الإسلامية.

وإذا لم يكن في إقليم من الأقاليم نصارىٰ عرب ليحملوا فكرة القومية العربية، عُمل علىٰ نقل جماعةٍ منهم من أقاليم ثانيةٍ، ففي مصر لا يوجد نصارىٰ عرب وإنما النصارىٰ فيها هم من الأقباط، لذا فقد نقلوا إليهم نصارىٰ عرب من الشام ومنهم جرجي زيدان وفيليب تقلاً و.... ليرفعوا راية القومية العربية هناك.

وأما المركز الثاني وهو إستانبول فقد وجدت جمعيات ضمّت مختلف الشعوب، وإن كان معظمها من الأتراك، إلا أنهم من الذين فُتنوا بأوربا ويريدون تغيير

الوضع ويدعون إلىٰ القومية التركية، أو من أصحاب الأهواء والشهوات والمصالح، ومن اليهود يهود الدونمة الذين أظهروا الإسلام ويعملون للهدم من الداخل، ومن الناقمين علىٰ الحكم ويريدون تغييره، ومن أشهر هذه الجمعيات، جمعية تركيا الفتاة التي تأسست في مدينة باريس، وكان لها فروع في برلين، وسالونيك، وإستانبول إضافةً إلىٰ المركز الرئيسي في باريس. وكان مركز سلانيك أكثر المراكز تطرّفاً وانحرافاً، وقد ضمّ عدداً من الضباط الذين شكلوا جناحاً عسكرياً لهذه الجمعية وعُرف باسم (الاتحاد والترقي)، وكانت اللقاءات تتمّ في المحافل الماسونية (اليهودية) التي اهتمت اهتماماً كبيراً بحركة الجمعية ونشاطها، وتنظيم الاتحاد والترقي فيها.

وزاد النفوذ اليهودي في الدولة مع أطماع اليهود، ومع استلام يهود الدونمة عدداً من المراكز الرئيسية، وقد نسي الناس أصلهم وحقيقتهم وطبيعة اليهود إذ أظهروا الإسلام وعاشوا مع أبنائه واختلطوا معهم، ويؤدّون الصلاة أمامهم بل ويؤدّون الحج مكراً وتخطيطاً.

وزاد الحقد الصليبي فزاد تفاهم الدول الأوربية النصرانية بعضها مع بعضٍ، للقضاء علىٰ الدولة

العثمانية الإسلامية حاملة لواء الخلافة ومعلنة إسلام حكمها.

كان علىٰ الخليفة أن يسير بالدولة إلىٰ شاطئ النجاة، فأكثر من رجاله الذين يأتونه بالأخبار ويراقبون تحركات الأعداء، وخاصةً أصحاب المراكز الحسّاسة فإذا بدا من أحدهم الولوج في طريق الفتنة أو الخيانة عمل علىٰ القضاء عليه دون أن يُحدث هزّةً، لذا أُطلق علىٰ الخليفة اسم السلطان الأحمر، وأُثيرت عنه الشائعات، ورُمي بالاتهامات و....

اضطر الخليفة أن يُعلن دستوراً وضعياً للبلاد تحت الضغط الداخلي، فلما قوي أمره عاد فألغاه.

حاول جمع كلمة الأمة فدعا إلىٰ الجامعة الإسلامية، وقرّب العلماء، واستمع إلىٰ نصائحهم، وتابع العمل في مجلة الأحكام العدلية وفق الشريعة الإسلامية.

وكان الخليفة عبد الحميد يلين أحياناً للدولة الأوربية، التي تريد الضغط علىٰ العثمانيين وتسعىٰ للإنهاء علىٰ دولتهم، وكان لكل دولةٍ أطماعها ومصالحها، وقد زاد النفوذ الألماني في آخر أيام الخليفة عبد الحميد.

ويعامل الخليفة الأقليات معاملةً خاصةً كي تضعف فكرة العصبية، مع أن الأرمن واليهود قد خططوا لاغتياله أثناء خروجه من الصلاة واضطر مع ذلك للسكوت عن هذه العملية، ولكنه مع هذا كله لم يستطع أن يُخفّف من الشائعات التي يثيرها اليهود الذين منع هجرتهم إلىٰ فلسطين، والأرمن الذين تعاونوا مع الروس، والنصارىٰ عامةً، وأصحاب الدعوات العصبية، والمفتونون بأوربا تحلّلاً ووراء الشهوة والغريزة.

مجلس العموم:

أصدر الخليفة عبد الحميد الثاني في ٥ شوال سنة ١٢٩٣هـ أمراً بتنظيم مجلس العموم، ويتكون من مجلسين أحدهما منتخب، ويُسمّىٰ مجلس (المبعوثان)، والثاني مجلس (الأعيان) ويتمّ تعيين أعضائه من قبل الدولة.

وفي ٤ ربيع الأول سنة ١٢٩٤هـ اجتمع المجلس العثماني.

القانون الأساسي:

قدّم الصدر الأعظم (محمد رشيد باشا) استقالته من منصبه فعيّن الخليفة مكانه (أحمد مدحت باشا)،

وبعد أربعة أيامٍ أرسل الخليفة إلىٰ الصدر الأعظم القانون الأساسي للدولة لينشره، ويتألف من مائةٍ وتسع عشرة مادةً. وقد أعطىٰ رعايا الدولة جميعاً الحرية والمساواة أمام القانون، وأباح التعليم وجعله إجبارياً علىٰ العثمانيين جميعهم، وسمح بحرية المطبوعات، ومنع التعذيب أثناء التحقيق، وأبطل مصادرة الأموال، وأعمال السخرة، وعدم جواز عزل القضاة إلا بشكلٍ شرعيٍ.

عزل الخليفة في ٢١ محرم سنة ١٢٩٤هـ الصدر الأعظم أحمد مدحت باشا حيث ظهر أنه يُؤيّد جمعية تركيا الفتاة، ويعمل لنشر أفكارها، ويسعىٰ لعزل الخليفة عبد الحميد وإعادة أخيه مراد الخامس، ويقول بفصل الدين عن الدولة. وبذا لم يتسلّم مدحت باشا الصدارة العظمىٰ سوىٰ شهرين، وأُعطي هذا المنصب إلىٰ (محمد أدهم باشا).

ثورة الهرسك:

اشتعلت الثورة في بلاد الهرسك جنوبي البوسنة، وذلك بتحريضٍ من الصرب وسكان الجبل الأسود غير أن الثورة قد أُخمدت، ولكن الخليفة رغب باللين كي لا يكون هناك مجال لتدخل الدول الأوربية، فأصدر

قراراً بفصل القضاء عن السلطة التنفيذية، وتعيين القضاة بالانتخاب عن طريق السكان، والمساواة بالضرائب بين المسلمين والنصارىٰ فلم يرض السكان فعادوا إلىٰ الثورة التي قُمعت أيضاً، ولم يرق ذلك دولة النمسا التي كانت وراء الثورة وترغب في ضمّ البوسنة والهرسك إليها، فعملت مع ألمانيا وروسيا علىٰ إرسال لائحةٍ إلىٰ الخليفة تعرض عليه الإصلاحات التي يجب القيام بها، ورفعت اللائحة إلىٰ فرنسا وإنكلترا ومنهما إلىٰ الدولة العثمانية فوافق عليها الخليفة، ولكن نصارىٰ البوسنة والهرسك لم يقبلوا بذلك وطالبوا بأمورٍ أخرىٰ.

حادثة تدّخل:

أسلمت فتاة نصرانية من مدينة (سلانيك) وذهبت إلىٰ المحكمة لإشهار إسلامها، فاختطفها النصارىٰ في الطريق، فثار المسلمون وطالبوا الحكومة بالبحث عن الفتاة فوعدهم الوالي بذلك، ولكن لم يتمكّن من الحصول عليها، فاجتمع المسلمون ثانيةً في أحد الجوامع وتكلموا عن الحكومة، وجاء إلىٰ الجامع قنصلا ألمانيا وفرنسا، وسرت شائعة أن الفتاة في بيت قنصل ألمانيا فاعتدوا لذلك علىٰ القنصلية، ووصل الخبر إلىٰ الدول الأوربية فاضطرب رؤساؤها، وحرّروا

لائحةً من برلين (وزير روسيا، وزير النمسا، وزير ألمانيا) ووقعت علىٰ اللائحة كل من فرنسا وإيطاليا، وقد طالبوا الدولة العثمانية بإصلاح حال الرعايا النصارىٰ، والاتفاق مع الثائرين، وتعيين مجلسٍ دوليٍ لمراقبة ذلك وإلا تضطر الدول الأوربية إلىٰ استخدام القوة.

ثورة البلغار:

تأسست جمعيات في بلاد البلغار لنشر النفوذ الروسي بين النصارىٰ الأرثوذكس والصقالبة، وكانت روسيا تدعم هذه الجمعيات وتمّدها بالسلاح، كما أن هذه الجمعيات تبذل جهدها لإثارة الصرب وسكان البوسنة والهرسك، وتحرّضهم علىٰ الثورة ضد العثمانيين. وعندما أنزلت الدولة العثمانية بعض الأسر الشركسية في بلادهم إثر احتلال الروس لها، فأُشيع في بلاد البلغار أن الحكومة تريد إقطاع الشركس أراضي بلغارية فقاموا بثورةٍ، وكانت تمدّهم روسيا، والنمسا حيث يوجد فيها مركز لتلك الجمعيات يمدّها بالأسلحة، ولكن الدولة العثمانية استطاعت أن تقضي علىٰ هذه الحركة، فقامت الدول الأوربية تشيع الشائعات الكاذبة عن تصرّف الجنود العثمانيين وارتكابهم الأعمال

الوحشية، علىٰ حين أن ما جرىٰ إنما هو من جانب البلغاريين الذين كانوا يهاجمون المسلمين ويعملون علىٰ إبادتهم. وبهذه الشائعات أُثير الرأي العام في أوربا ضد الدولة العثمانية، وطالب الحكومات الأوربية باتخاذ إجراءاتٍ صارمةٍ ضدّ العثمانيين، فقدّمت لائحة تطالب الدولة بالتحقيق لمصلحة البلغار والتعويض لهم، وتعيين حاكمٍ نصرانيٍ لهم.

ثورة الصرب والجبل الأسود:

شجّعت روسيا، والنمسا، وألمانيا الصرب والجبل الأسود للقيام بحربٍ ضد العثمانيين وذلك أن روسيا كانت تريد توسعة حدودها من جهة بلغارية، والنمسا تريد توسعة حدودها من جهة البوسنة والهرسك، ووعدت هذه الدول أمير الصرب والجبل الأسود بالدعم، فإن انتصرا جاءت الجيوش وقضت علىٰ الدولة العثمانية، وإن انتصرت عليهما الدولة وقفت الجيوش الروسية بجانبهما ونصرتهما علىٰ الأعداء. وبدأ الجنود الروس يتدفّقون علىٰ بلاد الصرب والجبل الأسود، فالحقيقة أن الروس هم الذين يحاربون العثمانيين تحت اسم الصرب والجبل الأسود، وبدأ أميرا الصرب والجبل الأسود يجمعان الجيوش، ولما

سألهما الصدر الأعظم عن سبب حشد الجيوش أجابا لردّ غارات الأرناؤوط (الألبان) وللأمن الداخلي. وعندما تهيّأت جيوش الصرب والجبل الأسود طلب أمير الصرب من الدولة العثمانية أن تعهد إليه بإخماد الثورة في البوسنة لأن جيوش العثمانيين فيها يُهدّد بلاده، كما طالب أمير الجبل الأسود الدولة العثمانية بالتنازل له عن جزء من الهرسك، وما ذلك إلا لإيجاد ذريعةٍ للتمرّد والحرب فلم يُجابا علىٰ طلبهما فعندئذٍ دخلت جيوش الصرب والجبل الأسود الأراضي العثمانية.

وكانت الدولة العثمانية قد استعدت للحرب، وحشدت الجيوش، وجاءتها قطعات من مصر، وتمكّنت من الانتصار علىٰ الصرب في عدة مواقع، وأصبح طريق بلغراد مفتوحاً غير أن الأوامر قد جاءت إلىٰ القائد العثماني بالتوقّف بسبب تدخّل الدول الأوربية، واشترطت الدولة العثمانية شروطاً لم تقبلها الدول النصرانية فتابع القائد العثماني زحفه، فتدخلت الدول وطلبت من العثمانيين إصدار أوامر بوقف القتال مباشرةً، وإلا يغادر سفراء الدول إستانبول إشارةً إلىٰ قطع العلاقات وإعلان الحرب.

واجتمع مندوبو الدول في إستانبول خوفاً من تفرّد روسيا، والهجوم علىٰ الدولة العثمانية واحتلال

عاصمتها والمضائق، وتقدّموا باقتراحاتٍ للدولة، كان من أهمها.

١" ـ تُقسم بلاد البلغار إلىٰ ولايتين، ويكون ولاتها من النصارىٰ الأجانب أو التابعين للدولة، وألا تحتل جنود الدولة العثمانية سوىٰ القلاع وبعض المدن الكبرىٰ، وأن تُشكّل الشرطة البلغارية من النصارىٰ، ويكون نصف ضباطهم من المسلمين والنصف الآخر من النصارىٰ، وأن تُشكّل لجنة دولية لتنفيذ القرارات.

٢" ـ تُعطىٰ إمارتا البوسنة والهرسك الامتيازات نفسها التي أُعطيت للبلغار.

٣" ـ تتنازل الدولة عن بعض الأراضي للصرب والجبل الأسود في الصلح الذي يُعقد معهما.

لكن الدولة العثمانية رفضت هذه القرارات رغم التهديدات. وكان الدستور قد أُعلن ورفضت هذه القرارات كما رفضها اليهود والنصارىٰ من رعايا الدولة. وسافر إثر ذلك مندوبو الدول وسفراؤها إيذاناً بقطع العلاقات السياسية مع الدولة العثمانية.

عقدت الدولة العثمانية في هذه الآونة صلحاً منفرداً مع الصرب، وسحبت نتيجته جيوشها من بلاد الصرب، علىٰ ألا تبني الصرب قلاعاً جديدة، وأن يُرفع

العلم العثماني والصربي معاً دليلاً علىٰ السيادة العثمانية، ومُدّدت الهدنة مع الجبل الأسود، ولم يُعقد معه صلح إذ طالب بأراضٍ جديدةٍ لضمّها إليه.

أرادت روسيا أن تستغلّ الفرصة، وأن تنفرد بحلّ مشكلتها وحدها مع الدولة العثمانية، ولكن حسبت حساباً للدول الأخرىٰ فأرسلت تستشيرها فيما ستفعل، وأرسلت لائحةً إلىٰ إنكلترا تعرضها عليها، وتوقّع عليها إن وافقت، فوافقت عليها إنكترا واجتمع سفراء الدول الأوربية في لندن، ووضعوا لائحةً وقدّموها إلىٰ الدولة العثمانية، وفيها تأكيد الاتفاق بين الدول الأروبية لتحسين أحوال النصارىٰ في الدولة العثمانية، وإجراء الإصلاح في البوسنة والهرسك، والبلغار، وتعيين الحدود مع الجبل الأسود، وحرية السفر، والصلح معه، ومع الصرب، وأن تُراقب سفراء الدول في إستانبول وعمالها في الولايات العثمانية تنفيذ اللائحة. غير أن هذه اللائحة التي وقعت عليها كل من: روسيا، وانكلترا، والنمسا، وألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا لم تعترف عليها الدولة العثمانية، لأن هذه الدول تريد أن تتدخّل في شؤون العثمانيين الخاصة باسم حماية النصارىٰ، وحتىٰ لم تُستشار الدولة العثمانية في هذه اللائحة أيضاً، ولم تشارك في مناقشتها، وأعلنت أن ما

حدث من فوضىٰ إنما كان نتيجة التدخّلات الخارجية، وفي الوقت نفسه فإن الإصلاحات قائمة، وتسير فيها الدولة بخطا حثيثةٍ، وأن المساواة قائمة بين الجميع، وكيف تكون تدخّلات الدول في شؤون العثمانيين عن طريق السفراء في إستانبول، والعمال في الولايات الأخرىٰ.

الحرب مع روسيا:

وقّعت روسيا اتفاقاً سرياً مع رومانيا (الأفلاق والبغدان)، وضعت رومانيا بموجبه إمكاناتها جميعها تحت تصرّف روسيا، ثم قطعت روسيا علاقاتها السياسية مع الدولة العثمانية، وأعلنت الحرب عليها بناءً علىٰ رفض الخليفة للائحة لندن، وأخبر الخليفة دول أوربا ثانيةً عما تصرّفت به روسيا وذلك سنة ١٢٩٤هـ، فلم يتلقَّ أيّ موقفٍ إيجابيٍ رغم وجود المعاهدة السابقة التي وقّعتها إثر حرب القَرم.

اخترقت روسيا حدود رومانيا فاحتجت الدولة العثمانية لأن رومانيا لم تزل تحت سيادة العثمانيين، وتابعت روسيا سيرها، واخترقت نهر الدانوب وانتصرت علىٰ العثمانيين في عدة مواقع، ثم توقّفت بعد المقاومة التي اعترضتها، وانقلب وضع الجيوش العثمانية من مدافعةٍ إلىٰ

مهاجمةٍ، وبعد تقدّمٍ بسيطٍ عاد النصر إلىٰ جانب الروس، واضطر القائد العثماني عثمان باشا إلىٰ الاستسلام، وهو جريح، وتوقّف القتال في الجبهة الأوربية.

أما في جبهة شرقي الأناضول فقد حاصر الروس عدة مدنٍ وقلاعٍ، ومنها مدينة (قارص) و(باطوم) إلا أنهم اضطروا إلىٰ فكّ الحصار عنها والتراجع بجهود القائد أحمد مختار باشا والقائد إسماعيل حقي باشا، وانتصر العثمانيون علىٰ الروس في ستة مواقع، وقد طلب الروس إمداداتٍ فجاءتهم جيوش جرارة، ولم يتمكّن العثمانيون من إرسال الإمدادات إلىٰ الجبهة، وجاء الهجوم الروسي الثاني فتراجعت الجيوش العثمانية حيث انسحب أحمد مختار باشا إلىٰ مدينة (أرضروم)، وسقطت مدينة (قارص) بيد الأعداء، ثم حاصروا أحمد مختار باشا في مدينة (أرضروم)، وبعد سقوط مدينة (قارص) في جبهة الأناضول، وسقوط مدينة (بلافنا) بعدها بشهرٍ علىٰ الجبهة الأوربية استأسد الصرب، فأعلنوا الحرب علىٰ الدولة العثمانية بعد لقاءٍ تمّ بين إمبراطور روسيا وأمير الصرب، كما تابع سكان الجبل الأسود قتالهم للعثمانيين، فأصدر الخليفة بياناً يُعلن عزل أمير الصرب عن إمارته، ويوضّح للسكان هذه الخيانة، فلم يُجده ذلك نفعاً.

وتقدّم الروس فاحتلوا مدينة (صوفيا) عاصمة بلغاريا اليوم، ومنها ساروا إلىٰ مدينة أدرنة فدخلوها، وانطلقوا منها نحو إستانبول، ولم يبق بينهم وبينها سوىٰ خمسين كيلومتراً، وكان عندما اقتربت الجيوش الروسية من أراضي البلغار انقضّ النصارىٰ علىٰ المسلمين يفتكون بهم، وفرت أعداد من المسلمين نحو إستانبول حيث ملؤوا الشوارع، وتشكلت عدة جمعياتٍ لمساعدتهم. وفي ٧ ذي الحجة سنة ١٢٩٤هـ اجتمع مجلس العموم فاستمع إلىٰ خطابٍ باسم الخليفة، ثم صدر أمر بحلّه.

وأرسل الخليفة وفداً عسكرياً من (نامق باشا) و(سرور باشا) لوقف القتال، فقابل الوفد القائد الروسي وتوقّف القتال في مطلع سنة ١٢٩٥هـ، وأعلن الخليفة عن رفع الحصار عن سواحل روسيا علىٰ البحر الأسود.

وعندما علمت إنكلترا أن قوات روسيا أصبحت علىٰ مقربةٍ من مدينة إستانبول، أمرت إنكلترا قطعاتها البحرية بدخول مضيق البوسفور ولو بالقوة، وقد تمّ ذلك، وأرادت روسيا مقابل ذلك أن ترسل قواتٍ إلىٰ إستانبول بحجة حماية النصارىٰ، ثم اتفقت الدولتان، وهدأت الأوضاع.

معاهدة سان استيفانوس:

التقىٰ مندوبو الدولة العثمانية ومندوبو روسيا في بلدة قرب إستانبول علىٰ بحر مرمرة تسمىٰ سان استيفانوس، وذلك بعد محادثاتٍ تقدّم فيها الروس عن خط وقف إطلاق النار الذي اتُّفق عليه، ونُقل أيضاً مركز المحادثات من أدرنة إلىٰ هذه البلدة.

قدّم المندوب الروسي شروطاً مسبقةً، وطلب التوقيع عليها مباشرةً وإلا فإن الجيوش الروسية تتقدّم وتحتل إستانبول، ولم يكن للعثمانيين من خيار سوىٰ التوقيع. وتنصّ المعاهدة علىٰ:

١" ـ تعيين حدودٍ جديدةٍ لإمارة الجبل الأسود لإنهاء النزاع، وتحصل هذه الإمارة علىٰ الاستقلال، وإذا حدثت خلافات جديدة تحلها روسيا والنمسا.

٢" ـ تستقلّ إمارة الصرب، وتضاف لها أراضي جديدة، وتحدّد الحدود حسب المصور المرفق، وبمساعدة الروس.

٣" ـ تأخذ بلغاريا استقلالاً إدارياً، وتدفع مبلغاً محدداً إلىٰ الدولة العثمانية، ويكون موظفو الدولة والجند من النصارىٰ فقط، وتُعيّن الحدود بمعرفة العثمانيين والروس، ويُنتخب الأمير من قبل السكان،

ويُخلي العثمانيون جنودهم نهائياً من بلغاريا، ويحق للعثمانيين نقل جنودهم إلىٰ ولاياتٍ أخرىٰ ضمن الأراضي البلغارية.

٤" ـ تحصل دولة رومانيا علىٰ استقلالها التام.

٥" ـ يتعهد الباب العالي بحماية الأرمن النصارىٰ من الأكراد والشركس المسلمين.

٦" ـ يقوم الباب العالي بإصلاح أوضاع النصارىٰ في جزيرة كريت.

٧" ـ تدفع الدولة العثمانية غرامةً حربيةً قدرها (٢٤٥، ٢١٧، ٣٩١) ليرةً ذهبيةً، ويمكن لروسيا أن تتسلّم أراضي مقابل هذا المبلغ.

٨" ـ تبقىٰ المضائق (البوسفور والدردنيل) مفتوحةً للسفن الروسية في زمن السلم وزمن الحرب.

٩" ـ يمكن للمسلمين الذين يعيشون في الأراضي التي اقتطعت من الدولة العثمانية أن يبيعوا أملاكهم، ويُهاجروا إلىٰ حيث يريدون من أجزاء الدولة العثمانية.

أما بقية الدول فقد كانت إنكلترا أكثرها اهتماماً وتخشىٰ من احتلال روسيا لإستانبول، ووصولها إلىٰ المياه الحرة ومنافستها لبقية الدول في تلك الجهات، وأما النمسا فترغب في اقتسام التركة مع روسيا

وسيطرتها علىٰ بلاد البوسنة والهرسك، والوصول إلىٰ ميناء سلانيك ودخول المياه المتوسطة من تلك الثغرة، وأما ألمانيا فلا تهتم كثيراً، وربما تميل إلىٰ موقف روسيا، وكذلك كانت إيطاليا قليلة المصلحة في هذا الموضوع، وكانت فرنسا تقف علىٰ الحياد وخاصةً أنها كانت تئن من هزيمتها أمام ألمانيا سنة ١٢٨٨هـ.

معاهدة برلين:

دعت النمسا الدول إلىٰ حضور مؤتمرٍ في برلين، واختارت برلين عاصمة ألمانيا لأن ألمانيا ترىٰ من الضرورة أن تحتل النمسا مقاطعتي البوسنة والهرسك. واشترطت إنكلترا أن يُعاد النظر في معاهدة سان استيفانوس، واختلفت مع روسيا وكادت الحرب تقع بينهما، غير أن روسيا أمام إصرار إنكلترا والدول الأخرىٰ التي معها وأمام الحركات الانتقامية التي قام بها المسلمون البلغار فاعتصموا بالجبال، وانطلقوا يُهاجمون القوات الروسية وينتقمون من النصارىٰ الذين فتكوا بهم سابقاً. ثم هدأت الأمور إلا أن إنكلترا بقيت تخشىٰ من قوة روسيا لذا طلبت من الباب العالي عقد معاهدةٍ دفاعيةٍ بين الدولة العثمانية وانكلترا خوفاً من تقدم روسيا نحو إستانبول، والسماح لإنكلترا باحتلال

جزيرة قبرص وإصلاح أوضاع النصارىٰ حتىٰ لا يتجهوا نحو روسيا، فوافقت الدولة العثمانية علىٰ ذلك خوفاً من الروس الذين يُهدّدونها، وضحّت بجزيرة قبرص وإن تعهدت إنكلترا بالانسحاب من الجزيرة فيما إذا انسحبت روسيا من (قارص) و(باطوم)، وبقيت المعاهدة الدفاعية بين الدولة العثمانية وإنكلترا سريةً حتىٰ أشرفت أعمال معاهدة برلين علىٰ الانتهاء.

وكان من أهم ما اتفق عليه المؤتمرون في برلين، وفيه تعديل علىٰ معاهدة سان استيفانوس:

١" ـ استقلال بلغاريا وتعديل في حدودها إذ تراجعت من ناحية الغرب إلىٰ الشرق لمصلحة الصرب، كما تراجعت من ناحية الجنوب إلىٰ الشمال لمصلحة الدولة العثمانية، وأصبحت سواحل بحر ايجه الشمالية للعثمانيين، وتشكل في جنوبي البلقان ولاية باسم (الروميللي الشرقية) تكون تحت سيادة الدولة العثمانية سياسياً وعسكرياً، ويحكمها نصراني، يُعيّن لمدة خمس سنواتٍ باتفاق الدول. وتبقىٰ قوة لروسيا في بلغاريا والروميللي الشرقي، وتُحدّد بخمسين ألف جنديٍ.

٢" ـ تقدّمت حدود اليونان قليلاً إلىٰ الشمال مع العلم أن اليونان لم تدخل في موضوع القتال، ولم

تشمل معاهدة سان استيفانوس أي جزءٍ منها.

"٣" ـ أُعطيت البوسنة والهرسك للنمسا.

"٤" ـ أُعيدت بسارابيا إلىٰ روسيا وقد أُخذت من رومانيا، وأُعطيت رومانيا مقاطعة (دوبرجيه) وبعض الجزر.

وكانت المعاهدة ٦٤ مادةً، ووُقِّعت في شهر رجب سنة ١٢٩٥هـ.

وهكذا حصلت روسيا والنمسا وإنكلترا علىٰ أجزاء من الدولة العثمانية. ورغبت فرنسا أن تأخذ نصيبها بعد المعاهدة، وبعد أن عادت لها قوتها بعد هزيمتها أمام ألمانيا سنة ١٢٨٨هـ، فادّعت سنة ١٢٩٩هـ أن اعتداءات من جهات تونس وقعت علىٰ الجزائر، فأرسلت قوةً مؤلفةً من ثلاثين ألفاً من الجنود بحجة حماية الأمن ثم دعمتها بقوةٍ أخرىٰ، وسارت القوة جميعها نحو مدينة تونس وأجبرت الوالي علىٰ توقيع معاهدةٍ اعترف فيها بالاحتلال الفرنسي، واعترفت الدول الصليبية بهذا الاحتلال، وأرسلت الدولة العثمانية قوةً بحريةً وأخرىٰ بريةً لتعزيز قواتها في طرابلس علىٰ حدود تونس، وكادت الحرب أن تقع، ونصحت ألمانيا الخليفة بعدم الذهاب بعيداً، فأبدىٰ رغبته بحلّ المسألة عن طريق المفاوضات.

لم تقنع إنكلترا بما حصلت عليه وهو جزيرة قبرص، وكانت عيونها ترنو نحو مصر وخاصةً بعد أن احتلت فرنسا تونس، فاستغلّت ما جرىٰ في مصر من أحداثٍ وثورة أحمد عرابي فتدخلت في شؤون مصر، وانتصرت علىٰ قوات أحمد عرابي، واحتلّت مصر سنة ١٢٩٩هـ. ثم احتلّت السودان بعد الثورة المهدية، كما تقاسمت شرقي إفريقية مع فرنسا وإيطاليا والحبشة.

الحركة الداخلية:

شغل المفتونون بأوربا مناصب أساسيةً بالدولة العثمانية، أشرأبت أعناقهم باستلام السلطة، وانتبه الخليفة عبد الحميد إلىٰ الأمر فخلع مدحت باشا من الصدارة العظمىٰ، ولم يمضِ علىٰ تسلّمه إياها أكثر من شهرين، ولم يُعيّن من وعد بتعيينهم مثل نامق كمال وضياء باشا، وعلّق الدستور وأرجأ اجتماع مجلس المبعوثان في شهر صفر سنة ١٢٩٥هـ إلىٰ أجلٍ غير مسمىً، وفي الوقت نفسه كان يعمل علىٰ تدريب الجيش، وتقوية مركز الخلافة، والدعوة إلىٰ الجامعة الإسلامية فخاب ظنّ أولئك المفتونين بأوربا، وكانوا يُسمّون أنفسهم الدستوريين، فانطلقوا في كل مكانٍ يعملون علىٰ نشر أفكارهم، ويؤلّفون الجمعيات السرية

بين المدنيين وبين العسكريين، ويشيعون الشائعات الكاذبة فتأسست جمعية الاتحاد والترقي في باريس سنة ١٣١٦هـ، ووجدت جمعية الحرية في سلانيك سنة ١٣٢٣هـ ثم اندمجتا معاً، وأصبحت الجمعية العمومية للاتحاد والترقي في باريس، أما إدارة الحركة فكانت في سلانيك، وكان أقدم هذه الجمعيات (الشبيبة العثمانية) التي تأسست في إستانبول سنة ١٢٨٢هـ ولكنها كانت علنيةً. أما التنظيمات العسكرية فكانت تنمو وتتسع دائرتها بسرعةٍ، وكانت الحكومة منصرفةً إلىٰ تقوية الجيش وإلىٰ الخطر اليهودي الذي بدأ يبرز بشكلٍ واضحٍ عن طريق يهود الدونمة، وعن طريق الماسونية، وعن طريق اليهود من خارج البلاد إذ كانوا يساعدون الجمعيات السرية، كما أنهم عقدوا مؤتمرهم في مدينة (بازل) بسويسرا لبحث موضوع وطنٍ لهم، وأصرّ (هرتزل) أن يكون وطنهم في فلسطين وأخذ يتصل بالخليفة عبد الحميد الثاني ولكن الخليفة لم يأبه به ولم يُبال بالمغريات. فالتجأ هرتزل إلىٰ إنكلترا التي كانت حريصةً علىٰ السيطرة علىٰ مصر التي هي طريق الهند، كما أن مصر تجاور فلسطين، فعرض هرتزل علىٰ إنكلترا إنشاء دولةٍ يهوديةٍ في فلسطين لها استقلال ذاتي، وتساعد إنكلترا علىٰ الوصول إلىٰ الهند فيما إذا تعذّر

طريق مصر، كما يمكن مدّ خطٍ حديدي من فلسطين إلىٰ الخليج العربي وذلك منافسةً للألمان الذي كانوا في صراعٍ مع الإنكليز، وكان لهم نفوذ في الدولة العثمانية في أواخر عهد الخليفة عبد الحميد الثاني، وقد حصلوا علىٰ امتياز مدّ خطٍ حديدي من إستانبول إلىٰ البصرة مارّاً بمدينة بغداد، كما أن اليهود يمكنهم تقديم المال اللازم للدولة العثمانية كدعمٍ لميزانية الدولة، بصفة أن الدولة العثمانية هي صاحبة السيادة علىٰ فلسطين.

وعرض هرتزل مشروعه علىٰ روسيا أيضاً فتجاوبت معه علىٰ لسان وزير الداخلية يومذاك، الذي عرض عليه أن روسيا يمكنها أن تتخلّىٰ عن أعدادٍ كبيرةٍ من اليهود الذين يعيشون في بلادها، لكنها لم تكن لتتخلّىٰ عنهم جميعاً إذ تودّ أن تحتفظ بأصحاب الإمكانات الفكرية منهم.

ولم يُفلح هرتزل مع الخليفة عبد الحميد الثاني، لذا حرص أن يستعين عليه ببعض الزعماء من العثمانيين الذين استطاع إغراءهم بالمال أو بأشياء أخرىٰ، واستعان عليه ببعض أصدقائه من الأجانب الذين كانوا علىٰ صلةٍ بالخليفة نفسه أو ببعض أصحاب النفوذ، ومن هؤلاء سفراء ألمانيا والنمسا، ولكن رفض الخليفة عبد الحميد من كل من عرض عليه سواء أكان من

الأجانب أم من هرتزل نفسه أو من بعض العثمانيين. ثم حاول هرتزل أن يخدم الخليفة ـ حسب زعمه ـ ببعض الخدمات ضدّ المتمردين من الأرمن واليونان ولكن ذلك لم يُفد شيئاً. وعندما زار إمبراطور ألمانيا إستانبول سنة ١٣١٥هـ ومنها انتقل إلىٰ بلاد الشام لحقه هرتزل، وقابله في القدس بوساطة رئيس وزراء ألمانيا، وبوساطة السفارة الألمانية في إستانبول تمكّن ومعه الحاخام اليهودي (موشيه ليفي) من مقابلة الخليفة، وقدّموا الإغراءات فطردهم الخليفة، وأصدر أمراً بمنع هجرة اليهود إلىٰ فلسطين، وعندها قرّر اليهود العمل علىٰ خلعه، وبدؤوا يعملون ضدّه، وحاولوا الإفادة من المنظمات الأرمنية.

وأما الماسونية فهي منظمات عالمية تضمّ أناساً من أصحاب المصالح والأطماع، من مختلف الديانات والشعوب وتعمل علىٰ خدمة بعضها لبعضٍ، ولكن بتوجيهٍ يهوديٍ ومخططاتٍ يهوديةٍ، وقد دعمت هذه الحركة الجمعيات السريّة التي تعمل ضد الخليفة عبد الحميد الثاني، وبذلت قصارىٰ جهدها لمساعدة اليهود في مسعاهم، سواء أكانت الهجرة إلىٰ فلسطين في البداية وتكليف الرؤساء لهذا الغرض، أم القضاء علىٰ الخليفة عبد الحميد الثاني، وفي الوقت نفسه فقد عملت

هذه الحركة في صفوف العثمانيين سراً، فهي منظمة سرية بالأصل، وتمكّنت أن تضمّ إليها أعداداً من الأشخاص البارزين، وهي بالأصل توجّه اهتمامها إلىٰ البارزين كي تستفيد منهم، وتستطيع أن تُكلّفهم بخدماتٍ لغيرهم كي تجلبهم إليها، أو تحقق علىٰ أيديهم بعض أغراضها، ومن هؤلاء الذين كسبتهم محمد طلعت باشا الذي انتخب رئيساً لمحفل الشرق العثماني، ومن الذين انضمّوا إلىٰ الماسونية أحمد جمال باشا.

وكذلك كان ليهود الدونمة الأثر الكبير، إذ أظهر (سباتاي) الإسلام، وهو الذي ينتمي إليه يهود الدونمة، وأضمر اليهودية، وتظاهر أتباعه كذلك بالإسلام وأبطنوا غيره وأخذوا ينضمون في تنظيم الاتحاد والترقي، وكثر عددهم وزاد خطرهم وخاصةً في الجيش، وأخذوا يهدّدون، ويقتلون من يخالفهم، وأعلنوا عن الحرية في (سلانيك)، واضطر الخليفة أن يُصدر أمره بمنح الدستور.

أُعلن الدستور والحريات، وصدر العفو العام، وفُتحت أبواب السجون فانتشر المجرمون في كل جهةٍ.

اجتمع المجلس وفاز فيه الاتحاديون بأغلبيةٍ كبيرةٍ، وتسلّم أحمد رضا رئاسة المجلس، وهو مؤسس

جمعية تركيا الفتاة في باريس، وجعلوا من أهدافهم خلع الخليفة عبد الحميد الثاني وأخذوا يخططون لذلك ويبذلون جهدهم، وقد غرّهم نجاحهم وأطمعهم في أكثر ما حصلوا عليه، أو أن الخليفة عبد الحميد قد قطع عليهم الطريق عندما وافق علىٰ طلباتهم وأعلن الدستور، لذا أرادوا متابعة الأهداف وخلع الخليفة وبدؤوا يثيرون القلاقل، وكانوا من وراء مطالب تبدو أنها من رجال الخليفة وأعوانه مثل: إحياء الشريعة الإسلامية، عزل الصدر الأعظم وناظري الحربية والبحرية، العفو العام و... ويظهر من هذه المطالب أنها من أعداء الاتحاد والترقي، والحقيقة أنها منهم وهدفها إثارة القلاقل والفوضىٰ.

اجتمع مجلس العموم ولم يزد عدد الأعضاء الحاضريين علىٰ الخمسين عضواً ومع ذلك فقد قرروا إجابة المطالب التي طُرحت، وأبلغوا الخليفة ذلك فتقرّر عزل الصدر الأعظم السابق، وتعيين توفيق باشا مكانه، كما تقرّر تعيين أدهم باشا ناظراً للحربية، وصدر عفو عام، وجرت احتفالات بين الجند وجرىٰ إطلاق الرصاص لبقاء حالة الفوضىٰ بسماع دويّ الرصاص. ثم اجتمع المجلس وقرر قبول استقالة أحمد رضا باشا من رئاسة المجلس.

ادّعىٰ رجال الاتحاد والترقي أن الدستور مُعرّض للإلغاء والحرية مهدّدة بالاستبداد، لذا تقدّم الجيش المرابط في سلانيك بإمرة محمود شوكت لحماية الدستور والمجلس، وكان بين أفراد هذا الجيش أفراد مشبوهين ارتدوا لباس الضباط، ووصل الجيش بقيادة محمود شوكت والذي أُطلق عليه جيش الحرية إلىٰ العاصمة إستانبول دون مقاومةٍ وألقىٰ الحصار عليها، ووقف أمام الثكنات العسكرية وفتح نيرانه عليها وحدثت اشتباكات دامية وأمر إسماعيل حقي جنده برفع الأعلام البيضاء إشارةً إلىٰ الاستسلام فتوقّف القتال.

برز أنور باشا مع بعض رجاله فقتلوا من وجدوا في طريقهم، ثم ساروا إلىٰ مقرّ إسماعيل حقي فقتلوه أيضاً، وجرّدوا الضباط من سلاحهم، ثم ساروا إلىٰ قصر (يلدز) حيث يقيم الخليفة فقتلوا مرافقه، ونهبوا القصر، وأحدثوا مذبحةً كبيرةً فيه دون سببٍ، وأُعلنت الأحكام العرفية، ومُنع التجوّل من بعد المغرب.

شكّل مجلس العموم مجلساً أطلقوا عليه اسم (المجلس الملكي) فاجتمع مع مجلس الحركة، وقرروا خلع الخليفة عبد الحميد الثاني باستصدار فتوىٰ من شيخ الإسلام، واجتمع مجلس المبعوثان مع مجلس النواب وقرّرا في جلسةٍ مشتركةٍ خلع الخليفة بعد صدور

فتوىٰ من شيخ الإسلام بضغط الاتحاديين، واستدعىٰ المجلس الصدر الأعظم توفيق باشا لتكليفه بإبلاغ القرار إلىٰ الخليفة فرفض، فكلّف المجلس وفداً من: الفريق البحري عارف حكمت، وآرام الأرمني، وعمانوئيل قره صو اليهودي، وأسعد طوبطاني، وذهب الوفد إلىٰ الخليفة وقرأ الفتوىٰ، فتقبّل الخليفة ذلك الأمر، ولكنه خاطبهم قائلاً: ولكن لماذا جئتم بهذا اليهودي (وأشار إلىٰ قره صو) إلىٰ مقام الخلافة؟.

نُقل الخليفة عبد الحميد إلىٰ مدينة سلانيك مع أسرته ومرافقيه، وبقي تحت حراسة الاتحاديين حتىٰ حرب البلقان سنة ١٣٣٠هـ إذ نُقل بعدها إلىٰ قصر (بكلربكي) في إستانبول، وبقي فيه حتىٰ توفي سنة ١٣٣٦هـ عن عُمرٍ يناهز السابعة والسبعين.

استمر حكم الخليفة عبد الحميد الثاني ما يقرب من خمسٍ وثلاثين سنةً وقدم خلالها كثيراً من الخدمات، وقد عُرف بموقفه ضد هجرة اليهود إلىٰ فلسطين، ودعوته للجامعة الإسلامية، ولكن أعداءه أشاعوا الكثير ضده، وافتروا الكثير عليه.

ـ ٢٧ ـ

محمد رشاد «محمد الخامس»

(١٣٢٨هـ ـ ١٣٣٧هـ)

ولد محمد رشاد بن عبد المجيد سنة ١٢٦٠هـ فهو أصغر من أخيه عبد الحميد بسنةٍ واحدةٍ، وتولّىٰ محمد رشاد الخلافة بعد أخيه عبد الحميد سنة ١٣٢٨هـ فكان عمره يوم تولّىٰ الخلافة ثماني وستين سنةً.

بعد خلع الخليفة عبد الحميد الثاني أصبح كل شيءٍ في الخلافة بيد الاتحاديين أما الخليفة فكان صورةً، ولكن الأمر لم يطل إذ لم يتعاقب علىٰ الخلافة سوىٰ ثلاثة خلفاء (محمد رشاد، محمد وحيد الدين، عبد المجيد الثاني) مدة أربع عشرة سنة (١٣٢٨ ـ ١٣٤٢هـ) إذ تسلّم السلطة مصطفىٰ كمال بأيدٍ أجنبيةٍ وألغىٰ الخلافة.

جرت الانتخابات النيابية سنة ١٣٣٠هـ، وحصل الاتحاديون علىٰ فوزٍ ساحقٍ فيها، وانتشرت الدعوة القومية فبرزت العصبية الجاهلية وأخذ كل شعبٍ يتعصّب لقومه، وبدأ التركيز علىٰ ذلك لتشتت الأمة الواحدة، وبذا فإن شعارات جماعة الاتحاد والترقّي في

المساواة قد ذهبت هدراً بل لم تكن سوىٰ دعايةٍ، وبدأت المهاترات بين القوميات.

الحرب الطرابلسية ـ الإيطالية:

كانت إيطاليا تطمع ببسط نفوذها علىٰ منطقة طرابلس الغرب والسيطرة عليها، وخاصةً بعد أن احتلّت فرنسا منطقة تونس سنة ١٢٩٩هـ، فبدأت إيطاليا تعقد الاتفاقات السياسية مع الدول الأوربية، ثم اتجهت إلىٰ تهيئة الوضع داخل ليبيا فعملت علىٰ شراء أراضي، وإنشاء مشروعاتٍ زراعيةٍ، وإرسال بعثاتٍ نصرانيةٍ كاثوليكيةٍ، وتأسيس شركةٍ للبواخر التي تقوم بالنقل بين أوربا وليبيا، وفتح مدارس إيطاليةٍ، ومسح السواحل عن طريق ضباطٍ يُظهرون العمل بصيد الإسفنج.

وفي سنة ١٣٢٨هـ قدّمت إيطاليا إنذاراً للدولة العثمانية اتهمتها بعرقلة المساعي لتحضير سكان ليبيا، لذا فقد قررت ليبيا احتلال ذلك الجزء من شمالي إفريقية، فأعلنت الدولة العثمانية رفضها للإنذار واحتجت لدىٰ الدول الأوربية.

حاصرت إيطاليا سواحل طرابلس وبرقة كي لا تصل إليها مساعدات، وكذا حاصرت إنكلترا الحدود البرية من جهة مصر. وبدأ الأسطول الإيطالي بقصف

السواحل الليبية وإنزال القوات التي احتلت طرابلس، وبنغازي، والخُمس، وعُرفت البلاد باسم (ليبيا) وأعلنت إيطاليا ضمّ هذا الجزء من شمالي إفريقية إليها، وبدأت المقاومة الإسلامية تقوىٰ حتىٰ ألجأت المستعمرين إلىٰ السواحل، وتقدّم العثمانيون بقيادة عزيز المصري والمتطوعون بقيادة أنور باشا وأخيه نوري وعمه خليل، وكذا السكان، ومنهم السنوسيون وقد وصلوا إلىٰ طرابلس وانتصروا علىٰ الطليان في بنغازي.

هددت إيطاليا باحتلال إستانبول، وقد أرسلت بارجتين إلىٰ هناك واحتلت بعض الجزر، وضربت ميناء بيروت، فاضطرت الدولة العثمانية إلىٰ عقد معاهدةٍ مع إيطاليا، وانسحبت من ليبيا وتركت المجاهدين وحدهم بالميدان، واضطر أنور باشا علىٰ الانسحاب فتولّىٰ عزيز المصري قيادة المجاهدين.

عُقدت معاهدة السلم سنة ١٣٢٩هـ، ولم تعترف الدولة العثمانية بالاحتلال الإيطالي لليبيا وإنما تعهدت بسحب جنودها وموظفيها، وصدر قرار من الخليفة بإعطاء ليبيا الاستقلال الذاتي، وتعهدت ليبيا بإعطاء الحرية الدينية، والعفو العام، وقبول ممثلٍ عثمانيٍّ. ولم تُنفّذ إيطاليا بنود المعاهدة.

ودخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولىٰ

بجانب ألمانيا، علىٰ حين وقفت إيطاليا بجانب الحلفاء، فعادت الدولة العثمانية وإيطاليا وجهاً لوجهٍ، وعادت الدولة العثمانية ترسل المؤن والمساعدات إلىٰ المجاهدين حتىٰ نهاية الحرب العالمية الأولىٰ حيث خرجت الدولة العثمانية مهزومةً مجزّأةً.

هذه الهزائم التي مُنيت بها الدولة أو جماعة الاتحاد والترقي في ليبيا جعلت خصومهم يتقوّون عليهم، وجاء التهديد من جانب الجيش فألزمهم علىٰ التخلّي عن السلطة سنة ١٣٣٠هـ، وتشكل ائتلاف سياسي من خصومهم عُرف باسم الائتلاف الحرّ أو الاتحاد الحرّ، وتخلّىٰ الاتحاديون عن الحكم، وشكل الوزارة محمد كامل باشا.

حرب البلقان:

رفضت البوسنة والهرسك دعوة مندوبيها لحضور المجلس النيابي في إستانبول سنة ١٣٢٧هـ، مع أنها كانت لا تزال تتبع الدولة العثمانية اسمياً، واتجهت نحو الصرب، وهذا ما أثار النمسا التي ترغب في بسط سيطرتها علىٰ البوسنة والهرسك، وتختلف مع الصرب مذهبياً وسياسياً، فأسرعت النمسا واتفقت مع روسيا سراً علىٰ أن تضمّ البوسنة والهرسك إليها مقابل أن

تكون مضائق البوسفور والدردنيل مفتوحةً دائماً في وجه حركة السفن الروسية، وبالفعل فقد احتلت النمسا مقاطعة البوسنة والهرسك ولم تتمكن روسيا من فعل شيءٍ إذ لم توافق الدول الأوربية علىٰ ذلك، بل اضطرت روسيا أمام ضغط ألمانيا علىٰ الاعتراف بالواقع في ضمّ النمسا للبوسنة والهرسك، وزادت العداوة بين النمسا والصرب.

أما إيطاليا فقد تأثرت من فعل النمسا لأنها هي لها أطماع في مقاطعة البوسنة والهرسك كذلك، فأسرعت لعقد اتفاقٍ سري مع روسيا أيضاً، ويتضمن الوقوف في وجه النمسا إذا حاولت أن تتقدّم أيّة خطوةٍ في بلاد البلقان.

أعلن الجبل الأسود الحرب علىٰ الدولة العثمانية سنة ١٣٣٠هـ، ووقف بجانبه أعضاء تحالف البلقان وهي: صربيا، وبلغاريا، واليونان وتمكّنوا من إحراز النصر علىٰ العثمانيين، واستعملوا الطائرات لأول مرةٍ في هذه الحرب، وقصفوا مدينة أدرنة، وفقدت الدولة العثمانية معظم أراضيها في أوربا. وبعد وقف القتال جرىٰ الاتفاق علىٰ استقلال ألبانيا، وقُسّمت الأراضي الباقية التي كانت للعثمانيين في أوربا بين أعضاء البلقان. وعُرفت هذه الحرب باسم حرب البلقان الأولىٰ.

بعد هزيمة الدولة العثمانية في حرب البلقان الأولىٰ فقد الاتحاد الحرّ الحاكم في الدولة شعبيته نتيجة تلك الهزيمة، وقامت مجموعة من الضباط من الاتحاد والترقي بقيادة أنور باشا بانقلابٍ، وأجبرت رئيس الوزارة محمد كامل باشا علىٰ الاستقالة، وتشكلت وزارة جديدة برئاسة محمود شوكت، ولم يكن من أعضاء الاتحاد والترقّي، ولم تتمكّن مجموعة الاتحاد والترقي من تمكين قبضتها علىٰ السلطة حتىٰ اغتيل محمود شوكت بعد ستة أشهرٍ من تسلّمه السلطة، وبرز من هذه المجموعة طلعت باشا، وأنور باشا، وجمال باشا وإن اختلفت آراؤهم إلا أنهم كانوا هم المجموعة التي تسيطر علىٰ الحكم وتسيّره.

اختلف أعضاء التحالف البلقاني علىٰ تقسيم الأجزاء التي حصلوا عليها، إذ تنازعوا علىٰ سيادة بلغاريا علىٰ مقدونيا، وقد أصرّت بلغاريا علىٰ ذلك فوقفت في وجهها كل من رومانيا، والصرب، واليونان ووقعت الحرب بينهم سنة ١٣٣٢هـ فانضمّ العثمانيون في هذه الحرب ضدّ البلغار، وحصلوا منهم علىٰ جزءٍ مما خسروه في الحرب الأولىٰ، إذ ضمّوا إليهم تراقيا بما فيها مدينة أدرنة نتيجة معاهدة لندن سنة ١٣٣٢هـ، وعُرفت هذه الحرب باسم حرب البلقان الثانية.

الدولة العثمانية والحرب العالمية الأولىٰ:

لقد استطاع أنور باشا أن يجرّ الدولة إلىٰ الحرب بجانب ألمانيا، رغم معارضة طلعت باشا الذي لم يلبث أن وافق علىٰ دخول الحرب، ومعارضة جاويد باشا الذي ظلّ متمسكاً برأيه فاستقال، ومعارضة جمال باشا الذي قال بالحياد ثم انضمّ إلىٰ جانب أنور باشا، أما الخليفة محمد رشاد فكان ضد الحرب ويؤيده في ذلك ولي العهد يوسف عز الدين بن الخليفة عبد العزيز (١٢٧٧ ـ ١٢٩٣هـ) وأكثر الوزراء، ولعلّ مما قوّىٰ جانب أنور باشا استيلاء الإنكليز علىٰ دارعتين للدولة، ولجوء طرّادين ألمانيين إلىٰ مياه الدردنيل ورفض الحكومة تسليمهما رغم إلحاح الحلفاء، واقتراح فرنسا علىٰ جمال باشا عندما زارها مندوباً عن الحكومة العثمانية لحضور المناورات الفرنسية، ولعقد معاهدةٍ لتقوية الصلات بين الدولتين، وكان هذا الاقتراح إعطاء استقلالٍ ذاتيٍ للشام وإطلاق يد فرنسا فيها وهذا ما يشير إلىٰ أطماع فرنسا في بلاد الشام، كل هذا ساعد علىٰ دخول الدولة العثمانية إلىٰ جانب ألمانيا في الحرب، مع الاستشعار بالخطر الروسي وسيطرته علىٰ أجزاء واسعةٍ من بلاد المسلمين: أواسط آسيا، وقفقاسيا، والقرم، وكذلك سيطرة بقية دول الحلفاء:

إنكلترا، وفرنسا، وإيطاليا علىٰ مساحاتٍ واسعةٍ من بلاد المسلمين سواء أكان ذلك في إفريقية أم في آسيا، وفي الوقت نفسه لم تكن هناك أطماع ظاهرة بعد لألمانيا في الدولة العثمانية خاصةً وفي بلاد المسلمين عامةً.

وحاول الحلفاء إبقاء الدولة العثمانية علىٰ الحياد بإغرائها بالقروض المالية، وإلغاء الامتيازات الأجنبية التي كانت قائمةً والتي كانت سبباً في كثير من المشكلات الداخلية، والسماح للطرادين الألمانيين بالعودة إلىٰ ألمانيا غير أن حكومة الاتحاد والترقي قد رفضت هذا كله وألغت الامتيازات الأجنبية بنفسها، وقدّمت مذكرةً للحلفاء تطلب منهم:

١" ـ إلغاء الامتيازات الأجنبية.

٢" ـ خروج إنكلترا من مصر.

٣" ـ إعادة الجزر في بحر إيجة للدولة العثمانية.

٤" ـ منع روسيا من التدخّل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية.

وحاول الحلفاء التأخّر في ردّ الجواب، وانقطعت العلاقات.

كانت ألمانيا قد تقدّمت في بلاد فرنسا، ولكنها توقّفت عند نهر المارن أحد روافد نهر السين الذي يمرّ

من العاصمة باريس، فرأىٰ الألمان يومذاك أن يضغطوا علىٰ الدولة العثمانية كي تشترك بالحرب إلىٰ جانبهم، لتُفتح جبهة جديدة في الشرق علىٰ روسيا فيخفّ الضغط علىٰ الألمان في تلك الجبهة، ويمكنهم التحرّك نحو الغرب والهجوم من جديدٍ وكسر القوات الحليفة المتمركزة عند نهر المارن، وعرض الألمان علىٰ الدولة العثمانية قرضاً مالياً بمبلغ خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية مقابل دخولهم إلىٰ جانبهم.

أمر وزير الحربية أنور باشا الأسطول العثماني بالتحرّك إلىٰ البحر الأسود وضرب مرافئ روسيا علىٰ ذلك البحر، فلم يوافق وزير البحرية جمال باشا، وكاد الخلاف يقع بينهما إلا أن جمال باشا عاد وامتثل لرأي أنور باشا، وخاصةً كان القرض الألماني من أهم المغريات له.

ضربت القطعات البحرية العثمانية مرفأ أوديسا وأغرقت طرّاداً روسياً. وضربت دارعة ألمانية ميناء سيباستيبول وأثناء انسحابها أغرقت باخرة نقلٍ روسية.

أعلنت الدولة العثمانية التعبئة العامة فجمعت نصف مليون جندي تحت السلاح، وربع مليون آخر كان تحت التدريب. احتُفظ منها بمائتي ألفٍ حول العاصمة ومضيق الدردنيل، وخمسين ألفاً في إقليم تراقيا (الجزء

الأوربي) احتمالاً لأي طارئٍ يأتي من هذه الجهة، ومائة ألفٍ وُضعوا علىٰ الجبهة الشرقية التي كان مركزها أرضروم، وأربعين ألفاً أُرسلوا إلىٰ جنوب غربي بلاد الشام (فلسطين)، وكان أكثر من مائة ألفٍ موزعةً علىٰ شكل قطعاتٍ في الشام والقفقاس.

الجبهة الشرقية:

هاجم العثمانيون الروس من ناحية القفقاس لتخفيف الضغط عن حلفائهم الألمان، وذلك وقت فصل الشتاء الشديد البرد بسبب الوضع الجبلي، وقاد هذه الجبهة أنور باشا بنفسه بمائة ألف جنديٍ، غير أن الهجوم العثماني قد فشل، وأُبيدت قطعات عثمانية إبادةً تامةً، واضطروا إلىٰ التراجع إلىٰ قاعدتهم في مدينة أرضروم.

جبهة قناة السويس:

أراد العثمانيون الهجوم علىٰ قناء السويس لقطع طريق الهند عن الإنكليز وإخراجهم بالتالي من مصر، وتوقّعوا مساعدة المصريين. وهطلت أمطار أثناء ذلك علىٰ سيناء فتماسكت الرمال فسهُلت الحركة.

تحرّكت قطعات من الجيش الرابع إلىٰ الجبهة المصرية، وبقيت قطعات أخرىٰ مرابطة في بلاد الشام

خوفاً من أن يُنزل الحلفاء قواتٍ علىٰ سواحل بلاد الشام، إضافةً إلىٰ الخوف من النصارىٰ الذين كانوا علىٰ صلةٍ مع الحلفاء أبناء عقيدتهم.

تحرّكت ثماني فرقٍ عثمانيةٍ من بلاد الشام عبر سيناء إلىٰ قناة السويس في بداية شتاء سنة ١٣٣٣هـ، وقد سلكت محورين في تحرّكها أولهما: محور رفح ـ القنطرة، وثانيهما: محور معان ـ السويس.

وصلت القوات العثمانية إلىٰ ضفاف قناة السويس بعد خمسة عشر يوماً من حركتها، وكانت القطعات الهندية مكلفةً بحماية القناة من أي هجومٍ عثمانيٍ. ونفذت ذخيرة القوات العثمانية فاضطروا إلىٰ العودة بعد أسبوعين إلىٰ مراكزهم في غزة ومعان.

وبعد شهرين جرت محاولة ثانية للهجوم علىٰ قناة السويس مع مطلع فصل الربيع، وقاد الألمان العمليات، وقد فشل الهجوم الثاني أيضاً، وقام هجوم ثالث بعد ثلاثة أشهرٍ في منتصف فصل الصيف وكان قادة العمليات من الألمان أيضاً، وفشل هذا الهجوم كذلك.

جبهة عدن:

حاول العثمانيون الهجوم علىٰ عدن لإخراج الإنكليز منها، ولعرقلة طريق الهند عليهم، ووقف أهل اليمن

بجانب العثمانيين بمقتضىٰ العقيدة علىٰ الرغم مما كان بينهما سابقاً، وفشل الهجوم العثماني ـ اليمني علىٰ عدن.

ووقف الإدريسي في تهامة عسير والذي كان مقره (صبيا) بجانب الإنكليز وقدّم لهم مساعداتٍ كثيرةً، وكان علىٰ خلافٍ مع أئمة اليمن.

جبهة الدردنيل:

اهتمّ العثمانيون بتحصين مضيق الدردنيل سواء من الناحية الأوربية أم من الناحية الآسيوية، واشتهرت قلعة (تشانقلعة) من جهة البر الآسيوي عند المدخل الجنوبي، و(غاليبولي) من جهة البر الأوربي قبل الدخول في بحر مرمرة، وكانت هناك قطعات للحلفاء قريبة من مضيق الدردنيل، وقام العثمانيون بهجومٍ عليها غير أنهم قد فشلوا في هجومهم هذا.

الهجوم الإنكليزي:

جرت اتصالات بين الإنكليز وبين شريف مكة علىٰ العمل معاً ضد العثمانيين، ووقف آل رشيد في (حائل) علىٰ الحياد، وعُزل جمال باشا من قيادة الجيش الرابع العثماني المكلّف بالحملة علىٰ قناة السويس، وغدت القيادة في تلك الجبهة كلها بيد الألمان. هجم

الإنكليز علىٰ سيناء، وتقدّم الأمير فيصل بن شريف مكة، وهوجمت القوات العثمانية في جبل الدروز وبعلبك، وحدثت المجاعة في صفوف القوات العثمانية، كل هذا جعل العثمانيين يتراجعون، وكان لهم ثلاثة جيوش في جنوبي بلاد الشام، وقائدها العام الضابط الألماني (ساندرس).

١" ـ الجيش الرابع في البلقاء (منطقة الأردن).

٢" ـ الجيش السابع في الوسط، ويقوده مصطفىٰ كمال.

٣" ـ الجيش الثامن في الغرب، ويحمي السواحل.

تقدّم الإنكليز في فلسطين بقيادة الجنرال (اللنبي)، ودخلوا القدس وقد ظهرت الصليبية إذ أعلن الجنرال اللنبي ذلك فقال: الآن تنتهي الحروب الصليبية. وقاموا بهجومٍ في جنوب مدينة نابلس سنة ١٣٣٦هـ، وتقدّموا نحو مقرّ القيادة في الناصرة، وكاد يقع الجنرال الألماني (ساندرس) في الأسر، وتراجع العثمانيون بقيادة مصطفىٰ كمال. وكان الفيلق العربي بقيادة الأمير فيصل بن الحسين شريف مكة ويساعده لورانس الإنكليزي وقد دخل معان واتجه شمالاً، وانتظره الإنكليز حيث طلبوا منه أن يدخل دمشق قبلهم، ولهم

هدف في ذلك، ثم دخلت بلاد الشام كلها في قبضة الأمير فيصل والإنكليز.

أصدر القائد الإنكليزي (هاملتون) الأوامر بالنزول في برّ مضيق الدردنيل، وأعطىٰ القطعات الإنكليزية مهمة النزول علىٰ البر الأوربي غربي ميناء (غاليبولي)، وأعطىٰ مهمة النزول في البر الآسيوي إلىٰ القطعات الفرنسية، فنزل عشرون ألف جندي، وأعطت القيادة المشتركة من العثمانيين والألمان الأوامر إلىٰ مصطفىٰ كمال بالتحرّك إلىٰ ساحة المعركة، والتقىٰ الطرفان ولم يتفوّق طرف علىٰ آخر إذ دافعت القوات العثمانية دفاعاً قوياً، وأبدت القوات الأسترالية التابعة للإنكليز حماسةً للتقدّم أيضاً.

قامت القيادة المشتركة (العثمانية ـ الألمانية) بهجومٍ علىٰ قوات الحلفاء لكنها أخفقت في زحزحتهم عن مواقعهم، ثم قام هجوم إنكليزي كانت نتيجته الفشل أيضاً، وبدا الطرفان متعادلين تقريباً، ثم تراجع الحلفاء أمام مصطفىٰ كمال دون معارك، وضمن مخططٍ لتلميعه إذ كان اللقاء الفكري السياسي.

بدت علامات الضعف علىٰ العثمانيين بعد انسحابهم من بلاد الشام وتراجعهم في العراق، والتقىٰ مسؤولون عثمانيون وإنكليز علىٰ ظهر الباخرة الإنكليزية

(أغامنون) ووضعت شروط للهدنة وأعلنت الدولة العثمانية استسلامها.

ومع حكم جماعة الاتحاد والترقي سيطرت فكرة القومية الطورانية (التركية)، وهذا ما شجّع القوميات الأخرىٰ للحركة من باب العصبية، وكان هذا ضمن مخططٍ لتفرقة الأمة الإسلامية، ومن ورائه الصليبيون وأعداء المسلمين عامةً، وقامت جمعيات تدعو إلىٰ العصبية وتحمل لواءها، فتشتت القلوب فلجأت جماعة الاتحاد والترقي إلىٰ أسلوب القمع، فزاد الأمر ردّ فعلٍ قويٍّ عند مختلف الشعوب التي تشملها الدولة العثمانية وبدأت المؤتمرات القومية تُعقد، ومنها مؤتمر باريس الذي دعت إليه الجمعية العربية الفتاة التي عاد مركزها إلىٰ باريس، وقد عُقد هذا المؤتمر سنة ١٣٣٢هـ، وحضره مندوبون عن بلاد الشام والمقاطعات العربية الأخرىٰ وعن المهجر، وكان عدد الأعضاء النصارىٰ فيه يعادل الأعضاء المسلمين، وقدّمت فرنسا لهذا المؤتمر الخدمات والمساعدات كلها.

حاولت جماعة الاتحاد والترقّي الضغط علىٰ فرنسا لإلغاء المؤتمر فلم تُفلح فأرسلت أمين سر جماعتها وهو مدحت شكري فاتصل مع زعماء العرب، وحضر المؤتمر، واتفق معهم علىٰ أن تكون:

١ ـ اللغة العربية رسمية في الولايات العربية، وفي المدارس الابتدائية والثانوية.

٢ ـ الخدمة العسكرية الإلزامية في المناطق المحلية.

٣ ـ ثلاثة وزراءٍ من العرب، وخمسة ولاةٍ، وعشرة متصرفين.

٤ ـ نائبان في مجلس الأعيان عن كل ولايةٍ عربيةٍ.

وقّع هذه الاتفاقية عن حكومة الاتحاد والترقي وزير الداخلية محمد طلعت باشا وعن المؤتمرين العرب عبد الكريم خليل. أما المؤتمرون العرب فكانت قراراتهم:

١ ـ ضرورة القيام بالإصلاح الإداري وبشكلٍ سريعٍ.

٢ ـ اشتراك العرب في الإدارة المركزية.

٣ ـ تأدية الخدمة العسكرية الإلزامية محلياً.

٤ ـ جعل اللغة العربية رسميةً.

٥ ـ تأييد الأرمن في مطالبهم القومية.

ولم يتمّ شيء مما اتُفق عليه لاختلاف الاتحاديين فيما بينهم، وتباين آرائهم، واندلاع الحرب العالمية الأولىٰ واشتراك الدولة العثمانية فيها.

حصل اتفاق في هذه الأثناء بين الدولة العثمانية

والإمام يحيىٰ حميد الدين في اليمن علىٰ أن يكون له ولأبنائه من بعده حكم مرتفعات اليمن، وعلىٰ أن تبقىٰ تهامة وسواحل البحر الأحمر تحت سيطرة العثمانيين.

وقوي أمر الملك عبد العزيز آل سعود في جزيرة العرب، وأبدىٰ عدم الطاعة للدولة العثمانية، علىٰ حين وقف آل رشيد في حائل إلىٰ جانب الدولة العثمانية، وأرسلت جماعة الاتحاد والترقي الشريف حسين بن علي من إستانبول ليقف في وجه أطماع الملك عبد العزيز آل سعود، وكان بينهما الصراع. وكانت المراسلات بين الشريف حسين بن علي وبين مكماهون في القاهرة، وكانت الحركة العربية ودخول بلاد الشام مع الإنكليز أثناء الحرب العالمية الأولىٰ.

توفي الخليفة سنة ١٣٣٧هـ قبل استسلام الدولة العثمانية بعدة شهورٍ عن عُمرٍ يناهز السبعة والسبعين (١٢٦٠ ـ ١٣٣٧هـ) وولي الخلافة مدة تسع سنواتٍ (١٣٢٨ ـ ١٣٣٧هـ). وكان ولي عهده يوسف عز الدين ابن عمه الخليفة عبد العزيز (١٢٧٧ ـ ١٢٩٣هـ)، لكن يوسف عز الدين قد توفي مسموماً ١٣٣٥هـ، لذا فقد تولّىٰ الخلافة بعد وفاة الخليفة محمد رشاد (محمد الخامس) أخوه محمد وحيد الدين (محمد السادس).

- ٢٨ -

محمد وحيد الدين
«محمد السادس»

(١٣٣٧ ــ ١٣٤٠هـ)

ولد محمد وحيد الدين بن عبد المجيد سنة ١٢٧٧هـ فكان عمره عندما تولّىٰ الخلافة ستين سنةً، وقد استسلمت الدولة العثمانية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولىٰ بعد أن استلم الخلافة بعدة شهورٍ فقط.

عندما هُزمت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولىٰ، واحتلّ الأعداء أكثر أجزائها باستثناء بعض المناطق لأن روسيا كانت قد قامت فيها الثورة الشيوعية فانسحبت من الحرب، ولم تستطع أن تتقدّم في المناطق الشرقية أو تحتلّ أجزاء من الدولة.

لقد سيطر الحلفاء علىٰ إستانبول والمضايق، واحتلّت اليونان الأقسام الغربية، وإيطاليا أجزاء من الجنوب، وذهبت البلدان العربية بأيدي إنكلترا وفرنسا و. . . . فأراد الخليفة محمد وحيد الدين أن يُنقذ الدولة مما هي فيه فوضع ثقته في مصطفىٰ كمال وكان قد لمع

نجمه، فأصبح يعمل لنفسه ولتنفيذ المخطط الذي وضعه من أوصل مصطفىٰ كمال إلىٰ المنزلة التي وصل إليها، فوجد الخليفة أن ظنّه قد خاب، وأنه لا يستطيع فعل شيءٍ فاعتزل السلطة وتنازل عن الخلافة سنة ١٣٤٠هـ، وابتعد عن السياسة، وبقي معتزلاً حتىٰ توفي سنة ١٣٤٤هـ عن عمرٍ يناهز السابعة والستين، وكان قد تولّىٰ الخلافة ثلاث سنواتٍ.

ـ ٢٩ ـ

عبد المجيد الثاني

(١٣٤٠ ــ ١٣٤٢هـ)

عبد المجيد بن الخليفة عبد العزيز بن الخليفة محمود الثاني. ولد عبد المجيد في إستانبول سنة ١٢٨٣هـ، وبويع بالخلافة في ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٤٠هـ وهو ابن سبعٍ وخمسين سنةً.

تسلّم عبد المجيد الخلافة بعد إلغاء السلطنة سنة ١٣٤٠هـ، وجُرّد الخليفة من السلطات السياسية كافةً.

بعد ثلاثة أيامٍ من استلام عبد المجيد الثاني الخلافة افتتح مؤتمر لوزان، وحضره وفد (أنقرة) فقط، ووضع رئيس الوفد الإنكليزي (كرزون) أربعة شروطٍ للاعتراف باستقلال تركيا، وهي:

١" ـ إلغاء الخلافة الإسلامية.

٢" ـ طرد الخليفة من بني عثمان خارج الحدود.

٣" ـ إعلان علمانية الدولة.

٤" ـ مصادرة أملاك وأموال بني عثمان.

وأخفق المؤتمر ورجع الوفد التركي إلىٰ بلاده برئاسة عصمت إينونو. واختلف مصطفىٰ كمال وعصمت إينونو مع رئيس الوزارة وتؤيده الجمعية الوطنية، فاستقال رئيس الوزارة وبدأت الألاعيب والدسائس فحلّ مصطفىٰ كمال الجمعية الوطنية، وكانت الجمعية الوطنية ضدّه، ولكنها عجزت عن تشكيل وزارةٍ جديدةٍ بسبب الألاعيب، وكثرة الفوضىٰ.

قرّر مصطفىٰ كمال إعلان الجمهورية، واجتمعت الجمعية الوطنية وتفادياً للمشكلات وإنهاءً للفوضىٰ دُعي مصطفىٰ كمال لتشكيل الوزارة فوافق بشرط ألا يُناقش في تصرفاته، وشكّل الوزارة، وأعلن الجمهورية، وانتُخب رئيساً لها، فقامت الاحتجاجات إلا أن الضغط والقتل قضىٰ عليها.

دعا المجلس الوطني لعقد جلسةٍ، وقدّم مرسوماً بإلغاء الخلافة، وطرد الخليفة، وفصل الدين عن الدولة، وأمر الخليفة عبد المجيد بالسفر إلىٰ سويسرا، ثم أصدر مرسوماً بإلغاء الوظائف الدينية، وامتلاك الدولة للأوقاف. وأرسل عصمت إينونو وزير خارجيته إلىٰ لوزان، وأُعيد المؤتمر، واعترفت إنكلترا باستقلال تركيا، وانسحبت من المضائق وإستانبول.

وبعد أربعة أشهرٍ من إعلان الجمهورية يصدر أمر من مصطفىٰ كمال في ٢٧ رجب سنة ١٣٤٢هـ (٣ آذار ١٩٢٤م) بإلغاء الخلافة ووزارة الأمور الشرعية ووزارة الأوقاف، وإلحاق المدارس الدينية بوزارة المعارف، وإخراج الخليفة وأفراد أسرته جميعاً من البلاد، وتمّ ذلك، وطُرد الخليفة عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز، ونُقل إلىٰ مدينة (نيس) بجنوبي فرنسا علىٰ ساحل البحر المتوسط ليعيش هناك، وتوفي في باريس في ١ شعبان ١٣٦٠هـ (٢٣ آب ١٩٤١م) عن عمرٍ يناهز السابعة والسبعين.

الخلفاء العثمانيون :

(١) سليم الأول.

(٢) سليمان الأول.

(٣) سليم الثاني.

(٤) مراد الثالث.

(٥) محمد الثالث.

(٦) أحمد الأول. (٧) مصطفى الأول.

(٨) عثمان الثاني. (٩) مراد الرابع. (١٠) إبراهيم الأول.

(١١) محمد الرابع. (١٢) سليمان الثاني. (١٣) أحمد الثاني.

(١٤) مصطفى الثاني. (١٥) أحمد الثالث.

(١٦) محمود الأول. (١٧) عثمان الثالث.

(١٩) عبد الحميد الأول. (١٨) مصطفى الثالث.

(٢١) مصطفى الرابع. (٢٢) محمود الثاني. (٢٠) سليم الثالث.

(٢٣) عبد المجيد الأول. (٢٤) عبد العزيز.

(٢٩) عبد المجيد الثاني.

(٢٥) مراد الخامس. (٢٦) عبد الحميد الثاني. (٢٧) محمد الخامس. (٢٨) محمد السادس.

الخاتمة

وهكذا انتهت الخلافة الإسلامية في ٢٧ رجب سنة ١٣٤٢هـ، بعد قيامها بألفٍ وثلاثمائةٍ وإحدىٰ وثلاثين سنةً، من سنة ١١هـ إلىٰ ١٣٤٢هـ، وتوالىٰ عليها مائة وخليفة.

٤	العهد الراشدي من	١١ ـ ٤٠هـ.
١٣	العهد الأموي	٤١ ـ ١٣٢هـ[1].
٣٧	العهد العباسي في العراق	١٣٢ ـ ٦٥٦هـ.
٠٠	انقطاع	٦٥٦ ـ ٦٥٩هـ.
١٨	خليفة عباسي في مصر	٦٥٩ ـ ٩٢٣هـ.
٢٩	خليفة عثماني	٩٢٣ ـ ١٣٤٢هـ.
١٠١ خليفة		

(١) الخليفة الشرعي من ٦٤ ـ ٧٣هـ، هو عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، إذ لا يعدّ معاوية الثاني بن يزيد خليفة، إذ لم تبايعه سوىٰ دمشق وما حولها، وكذا مروان بن الحكم إذ لم يُبايع إلا من منطقة البلقاء في منطقة الأردن اليوم، ثم استطاع أن يتغلّب علىٰ بقية الشام ومصر، ولكن الخليفة الشرعي الأول هو صاحب الحق، وكذا لا يُعدّ عبد الملك خليفةً إلا بعد مقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما سنة ٧٣هـ.

ولم يحدث في هذه المدة كلها انقطاع سوىٰ ثلاث سنواتٍ ٦٥٦ ـ ٦٥٩هـ، بعد قضاء المغول علىٰ الخلافة في بغداد سنة ٦٥٦هـ، حتىٰ مبايعة أحفاد الخلفاء العباسيين بعد سقوط بغداد وكانت المبايعة في القاهرة في مصر، والحكم فيها للمماليك الذين بايعوا المستنصر بالله أحمد بن الخليفة العباسي محمد الظاهر (٦٢٢ ـ ٦٢٣هـ) وقد جاء إليهم هارباً من بغداد.

وخليفة المسلمين واحد في ديار الإسلام لقول رسول الله ﷺ: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»[١]. ولقوله ﷺ: «إنه ستكون هنات وهنات. فمن أراد أن يُفرّق أمر هذه الأمة، وهي جميع، فاضربوه بالسيف، كائناً من كان»[٢]. وفي روايةٍ: «من أتاكم وأمركم جميع علىٰ رجلٍ واحدٍ، يريد أن يشقّ عصاكم، أو يُفرّق جماعتكم فاقتلوه»[٣].

لم يكن سوىٰ خليفةٍ واحدٍ في ديار الإسلام، في العهد الراشدي والعهد الأموي والصدر الأول من العهد العباسي حتىٰ سنة ٣١٦هـ، إذ أعلن عبد الرحمن الناصر

---

(١) رواه مسلم. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٢) رواه مسلم. عن عرفجة رضي الله عنه.
(٣) رواه مسلم. عن عرفجة رضي الله عنه.

الأموي في الأندلس الخلافة، وتلقّب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله بأمرٍ أصدره في شهر ذي الحجة سنة ٣١٦هـ، وبقيت الخلافة في الأندلس حتىٰ سنة ٤٠٠هـ أي استمرّت أربعاً وثمانين سنة (٣١٦ ـ ٤٠٠هـ)، وقد توالىٰ ثلاثة خلفاء:

١ ـ عبد الرحمن الثالث	(الناصر لدين الله)	٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ.
٢ ـ الحكم الثاني	(المستنصر بالله)	٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ.
٣ ـ هشام الثاني	(المؤيد بالله)	٣٦٦ ـ ٤٠٠هـ.

وقد سيطر علىٰ الخليفة المؤيّد بالله إذ كان صغيراً يوم وفاة والده الحكم الثاني سنة ٣٦٦هـ الحاجب المنصور محمد بن عبد الله بن عامر وأبناؤه من بعده، ثم خلع الخليفة، وأُعيد لحكمه ثم توفي سنة ٤٠٣هـ. وهكذا فقد وجد خليفتان مدة أربعٍ وثمانين سنة.

كما أن العبيديين قد ادّعوا الخلافة ولكن لا يُلتفت إليهم، لأنهم لم يكونوا مسلمين أبداً ونُطلق عليهم اسم (عبيديين) نسبةً إلىٰ الحاكم الأول منهم وهو عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان. وميمون القداح يهودي بن يهودي وهو ديصان، وقد طلب ميمون من أبنائه أن يُسموا أبناءهم باسم أبناء محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن

الحسين بن علي بن أبي طالب، حتىٰ تتشابه الأنساب ويمكن ادّعاء نسب كذباً وافتراءً، وهكذا كان:

الأسرة الإسماعيلية	الأسرة القداحية
إسماعيل	ديصان
محمد	ميمون «القداح»
عبد الله	عبد الله
أحمد	أحمد
الحسين	الحسين

عبيد الله (المهدي)

فعبيد الله (المهدي) من الأسرة القداحية اليهودية، وإن تسمّىٰ أفراد منها بعد ميمون القداح بأسماء إسلامية (عبد الله ـ أحمد ـ الحسين) بناءً علىٰ طلب (ميمون القداح)، لإمكانية القيام بالدور المطلوب.

وعندما دخل العبيديون مصر سنة ٣٥٧هـ أيام معد بن إسماعيل (المعزّ) ويدّعون النسب إلىٰ الحسين بن عليّ بن أبي طالب، ويتسمّون بـ (الفاطميون) نسبةً إلىٰ فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ أم الحسن والحسين رضي الله عنهما وهي بريئة منهم، وكل طرفٍ بعيد عن الآخر بُعد المشرق عن المغرب، وقد لاحظ المصريون ـ جزاهم الله خيراً ـ هذا البُعد، وعرفوا ذلك الادّعاء الباطل فكانوا دائماً يطلبون من رؤوس الأدّعياء نسبهم، حتىٰ غضب المعزّ معد بن إسماعيل واستلّ سيفه وقال

هذا نسبي. ومع الأسف فقد ظهر اليوم في مصر من يكتب التاريخ ويُصرّ علىٰ النسب الفاطمي، ويتعصّب لهؤلاء الأدّعياء بصفتهم جزءاً من تاريخ مصر، ويحتجّون علىٰ تسميتهم العبيديين رغم أن الأمر عادي إذ هو نسبة إلىٰ أول حكامهم، وهذا أمر معروف مع التأكيد أنهم أدّعياء وليست هناك أية صلةٍ تصلهم بالعرب أو تلتقي بهم مع المسلمين.

ولما كانت خلافة واحدة في ديار الإسلام كانت تجمع بين المسلمين، وقلوبهم تهفو إليها وتلتقي فيها، والخليفة المرجع الرئيسي إليهم أينما كانوا، وهو الذي يُعلن الجهاد ويرفع رايته، والجهاد يثير الحماسة ويرفع الروح المعنوية فيندفع المجاهدون كالأسود، يرجون الشهادة في سبيل الله فينصرهم الله علىٰ أعدائهم.

وبعد معارك طويلةٍ بين المسلمين وأعدائهم أدرك الأعداء أهمية الخلافة، في جمع المسلمين ووحدة كلمتهم ورفع راية الجهاد باعث الروح المعنوية، فأخذ الأعداء يعملون لهدم الخلافة في سبيل تفرقة المسلمين لإضعافهم وترك الجهاد، فاتخذ الأعداء رعاياهم في ديار الإسلام وسيلةً لذلك، واستفادوا من مرضىٰ القلوب وأصحاب المصالح والشهوات ورجال الأطماع ومحبي جمع حطام الدنيا، فاتخذوهم دعماً لرعاياهم

ووسائل بأيديهم، ومع ضعف المسلمين بالتساهل في أمور عقيدتهم تفوّق الأعداء فأثاروا العصبية الجاهلية من قوميةٍ وغيرها، فتفرّق المسلمون وتشتّت شملهم، فأُلغيت الخلافة وتوقّف الجهاد فاستعلىٰ الأعداء وسيطروا علىٰ أجزاء من ديار الإسلام، ونشروا أفكارهم علىٰ مناطق واسعةٍ.

عمل الأعداء علىٰ إبعاد موضوع الخلافة وفكرة الجهاد عن مناهج التعليم في الأمصار التي سيطروا عليها، والابتعاد عن طرحها في الموضوعات الفكرية ووسائل الإعلام، لذا بقي المسلمون علىٰ الحالة التي هم عليها الآن من الضعف وعُقد النقص.

فنرجو من الله العليّ الوهّاب أن ننتبه إلىٰ واقعنا ومكر أعدائنا، ونعود إلىٰ أسباب نهضتنا بالرجوع إلىٰ عقيدتنا منبع صدقنا في أقوالنا، والإخلاص في أعمالنا، ومتابعة علمنا، وخوفنا من بارئنا، والرجوع إليه في كل أعمالنا، وطلبنا منه النصر والتوفيق والنجاح وحُسن الختام. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المُحْتَوىٰ

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني

الخلفاء العثمانيون

الموضوع	الصفحة

ضعف الدولة العثمانية

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة